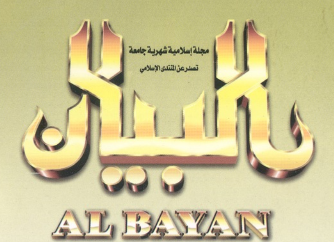
▪ أين العلماء الربانيون؟! ▪ الصفويون الجدد ومحاولات تشييع العراق ▪ المنهج الوسطي في الدعوة



السنة الثانية والعشرون . العدد ٢٤٥ . المحرم ١٤٢٩ هـ . يناير ٢٠٠٨ م

▪ النقد الأدبي آفاق ورؤى

▪ حكم التجنس بجنسية دولة غير إسلامية



التطاول المعاصر على النبي صلى الله عليه وسلم: مظاهره وبواعثه





مجلة البيان

إسلامية شهرية جامعة
تصدر عن المنتدى الإسلامي

المراسلات والإعلانات:

الدول العربية:

▫ السعودية:

ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.

هاتف الاشتراكات مباشر: ٢٢٥١٩٦٧

هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني:

التحرير:

editors@albayan.co.uk

الاشتراكات:

sub@albayan-magazine.com

التسويق:

sales@albayan-magazine.com

عنوان المجلة على الشبكة العالمية: www.albayan-magazine.com

الموزعون:

- **الأردن:** الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٢٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣.
- **الإمارات العربية المتحدة:** شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩ هاتف: ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦.
- **سلطنة عُمان:** مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠.
- **البحرين:** مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ المنامة: ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
- **السعودية:** الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
- **السودان:** الخرطوم، دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع، هاتف ٧٩٣٢٨٣ – فاكس ٧٩٢٢٨٤ – ص.ب ١١١٦٦ الخرطوم.
- **قطر:** دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ – ٤٥٥٧٨١١ – ٤٥٥٧٨١٢ – فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
- **الكويت:** شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع: ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
- **المغرب:** سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
- **اليمن:** دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء: ص. ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٢٥
- طبعت بمطابع الأهرام التجارية – ٦ أكتوبر

الحسابات:

- **السعودية:** شركة الراجحي المصرفية للاستثمار فرع الربوة ـ شارع الأربعين ـ حساب مجلة البيان رقم ٧/٢١٠٠
  - مصرف فيصل الإسلامي ـ حساب رقم: ٠٠٢ ـ ٤٥١٤ ـ ٤٢ ـ ١٠٩
  - الشركة الإسلامية للاستثمار الخليجي ـ حساب رقم ٦٣٤٩٢٤
- **الإمارات:** بنك دبي الإسلامي ـ (فرع دبي) رقم الحساب ٥٥٤٦٥٢٤
- **قطر:** بنك قطر الدولي الإسلامي رقم: ١١١١٠٠٥٤٢٢٠٠١



اللعب بباكستان

سقطت الباكستان أسيرة لمشاريع الولايات المتحدة الأمريكية بصورة سافرة ومهينة منذ أن جاء الجنرال برويز مشرف، وأصبحت الحكومة العسكرية الديكتاتورية عصا أمريكية لمحاربة ما أسمته الإدارة الأمريكية بـ (الإرهاب).

وبعد سنوات عجاف من التبعية التي خسر فيها الرئيس مشرف شعبه وكرامته، استنفد صلاحيته وفقد دوره، فكان لا بد من شخصية جديدة لقيادة الباكستان وفق المصالح الأمريكية، فكان الخيار على الربيبة الليبرالية الإسماعيلية (بنازير بوتو)، لكن اغتيالها المفاجئ خلط الأوراق من جديد، وأدخل الباكستان في دوامة دامية من الصراعات القبلية والحزبية، وفتح باباً جديداً من الأكاذيب والاتهامات المتبادلة..!

ويبقى السؤال الأكثر إلحاحاً: إلى أين تتجه اللعبة في الباكستان؟!

الواقع أن هوية (الباكستان) الإسلامية هي المستهدفة؛ ففي شهر أكتوبر الماضي نشرت مجلة النيوزويك تحقيقاً بعنوان: (الأمة الأخطر في العالم ليس العراق.. إنها باكستان)!

إذاً لن يتوقف المشروع الأمريكي، بل سوف تُستثمَر حالة الاحتقان والفوضى السياسية والأمنية (الفوضى الخلّاقة) في مزيد من الترويض للمؤسسة العسكرية والسيطرة على السلاح النووي الباكستاني، وسوف نسمع قريباً عن رموز ليبرالية جديدة يقدمها الإعلام الأمريكي!

سعر العدد:
السعودية ١٠ ريالات | قطر ١٠ ريالات | الأردن ٧٥ قرشاً
الكويت ٨٠٠ فلس | اليمن ١٠٠ ريالاً | الإمارات العربية ١٠ دراهم
مصر ٤ جنيهات | السودان ٢٠٠ دينار | البحرين دينار واحد
المغرب ١٢ درهماً | سلطنة عُمان ٨٠٠ بيزة | فلسطين نصف دولار أمريكي
أوروبا وأمريكا ٢,٧٥ يورو أو ما يعادلها

الاشتراكات:
السعودية ودول الخليج ١٢٠ ريال سعودي
بريطانيا وايرلندا ٤٧ يورو
أوروبا ٥٥ يورو
البلاد العربية وافريقيا ٤٥ يورو
أمريكا وبقية دول العالم ٥٥ يورو
المؤسسات الرسمية ٦٠ يورو





أين العلماء الربانيون؟!

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وبعد:

فما مشكلة بعض العلماء في العالم الإسلامي؟

يُجْمِع العامَّة وبعضُ المثقفين وقلةٌ من عِلْية القوم على إظهار التقدير والاحترام لهم، ولكن الواقع - في الغالب - أنه لا يأبه بكثير منهم إلا القليل في عالم اليوم.

العالِم - وللأسف - لم يعُد قدوةً لأحدٍ في عالم الاستهلاك والاستمتاع والمغريات والتقنيات، العالِم أصبح هامشياً في مجتمعات العولمة والشركات المتعددة الجنسيات، وأوشك بعض العلماء أن يفقد القدرة الحقيقية على التأثير في الحياة اليومية، واختُزل دوره في افتتاح المناسبات، أو الوعظ في دور العبادة، أو رُقيَة الأطفال.

بعض العلماء أصبح مرجعاً فقط في قضايا الأحوال الشخصية والميراث، وسَرْد قصص التاريخ والقليل من حكايات الصالحين. فما سبب ذلك؟ ومن نلوم؟ هل نلوم المجتمعات التي أفرطت في المادية والحياة النفعية، أم أن اللوم يجب أن يُلقى على العلماء أنفسهم؛ لأنهم قد تخلوا عن الأمانة؟ نحن هنا لا نتحدث عن دولة معينة وإنما عن حال مليار ونصف مليار من المسلمين.

إن الأُمة في أزمتها الحالية في حاجةٍ إلى علماء يجمَعون بين صفات وعزم الرجال، وبين معرفة أحكام الدين وواقع الدنيا. نحن نحتاج إلى علماء يفقهون الكتب الدينية، ويفقهون كذلك المشكلات الإنسانية والاجتماعية.

العالِم الذي تحتاجه الأمة: رجل معاصِر مُطَّلعٌ على وسائل التقنية، ومُدرِكٌ للواقع الاقتصادي والسياسي ليس فقط على المستوى المحلي، بل والعالمي أيضاً. العالم اليوم لم يعُد يتنافس مع شيخٍ في زاوية في الطرف الآخر من المدينة أو القرية، بل إنه اليوم في مواجهةٍ مباشرة مع قوى العولمة وتيارات الانحدار الثقافي والفكري العالمية؛ فأين العلماء؟ ولماذا قلَّ وجود العلماء الثقات والفحول في مجتمعاتنا؟

من السهل أن نلقي باللائمة على المجتمعات، وما أكثر ما تتلقى المجتمعات من الاتهامات! ومن السهل أن نقول: إن الإعلام العربي قد شوَّه صورة الدين، وأن كثيراً من الحكام قد قلَّصوا من صلاحيات العلماء. من الممكن أيضاً أن نَدَّعي أن بعض المجتمعات لم تعد تهتم بفهم أصول الدين، ومن الممكن أن نتفنن في إيجاد أسبابٍ أخرى فكريةٍ وثقافيةٍ واقتصادية، ولكن السؤال الحقيقي هو: أين هم العلماء الربانيون من كل ذلك؟

إن بعض العلماء في مجتمعاتنا بدأ منذ سنين في المنافسة على الدنيا مع المتنافسين، فالعالِم الذي كان يُشار إليه في الماضي على أنه ضمير الأمة رضي أن يكون اليوم في عِداد المُخَدَّرين.

في عصور الإسلام الزاهرة كان العالِمُ يخيف السلطان، وكان الداعيةُ يقف في وجه كل طغيان، كان العالِم في أول صفوف المجاهدين، كان يحمل هَمَّ الفقراء، وكان سِراجاً

العالم الذي كان يشار إليه على أنه ضمير الأمة رضي أن يكون في عداد المخدرين

مشكلة بعض العلماء أنهم ارتضوا أن ينسحبوا من الصفوف الأمامية

يضيء الطريق للتائهين. أما اليوم: فهل ننعى للأمة موت كثير من العلماء؟ مشكلة بعض العلماء في هذا الزمان - إلا من رحم الله - أنهم قد ارتضوا أن ينسحبوا من الصفوف الأمامية في العطاء، بل إن بعضهم قد استخدم الدين طريقاً للتسلق، ووسيلةً لإرضاء أصحاب السلطة والله المستعان.

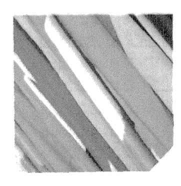
من العبارات البليغة لابن الجوزي في كتابه صيد الخاطر قوله: «إني تدبرت أحوال أكثر العلماء والمتزهدين فرأيتهم في عقوبات لا يحسّون بها، ومعظمها من قِبَل طلبهم للرياسة. فالعالم منهم يغضب إن رُدَّ عليه خطؤه، والواعظ متصنع بوعظه، والمتزهد منافق أو مراءٍ؛ فأول عقوباتهم إعراضهم عن الحق شغلاً بالخلق. ومن خفيِّ عقوباتهم سلْبُ حلاوة المناجاة ولذة التعبد». تأمل في أحوال بعض علماء الأمة فإنك ستجد العبارة السابقة من خير ما يمكن أن يصف حالهم.

بعض العلماء اليوم في بلداننا مُغرَقون في التفاهات، لا يتحدثون إلا عما أقرَّ الحاكم أنه من المباحات، لا يبادرون بإعلان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يتعلمون فقه الدنيا، يتساهلون، لا يقدّمون الغالي للدعوة، يعظُم في أعينهم عملهم، وتعظُم في قلوبهم خشية أهل الأهواء

معذرةً أيها العلماء! لا تفصلوا الإيمان عن الحياة؛ فمشكلاتنا كلها مشكلات دينية: الجوع، والفقر، والتسلط، والاستغلال، والبطالة، والقهر، والتفكك الاجتماعي والتخلف التقني.. كلها مشكلات دينية.

إننا نتأمل واقعنا اليوم فنجد أن دور بعض العلماء أصبح معاونة بعض المفسدين على تحقيق المطلوب من المهام. الأنظمة الليبرالية تطالب ألا تتدخل الدولة في الدين، وألا يتدخل الدين في الحياة، وبعض العلماء يقولون: سمعاً وطاعة. وتنطلق كلمات بعض العلماء: «العقيدة لا غبار عليها، أما الإيمان فلْيبقَ في القلوب.. لا بأس أن نسجد خلف الإمام، لكن لا بد أيضاً أن نركع للقانون والنظام».

أما الأنظمة القمعية فتطالب أن يُستخدم الدين لبسط سيادة النظام على العقول والقلوب، وأن تتحول الدولة إلى (قوانين)، وبعض العلماء يقولون: سمعاً وطاعة، ونسمع من يقول: «مِن السياسةِ تركُ السياسة، الجهاد جهاد النفس، دع ما لقيصر لقيصر»، ومن لا يتبع الدولة فهو خارج عن الدين، فالدولة هي الدين»! وهذا تحويل لديننا الحنيف إلى رهبانية وكهنوتية فإلى الله المشتكى.



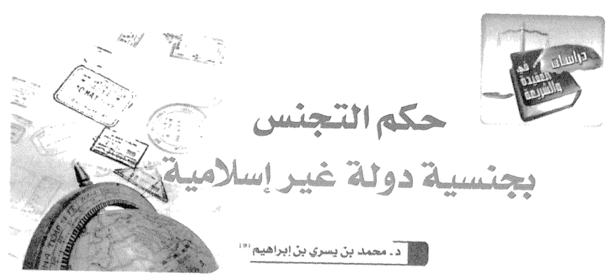
الأنظمة العالمية لها طلباتها أيضاً؛ هي تريد أن يصبح الدين فضفاضاً ومَرِناً ليتقبل التغيرات العالمية ومشروعات العولمة، وبعض العلماء يقولون: سمعاً وطاعة: «فحقوق الإنسان هي ما يقرره الأمريكان، والسلام مع اليهود مطلبٌ عادل، وتحرير الأسواق هو أصل الشريعة التي تمنع الاحتكار».

فبالله عليكم هل لأمتنا من حاجةٍ إلى علماء من هذا النوع؟

وعلى الرغم مما تقدم فإن هناك المخلصين الذين يجهرون بالحق، وهناك العاملون الربانيون، ولكننا أمة جاوزت البليون، فكم فيها اليوم من هؤلاء؟ إننا جميعاً في حاجة إلى العلماء بالنسبة الطبيعية التي تتناسب مع أكثر من مليار من البشر، ولكننا لا نجد ذلك، وهذه هي الحقيقة.

إن المادية التي تقتحم حياتنا صباح مساء تحتاج إلى من يعيننا على مواجهتها والتعامل معها دون أن ننعزل عن واقعنا، ودون أن نفقد هويتنا.

العالِم الذي نريد هو نبراسٌ يتقدم الطريق، يُحيي في الأمة الرغبةَ في الحياة، ويُشعل فيها أيضاً طاقات الإبداع والنجاح، ويقودها إلى التفوق في الدنيا والنجاة في الآخرة؛ فهل تعرفون عمن نبحث؟ إننا نبحث عن العلماء الربانيين؟



حكم التجنس بجنسية دولة غير إسلامية

د. محمد بن يسري بن ابراهيم (*)

الناظر في تاريخ الأمم وأحوال البشر يظهر له أن التجنس، باعتباره انتماء من الشخص إلى دولة معينة، إنما هو أمر حادثٌ لم يظهر إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي لظروف جدَّت على البشرية ما كانت موجودة فيما مضى من عمرها.

وقديماً كان انتماء الشخص إلى قبيلته وولاؤه كله لها، فإليها ينتسب وفيها يندمج وفي كيانها تذوب شخصيته، وهو معها ظالمة أو مظلومة.

ويمثل هذا الولاء قول الشاعر العربي قديماً

وما أنا إلا من غُزية إن غوتْ
غويتُ، وإن ترشد غُزية أرشُد

فالجنسية بمفهومها المعاصر كانت عندهم على أساس العصبية القبلية، وهو مفهوم أخص من مفهوم الجنسية المعاصرة المرتبطة أصالة بالبلد التي يتجنس الشخص بجنسيتها.

وقد كان المرء لا يستطيع الفكاك من قبيلته إلى قبيلة أخرى حتى ولو كانت قبيلته من الضعف والذل والهوان بمكان، فلا يمكن أن ينتسب إلى غيرها وإن تمنى ذلك، كما قال الشاعر:

لو كنتُ من مازنٍ لم تستبح إبلي
بنو اللقيطة من ذُهْل بن شيبانا
إذاً لقام بنصرتي معشر خُشُنٌ
عند الحفيظة إن ذو لوثةٍ لانا
لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد
ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرةً
ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته
سواهُمُ من جميع الناس إنسانا
فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا
شنوا الإغارة فرساناً وركباناً

وظل الحال على ذلك من التعصب المقيت والتحزب البغيض والتفاخر بالأحساب والعصبية الجاهلية إلى أن أشرقت شمس الرسالة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام والتحية، فغدت الرابطة بين المسلمين إنما هي بالانتساب لهذا الدين مهما تباعدت الأقطار واختلفت الألسن. قال - سبحانه وتعالى -: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال - عليه الصلاة والسلام -: «المسلم أخو المسلم: لا يظلمه، ولا يُسلِمه، ولا يخذله»[1]

وجاءت النصوص متواترة تقرر هذا الأصل الأصيل والركن الركين، وتنهى أشد النهي عن كل تعصب وحميَّة جاهلية، حتى رسخ هذا النظام القويم في النفوس واستقر؛ ولذا قال العربي المسلم بعد تبرُّئه من العصبية الجاهلية:

أبي الإسلامُ لا أبَ لي سواه
إذا افتخروا بقيسٍ أو تميم

فصار الدين - بحمد الله - هو الرابط الذي يربط بين الأفراد والجماعات المنتمية إليه، وهو العروة الوثقى التي يلجأ إليها الخلق والقاسم المشترك بين المسلمين في شتى بقاع الأرض.

فالأرض أو المادة لا يكوِّنان الجماعة الواحدة، وإنما رباط العقيدة وأخوَّة الإسلام هما من يجمع بين الناس من مختلف الألوان والأجناس ومن أقاصي البقاع ودانيها، ويربطان فيما بينهم بنوع من الوحدة أمتن وأنبل من وحدة اللون والدم والتضاريس.

ولما كان الأمر كذلك، فقد جرى عمل فقهائنا المتقدمين على تقسيم العالم إلى دار إسلام ودار كفر. وأما في الواقع المعاصر فقد انقسم الناس باعتبار الجنسيات، وصار من الممكن للإنسان أن يتجنس بجنسية بلد غير بلده الأصلي الذي نشأ فيه هو وآباؤه وفق شروط معينة تختلف من دولة إلى أخرى.

(*) رئيس مجلس إدارة مركز فجر للغة العربية.

(١) أخرجه البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب «لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه»، (٢٤٤٢)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب «تحريم الظلم»، (٢٥٨٠) من حديث عبد الله بن عمر.

وسعى كثير من أبناء هذا الزمان إلى الحصول على جنسيات غير جنسيات بلادهم الأصلية، تدفعهم إلى ذلك دوافع شتى: فمن لاجئ سياسي، ومن باحث عن حرية وساعٍ إلى الحصول على حقوقٍ أو مميزاتٍ لم يجدها في قومه، إلى غير ذلك من المآرب.

ولكن الأمر ليس قاصراً على الميزات التي يُعطاها المرء فحسب، بل ثمة حقوق وواجبات عليه؛ من الالتزام بقوانين تلك البلد، والتحاكم إلى أنظمتها، والدفاع عنها، والانخراط في سلك المدافعين عنها من أبنائها، وبذل الجهد والوسع في تقويتها ورفعة شأنها، وعقد الولاء لها والبراء من غيرها، إلى غير ذلك من مفردات منظومة كبيرة تسمى بـ «المواطنة».

ومن هنا مسّت الحاجة اليوم إلى معرفة حكم التجنس بجنسيات الدول غير الإسلامية؛ لشدة الدوافع والمقتضيات إلى ذلك. وسيكون بحثنا لهذه النازلة في المطالب التالية:

المطلب الأول: تعريف الجنسية والتجنس:

أولاً: مفهوم الجنسية والتجنس لغة:

الجنسية: مصدر صناعي مأخوذ من الجنس، وهو الضرب من كل شيء، قال ابن فارس: الجنس: هو الضرب من الشيء.

قال الخليل: كل ضرب جنس، وهو من الناس والطير والأشياء جملة، فالناس جنس، والإبل جنس، والبقر جنس.

والتجنس والتجنيس: تفعُّل وتفعيل للجنس، أي: طلب له.

ويقال: هذا يجانس هذا، أي: يشاكله.

وعليه، فإن كل طائفة من الناس يتشاكلون في أمر ما فهم جنس فيه؛ كجنس العرب، وجنس العجم، وجنس المؤمنين، وجنس المشركين، وجنس العلماء، وجنس العسكر... وهكذا، وعلى هذا المعنى مضى علماء اللغة[1]

ثانياً: المفهوم الاصطلاحي للجنسية والتجنس:

يعرِّف القانونيون الجنسية بأنها:

«الرابطة القانونية والسياسية التي تربط بين الفرد والدولة، والتي بمقتضاها يعتبَر الفرد جزءاً في شعب الدولة يتمتع بالحقوق المترتبة على تمتعه بجنسية الدولة والتي لا يتمتع بها الأجنبي كأصل عام، ويلتزم أيضاً بالالتزامات التي تترتب على وصف الوطني والتي لا يلتزم بها الأجنبي»[2].

وعرّفها بعض القانونيين بقوله: «رابطة سياسية وقانونية بين الفرد والدولة»[3]، وهناك من يضيف إلى هاتين الرابطتين رابطة ثالثة؛ هي الرابطة الاجتماعية، خاصة إذا كان شعب الدولة مكوناً من أمة واحدة[4].

وعرّفتها محكمة العدل الدولية في السادس من أبريل سنة ١٩٥١م بأنها: رابطة قانونية قائمة أساساً على رابطة اجتماعية وتضامن فعال في المعيشة والمصالح والمشاعر، مع التلازم بين الحقوق والواجبات[5].

وأما التجنس فهو:

طلب انتساب إنسان إلى جنسية دولة من الدول وموافقتها على قبوله في عداد رعاياها، وينشأ عن ذلك التجنس خضوع المتجنس لقوانين الدولة التي تجنَّس بجنسيتها، وقبوله لها طوعاً أو كرهاً، والتزام الدفاع عنها في حال الحرب[6]

وأما كيفيته:

فهو يتم عبر عمل اختياري يحصل بموجبه أحد رعايا دولة ما على عضوية رعية دولة أخرى، وغالبا ما تتلاشى الناحية الاختيارية من تجنس الفرد في عملية التجنس الجماعية، ويحدث عادة إما بموجب معاهدة بين دولتين تتبعها عملية تجنس جماعية لسكانها من جانب الدولة التي تستولي عليها، أو عملية فتح تتبعها عملية ضم إلى أرض العدو[7].

وللتجنس شروط تشترطها الدول، فمنها العام، ومنها الخاص ببعض الدول[8]

- آثار التجنس:

إن أهم أثر يترتب على التجنس هو كسب صفة الوطني، والتي تستوجب التمتع بجميع الحقوق التي يتمتع بها الوطني الأصلي والالتزام بكافة الواجبات التي يُلزم بها، ولعل من أهم هذه الحقوق والواجبات ما يلي:

أولاً: الحقوق:

يكون المتجنس مساوياً في الحقوق للوطني في الجملة وإن استثنيت بعض الأمور كالتقدم لوظائف حساسة، ومن بين هذه الحقوق:

١ - الحصول على حق المواطنة.

٢ - التمتع بالإقامة الدائمة.

٣ - تكفل الدولة الحماية الدبلوماسية للمنتسب إليها، وتتولى القنصليات رعاية أحواله الشخصية خارج البلد.

٤ - التمتع بالحقوق السياسية كحق الانتخاب بعد اجتياز فترة الاختبار، وبممارسة الحريات الأساسية.

ثانياً: الواجبات:

من أهم الواجبات:

١ - خضوع المتجنس لقوانين الدولة والاحتكام إليها.

(١) لسان العرب، لابن منظور (٢/ ٣٨٣)، القاموس المحيط، للفيروزآبادي (٢/ ٢).

(٢) القانون الدولي الخاص، د. هشام صادق علي وحفيظة السيد الحداد، القسم الأول، الجنسية (ص ٥٧).

(٣) الأحكام العامة في قانون الأمم، د. محمد طلعت الغنيمي (ص٦٤٦)، ط. منشأة المعارف.

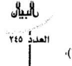
(٤) القانون الدولي الخاص وأحكامه في الشريعة، لعبد الرحمن عبد العزيز القاسم، (ص٢٥).

(٥) التنظيمات الدولية لبول روتييه (ص١٤٦)، ط. دار المعرفة.

(٦) القانون الدولي الخاص، لهشام صادق علي (ص٦٥).

(٧) القانون بين الأمم، مدخل إلى القانون الدولي العام، لجيرهارد فان غلان (ص٢١٥)، ط. دار الجيل.

(٨) القانون الدولي الخاص، لهشام صادق علي (ص٦٥) وما بعدها، مذكرات علي علي سليمان (ص١٩٥ - ٢٠٠).



٢ - المشاركة في جيشها والتزام الدفاع عنها في حالة الحرب.

٣ - تمثيل الدولة خارجياً

٤ - مشاركته في بناء صرح الدولة [1]

المطلب الثاني: حكم التجنس بجنسية الدولة غير المسلمة:

البحث في هذه المسألة يختلف عن البحث في مسألة الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام من حيث إن الهجرة أمر قديم بقدم الإسلام، وتناوله العلماء في كتب الفقه والتفسير وشروح الحديث وغيرها.

وأما التجنس فمسألة حادثة ونازلة لم تكن على عهد السلف والأئمة. وإنك لواجد في كتب الأئمة الفقهاء التفصيل الواضح في أحكام الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وأحكام الأقليات غير المسلمة في المجتمع المسلم، أما فقه الأقليات المسلمة في البلاد غير المسلمة فنادر في كتب الفقه؛ لأنه نادراً ما كان يحتاج المسلم للإقامة الدائمة هنالك؛ لوجود الخلافة الإسلامية التي يأوي إليها المسلم ويتفيأ ظلالها، ولانعدام الحدود بين الدول الإسلامية، فأينما تيمم المسلم في بلاد الإسلام فهو في بلاده لا يحسّ بغربة ولا وحشة، وكذا العزة الإسلامية التي يتمتع بها المسلم فهو ليس بحاجة للإقامة في بلاد الكفر فضلا عن التجنس بجنسياتها، ذلك أن التجنس بجنسية الدول الكافرة موطئ للإقامة في بلاد الكفر، وهو إن دل على شيء فإنما يدل على خلل أو ضعف حلّ بالمسلمين والخلل العظيم في هويتهم، إذ المهزوم والضعيف هو الذي يريد أن يشابه المنتصر والقوي فيقتدي به.

ومن نظر في التاريخ وجد أن هذا أمر مطّرد، فوقت أن كانت الدولة للمسلمين كان المشركون حريصين على تعلُّم لغتهم والعيش في بلادهم؛ ليتمتعوا بالأمن والعدل ورغد العيش الذي كانت بلادهم قفراً منه.

ثم إنه بعد سقوط الخلافة الإسلامية وانتشار الغزو الصليبي لبلاد الإسلام، أو ما سُمي زورا بـ (الاستعمار)؛ فتحت دول الكفر باب التجنس لمن يرغب في ذلك من المسلمين؛ لطمس هويتهم، وإخماد روح الإيمان والجهاد في قلوبهم، وذلك في أوائل القرن الميلادي المنصرم، وهي نتيجة طبيعية لضعف المسلمين وقوة شوكة عدوهم.

يقول ابن خلدون في مقدمته الشهيرة:

«المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيِّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده. والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه؛ إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط من أن انقيادها ليس لغالب طبيعي إنما هو لكمال الغالب وتشبُّه به وذلك هو الاقتداء، أو لما تراه - والله أعلم - من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة ناس وإنما هو بما انتحل من العوائد والمذاهب.

ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها؛ بل وفي سائر أحواله»[2]

والحاصل أن التجنس بجنسية الدول الكافرة مسألة حادثة، وقد اختلف فيها فقهاء العصر على أربعة أقوال:

القول الأول: قول أكثر الفقهاء المعاصرين وهو المنع، وممن قال به العلامة الشيخ محمد رشيد رضا، والشيخ علي محفوظ عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف، والشيخ محمد عبد الباقي الزرقاني، والشيخ إدريس الشريف محفوظ مفتي لبنان، والشيخ يوسف الدجوي عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف، والشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن[3]، والعلامة عبد الحميد بن باديس، والعلامة البشير الإبراهيمي، وكل أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، واللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في المملكة العربية السعودية، والعلامة الشيخ ابن عثيمين، والشيخ محمد السبيل، والشيخ محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر، والدكتور البوطي، وآخرون يطول سردهم[4].

القول الثاني: قول بعض فقهاء العصر وهو الجواز، ومنهم: الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي، والدكتور وهبة الزحيلي، والشيخ الشاذلي النيفر، بشرط المحافظة على الدين والتمسك به، وعدم الذوبان في المجتمع الكافر[5].

القول الثالث: جواز التجنس بجنسية الدولة الكافرة عند الضرورة؛ كما لو كان مضطهداً في دينه في بلده المسلم ولم يقبله أحد سوى الحكومة الكافرة.

وهو رأي بعض أعضاء مجمع الفقه الإسلامي.

وقد وضع الشيخ الخليلي ثلاثة شروط للجواز، وهي:

١ - انسداد أبواب العالم الإسلامي في وجه لجوئه إليهم.

٢ - أن يضمر النية على العودة متى تيسَّر ذلك.

٣ - أن يختار البلد التي يمارس فيها دينه بحرية[6].

١) الوسيط في أحكام الجنسية، د.فؤاد عبد المنعم رياض، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص (١٨).

(٢ مقدمة ابن خلدون، الفصل الثالث والعشرون، (٢/٥٠٥)، ط. سلسلة التراث.

(٣ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله، وكان الشيخ عبد اللطيف قد درس في الأزهر الشريف قرابة ثلاثين عاما، وتوفي سنة (١٢٩٢ هـ - ١٨٧٥م).

(٤ انظر: فتاوى محمد رشيد رضا، (٥/١٧٤٨)، آثار ابن باديس (٣/٣٠٩)، قضايا فقهية معاصرة، للبوطي (ص٢٠١)، حكم التجنس بجنسية الدول غير المسلمة، لمحمد السبيل، (ص٧١)، الهجرة إلى بلاد غير المسلمين، لعماد بن عامر، (ص٢٧٨)، مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٣٢، سنة١٤١٢هـ.

(٥ فقه الأقليات المسلمة، لخالد عبد القادر، (ص ٦٠٨)، بحوث في قضايا فقهية معاصرة، لمحمد تقي العثماني، (ص٣٢٩)، مجلة الفقه الإسلامي / الدورة الثالثة، العدد الثالث، سنة ٩٨٧ م.

(٦ مجلة مجمع الفقه الإسلامي، العدد الاول ١٤٠٧، (ص ١٩٥)، والعدد الثالث (٢/١١٠٣، ١١١٣، ١١١٩، ١١٥٢، ١١٥٧).

القول الرابع: التفصيل في المسألة: فالناس في طلب الجنسية على ثلاثة أقسام:

الأول: التجنس بجنسية الدولة الكافرة من غير مسوِّغ شرعي، بل تفضيلاً للدولة الكافرة وإعجاباً بها وبشعبها وحكمها، وهذه ردة عن الإسلام عياذاً بالله.

الثاني: التجنس للأقليات المسلمة التي هي من أصل سكان تلك البلاد؛ فهو مشروع وعليهم نشر الإسلام في بلادهم، وتبييت النية للهجرة لو قامت دولة الإسلام واحتاجت إليهم.

الثالث: تجنس الأقليات المسلمة التي لم تكن من أهل البلد الكافرة، ويعتريه الحالات التالية:

أ - أن يترك المسلم بلده بسبب الاضطرار والاضطهاد ويلجأ لهذه الدولة؛ فهو جائز بشرط الاضطرار الحقيقي للجوء، وأن يتحقق الأمن للمسلم وأهله في بلاد الكفر، وأن يستطيع إقامة دينه هناك، وأن ينوي الرجوع لبلاد الإسلام متى تيسر ذلك، وأن ينكر المنكر ولو بقلبه، مع عدم الذوبان في مجتمعات الكفر.

ب - أن يترك المسلم بلده قاصداً بلاد الكفر لأجل القوت؛ فلو بقي في بلاده لهلك هو وأهله، فله أن يتجنس إذا لم يستطع البقاء بغير جنسيته.

جـ - التجنس لمصلحة الإسلام والمسلمين ونشر الدعوة، وهو جائز.

د - التجنس لمجرد أغراض دنيوية بلا ضرورة ولا مصلحة للإسلام وأهله، وهو محرم.

وهذا التفصيل رجّحه بعض الباحثين وأصحاب الرسائل الجامعية[1].

• أدلة المانعين:

استدل المانعون بأدلة كثيرة وعمومات شرعية ومقاصد شرعية نوردها فيما يلي:

١ - قال - تعالى -: ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقال - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٣ - ٢٤].

ففي هاتين الآيتين النهي عن اتخاذ ذوي القربى أولياء إن كانوا كفاراً؛ فكيف باتخاذ الأباعد أولياء وأصحاباً، وإظهار الموافقة لما هم عليهم والرضا به؟

وقال - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾. [النساء: ١٤٤]

وقال - تعالى -: ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٩ - ١٤٠].

وقال - تعالى -: ﴿ تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٨٠ - ٨١].

وقال - جل وعلا -: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾. [النساء: ٩٧]

وقال - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٩ - ١٥٠].

وقال - تعالى -: ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣].

وقال - جل وعلا -: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾. [محمد: ٢٥ - ٢٨]

وقال - تعالى -: ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وفي صدر سورة الممتحنة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ

(١) انظر: كتاب «الأحكام السياسية للأقليات المسلمة»، سليمان بن محمد توبولياك، ورسالة «الأقليات الإسلامية وما يتعلق بها من أحكام في العبادة والإمارة والجهاد»، لمحمد درويش محمد سلامة، من رسائل كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى.



جهادًا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تُسِرُّون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواء السبيل ﴿١﴾ إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودّوا لو تكفرون ﴿٢﴾ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم..﴾ [الممتحنة: ١ – ٣]، إلى غير ذلك من الآيات الكريمات.

ومن السُّنة ما رواه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث سمرة بن جندب عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن جامع المُشرك وسَكَن معه فإنَّه مثله»[1].

وقوله ﷺ: «أنا بريءٌ من كل مسلم يقيمُ بين أظْهُر المشركين، قالوا: يا رسول الله، ولِمَ؟ قال: «لا تراءَى نَارَاهُما»[2].

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقبل الله – عز وجل – من مشرك بعدما أسلم عملاً أو يفارق المشركين إلى المسلمين»[3].

وأخرج النسائي عن جرير قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم، وعلى فراق المشرك»[4].

وفي صحيح مسلم عن بريدة أن النبي ﷺ كان إذا بعث أميراً على سرية أو جيشاً أوصاه بأمور؛ فذكرها، ومنها «ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين»[5].

• وجه الدلالة من الآيات والأحاديث السابقة:

لقد استفاضت النصوص الشرعية السابقة في التحذير من موالاة الكافرين، ومحبتهم ومودتهم، والرضا عنهم وعن منكراتهم، وأوضحتْ أن ذلك مناقض لأصل الإسلام وهادم لعقيدة الولاء والبراء والحب والبغض في الله، التي لا يصح إسلام عبدٍ إلا بها.

ولما كان التجنُّس يلزم منه – لا محالة – ولاء المرء للدولة التي يحمل جنسيتها وخضوعه لنظامها وقوانينها، ويصير المتجنس واحداً من المواطنين له ما لهم وعليه ما عليهم، وتجري عليه أحكام مِلَّتهم في الأحوال الشخصية والمواريث، وعدم تدخُّله في شؤون أولاده إذا بلغوا السِّن القانونية عندهم سواء الذكور والإناث..، لمّا كان الأمر كذلك كان طلب التجنس بجنسية الدول الكافرة من غير إكراه عليها بل طلباً من المتجنس أو موافقة على قبولها – صورةً من صور الردة عن الإسلام عياذاً بالله، وخروجاً عن سبيل المؤمنين ودخولاً في معيّة الكافرين: الذين حذرنا الله – تعالى – منهم ومن اتِّباع سبيلهم، والمقام بين أظهرهم، وموالاتهم والركون إليهم، كما أشارت النصوص السابقة.

٢ – أن الاحتكام إلى قوانين كفرية مخالِفَةٌ لشرع الله وردة عن الإسلام، ومن رَفَض حكم الإسلام فهو مرتد بالإجماع، والمتجنس متحاكم طوعاً إلى تلك القوانين مستبدلٌ بالشريعة الإلهية القوانين الوضعية.

قال – تعالى –: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠ – ٦١].

٣ – أن ذلك يتضمن تحليل الحرام وتحريم الحلال وإنكار ما عُلِم من الدين بالضرورة؛ وهو كُفْر إجماعاً. قال – تعالى – في حق من استحل النسيء: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ٣٧]. وفي قوله – تعالى –: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]. وبيَّن النبي ﷺ لعدي بن حاتم عبادتهم إياهم بقوله: «أليسوا يحلون لهم ما حرّم الله فيتبعونهم، ويحرِّمون عليهم ما أحل الله فيتبعونهم؟»، قال: بلى، قال: «فتلك عبادتهم»[6].

٤ – أن مقتضى التجنس المشاركة في جيش الدولة المانحة للجنسية والدفاع عنها إذا قامت بينها وبين غيرها حرب ولو كانت حربها ضد المسلمين، فهذا من أعظم الموالاة للمشركين والمناصرة لهم، والنصوص المذكورة آنفاً طافحة بتكفير من فعل هذا. وقد سمى الله من أظهر الموالاة للمشركين خوفاً من الدوائر منافقاً؛ كما في قوله – سبحانه –: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ [الحشر: ١١]؛ فكيف بمن أظهر ذلك لهم صادقاً ودخل في معصيتهم وانتسب إليهم؟

وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ: قال: «مَن حمل علينا السِّلاح فليس منَّا»[7].

٥ – أن للتجنس آثاراً في غاية السوء على النشء والذرية؛ من انحلال وتسيُّب، وانطماس للهوية، ونبذ لأحكام الدين وإعراض عنه، وموالاة للمشركين ومعاداة للمؤمنين، ولا ينازع

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الجهاد، باب «في الإقامة بأرض الشرك»، من حديث سمرة بن جندب، والحديث حسّنه الشيخ الألباني في الصحيحة (٥/٤٣٤/ح٢٣٣٠).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الجهاد، باب «النهي عن قتل مَن اعتصم بالسجود»، والترمذي: كتاب السير، باب «ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين»، (١٦٠٤)، والنسائي: كتاب القسامة، باب «القود بغير حديدة»، (٤٧٨٠)، وروي مرفوعاً – بذِكر جرير بن عبد الله – ومرسلاً، والمرسل أصح. والحديث حسّنه الشيخ الألباني في الصحيحة (٢/٢٢٧/ح٦٣٦).

(٣) أخرجه النسائي، كتاب الزكاة، باب «من سأل بوجه الله»، (٢٥٦٨)، من حديث معاوية بن حيدة. والحديث حسّنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع(٧٧٤٨).

(٤) أخرجه النسائي، كتاب البيعة، باب «البيعة على فراق المشرك»، (٤١٧٥)، من حديث جرير بن عبد الله، وصححه الشيخ الألباني كما في صحيح الجامع (٢٥).

(٥) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب «تأمير الإمام الأمراء على البعوث ..»، (١٧٣١) من حديث بُريدة.

(٦) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب «من سورة التوبة»، (٣٠٩٥) بنحوه، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/١١٦) برقم (٢٠١٣٧)، والطبراني في «الكبير»(١٧/٩٢) برقم (٢١٨)، وهو في الصحيحة برقم (٣٢٩٣).

(٧) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب «قول النبي: من حمل علينا السلاح ..»، (٩٨) من حديث ابن عمر.

في كون هذا واقعَ المتجنسين أو أغلبهم إلا مكابر.

٦ - أن التجنس إقامة وزيادة. والأدلة واضحة في تحريم المقام بدار الكفر، لا سيما مع عدم استطاعة إظهار شعائر الدين، فيحرم إجماعاً. وهذا واقع المتجنسين: إذ لا يمكن للمرء أن يتحاكم إلى شريعة الله هو وأهله وأولاده، أو يربي أولاده على الدين ويأطرهم على الحق أطراً هنالك، لا يشك في ذلك من له أدنى اطلاع على أحوال القوم.

قالوا: ولا عذر لهؤلاء المتجنسين: لأنهم ليسوا بمكرهين حتى نقول ما قال الله - تعالى -: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، بل هم مختارون راضون، وليس ما ينتظرونه وراء التجنس من حطام الدنيا وحظوظ العاجلة بمسوِّغ لهذا التجنس، بل يجب أن يفر المرء بدينه متى استطاع وإن ذهبت دنياه. اقرأ إن شئت قوله - تعالى -: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

[التوبة: ٢٤]

وقد أوجب الله الهجرة من دار الكفر إن خاف المسلم على نفسه الفتنة، وتوعّد الله - سبحانه - أولئك الذين يبقون في أوطانهم بين الفتنة وهم قادرون على الهجرة، فقال - جل من قائل -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

وتوعد - سبحانه - من يعبده على حَرْف، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١].

وقال - تعالى -: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٠].

• أدلة المجوّزين:

عامة أدلة المجوزين عقلية، ومرجعها إلى قاعدة تحقيق المصالح ودرء المفاسد. ولا ريب أن هذا يتطلب نظراً دقيقاً وتحقيقاً للمُناطات، ويختلف من واقع لآخر، ومن مكان إلى مكان.

فمن أدلتهم:

١ - أن الشريعة الإسلامية جاءت لتحافظ على الكليات الخمس: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال، وكلّ ما كان سبيلاً للمحافظة على هذه الضروريات فهو مشروع. والتجنس بجنسيات هذه الدول يوفر للإنسان حياة كريمة وطمأنينة وأمناً وتمتُّعاً بحقوق وحريات تنعدم غالباً في الدول الإسلامية في واقعنا المعاصر: بل تُيسِّر له أبواباً في التعبد والدعوة ونشر العلم لا نظير لها في الدول الإسلامية: لأن مبنى دول الغرب على العلمانية لا على أساس ديني. فإذا كان التجنس وسيلة لتحقيق هذه المصالح المشروعة فهو إذاً مشروع.

قالوا: ومن حرّم التجنس من أهل العلم فإنما حرمه لظروف خاصة في الاحتلال ونحوه، أو خوفاً من الذوبان في الشخصية الغربية. أما إذا تغير الوضع وصارت الجنسية تعطي المتجنس قوة وصلابة وقدرة على المطالبة بالحقوق وإبداء رأيه، والتصويت في الانتخابات لمن يخدم قضيته دون أن يتنازل عن دينه، ويعايش من حوله بالمعروف ويحسن معاملتهم: كما قال - جل وعلا -: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

فإذا صار الوضع كذلك؛ فلا مانع من التجنس لوجود المصلحة الخالية عن المفسدة الراجحة أو المساوية.

٢ - أن الإقامة في بلاد الكفر جائزة إن استطاع المرء إقامة دينه وإظهاره وأمن الفتنة، والتجنس لا يزيد على الإقامة إلا بمجرد الانتساب إلى الدولة، وهو في الوقت ذاته يُكسِب المتجنسَ قوةً وصلابة في المجتمع كما سبق.

قال الشيخ الدكتور وهبة الزحيلي: ما دمنا قد قلنا بجواز الإقامة في دار الكفر؛ فإنه يتفرع عنه جواز التجنس؛ لأنه ما هو إلا لتنظيم العلاقة: فهي تسهل لهم الأمور وتسهل أيضاً الاستفادة من خدماتهم[1].

٣ - أننا نسلِّم وجود بعض المفاسد في التجنس، لكن ما ذكرناه من مصالح كلية ومقاصد شرعية يربو عليها. ومعلوم أنه يتحمل الضرر الأخف لجلب مصلحة تفويتُها أشد.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

«إن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإنها ترجِّح خير الخيرين وتدفع شر الشرين، وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما وتدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما»[2].

وفي فتوى المعهد العالمي للفكر الإسلامي في واشنطن:

ولو تجنس مسلم بهذه الجنسية لدعوة أهلها إلى الإسلام أو تبليغ الأحكام الشرعية إلى المسلمين المقيمين بها: فإنه يثاب على ذلك، فضلاً عن كونه جائزاً[3].

٤ - أنه أحياناً يضطر المسلم إلى التجنس بجنسية تلك الدول محافظةً على حياته؛ كأن يكون فارّاً من بلده الأصلي، أو

(١) فقه الأقليات المسلمة (ص٦٠٨)، نقلاً عن الزحيلي في مقابلة خاصة.

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢٠/٤٨).

(٣) الفتوى للحاج عبد الرحمن باه والقاضي تقي الدين العثماني. انظر: بحوث في قضايا فقهية معاصرة: لمحمد تقي الدين العثماني (ص٢٢٩ - ٢٣١)، مجلة مجمع الفقه الإسلامي، الدورة ٣، العدد ٣، سنة ١٩٨٧م، (٢/١١٣٠).

لم يُمنح جنسية دولة إسلامية تحميه وتمكنه من العيش فيها كاللاجئين الفلسطينيين، وقد لا يسمح له بالمقام إلا بالتجنس، وكذا لو انعدم مصدر قُوته وقوت عياله في بلاد المسلمين، والقاعدة الفقهية الكلية: أن الضرر يُزال، وأن الضرورات تبيح المحظورات.

٥ - أن في الخروج من تلك البلاد وترك جنسياتها إضعافاً للإسلام والمسلمين هناك؛ بحيث لا ترجى له رجعة؛ كما حدث في الأندلس وصقلية؛ إذ أُخرج منها المسلمون وحلَّ النصارى محلهم. أما أن يثبت وضع المسلمين هناك ويقوى فهو السبيل لدعوتهم ونشر الدين بينهم.

٦ - وأما القول الثالث فهو مقيّد بالضرورة، ودليلهم واضح كما في الدليل الرابع لأصحاب القول الثاني، وفيما عدا ذلك لا يبيحون التجنس موافقةً لمن قال بالتحريم، فمآلُ قولهم كالقول الأول، وحالة الضرورة مستثناة؛ لأن الضرورات تبيح المحظورات بشروطها.

٧ - وأما القول الرابع ففيه تفصيل سبق ذكره، وأدلتهم في الصور المحرمة كأدلة المحرِّمين، وفي المباحة كأدلة المجوِّزين.

المطلب الثالث: المناقشة والترجيح:

الفرع الأول: مناقشة أدلة الفريق الأول:

١ - أما استدلالكم بالنصوص القطعية المحرمة للموالاة والتحاكم لغير الله ورسوله ﷺ فمسلَّم ولا نزاع فيه بين أهل الإسلام، وكلامنا في تجنس لا يلزم منه حبُّهم ولا نُصرتهم ولا رضا القلب بمنكراتهم أو مشاركتهم فيها. والمتجنِّس مأمور بأن يكون ولاؤه لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن يُظهر دينه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأن يتحاكم لشريعة الله، ويمكن أن يوصي بذلك في ميراثه إذا مات، على أن أكثر الدول الإسلامية لا تحكِّم شريعة الله، وفيها من الربا والظلم ما لا يخفى، فما الفرق؟

ورد هذا الجواب:

أن مجرد التجنس هو إعلان من المرء عن خضوعه لأحكام الكفر وقبوله الولاء للكفر وأهله، سواء خضع بالفعل أو لم يخضع.

ثم إنه لن يَسلَم من الوقوع في الحرام أو المشاركة فيه لأن صبغة المجتمع هكذا، بخلاف دول المسلمين؛ فيمكن للمرء أن يجد مندوحة وأن يتعامل بمعاملات شرعية مع إخوانه المسلمين؛ إذ لا تجبره قوانين بلاده على الربا في الغالب، وسيجد من يعينه على ذلك.

٢ - وأما قولكم: إن التجنس يؤدي إلى إنكار ما عُلم من الدين بالضرورة وهو كفر؛ فلا يلزم من التجنس هذا اللازم؛ بل لو تلبس المتجنِّس ببعض المحرمات فلا يلزم منه استحلالها بقلبه، وأهل السُّنة مجمعون على عدم تكفير المسلم بذنب ما لم يستحله.

ورُدّ:

بأن النصوص اعتبَرت من رضي بالتحاكم إلى قوانين الكفر كافراً؛ لأنه لا يعقل أن يتحاكم إليها طوعاً مع اعتقاده أحكام الإسلام؛ بل هو عين التناقض. قال - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

٣ - وأما قولكم: إن التجنس يؤثّر على الذرية فمحتمل، والاحتمال يسقط الاستدلال، ونحن نرى كثيراً من أبناء الجاليات المسلمة متمسكاً بدينه وقيمه خاصة في ظل التربية الإسلامية.

ورُدّ:

بأن هذه مكابرة وتعسُّف، والذي اعتبروه احتمالاً هو الواقع إلا في قليل من الناس؛ فأغلب الأسر المسلمة تشكو انحلال الأخلاق والتفلت من الدين؛ بل منهم من يرتد أولاده أو تأخذهم أمهاتهم قسراً بحكم قوانين تلك البلاد وينسبونه إلى الكفر، ولا يستطيع الوالد أن يحرِّك ساكناً، وكذا لا يستطيع أن يربي أولاده أو يأطرهم على الحق لو أبوا عليه، حتى لو وصل الأمر إلى الزنا وشرب الخمر - عياذاً بالله - فليس لولي البنت أو الابن أن يمنع ذلك، فضلاً عن أن يعاقب عليه؛ بل لو فعل لعُوقب وأُجبر على تأمين مكان مستقل لبناته وأبنائه للزنا والفجور عياذاً بالله؛ فهل هناك أعظم من هذا فساداً وانحلالاً؟

٤ - وأما محذور المشاركة في جيوش الدول الكافرة؛ فأجيبَ عنه بأن الخدمة في جيوش كثير من تلك الدول اختيارية، ولو فرض أن المسلم أُكره على ذلك؛ فهو مأمور بأن يفر أو يمتنع ولو زهقت روحه.

ورُدّ:

بأنه كان في مندوحة عن هذا البلاء؛ فلماذا يرمي نفسه في غماره، ولماذا يذلّ نفسه؟ وتقدم قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]، فلم يعذر هؤلاء الذين بقوا في مكة مستضعَفين وأُكرهوا على مقاتلة إخوانهم المسلمين يوم بدر؛ فكيف بمن قبل بمحض إرادته الانضواء تحت لواء أعداء الله؟

٥ - وأما قولكم بتحريم المقام في بلاد الكفر؛ فليس على إطلاقه، بل تجري عليه الأحكام الخمسة بحسب الحال كما سبق.

ورُدّ:

بأن المتجنس داخلٌ تحت سلطة الكفار وسيُضطهد في دينه

لا محالــة، ولن يتمكن من إظهاره، وقد ذكرنا بعضاً من الصور الواضحة في هذا، فالمقام حينئذ محرَّم إجماعاً.

الفرع الثاني: مناقشة أدلة الفريق الثاني:

ناقش المحرِّمون أدلة المجوِّزين كما يلي:

١ - أما اســتدلالكم بحفظ الشريعة للكليات الخمس وأن التجنس وســيلة لذلك؛ ففي غير موضعه؛ لأنه لا بد للمحافظة عليها من طريق مشــروع في ذلك، لا بفعــل المحرمات وترك الواجبــات، ومصلحة الدين مقدَّمة على كل مصلحة ســواها، والتجنس هادم للدين حالق له؛ فأين المصلحة فيه؟

٢ - وأما تســويتكم بين التجنس والإقامة؛ فلا نُسَــلِّم لكم أصلاً جواز الإقامة مع المحاذير المذكورة والتي لا انفكاك عنها. قــال - تعالى -: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُـودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ولو سُــلِّم جواز الإقامة فالتجنس محظور؛ لأنه مختلف عنها؛ إذ يلزم منه التزامات وحقوق على المتجنِّس - كما ســبق - وليس المقيم كذلك.

٣ - وأما اســتدلالكم بجلب المصالح ودرء المفاســد؛ فإن مصلحة الرخاء والدعة ليســت مقدمة على مصلحة الحفاظ على الديــن: أفتُجعَل فتنة الناس كعذاب الله؟ أفتســاوى هذه المصالح بالموالاة والتحاكم لغير الله وإهلاك الذرية؟ ولو سَــلم الأمر مــن ذلك مع تحصيــل تلك المصالح؛ فالضــرورة تقدَّر بقدَرهــا، والضرورة مندفعة بالإقامة، ولا حاجة للتجنس الذي يلزم منه هذه المحن والبلايا.

٤ - أما استدلالكم وكذلك أصحاب القول الثالث بالضـرورة؛ فلا بـد أولاً من تحقق الضـرورة المعتبرة؛ شــرعاً لا المتوهمة ولا الحاجية ولا التحسينية؛ كرغد العيش والرفاهية، وهو حال كثير من المتجنسين.

ولــو فرض تحقق الضرورة بشــروطها المعتبرة؛ فلا بد أن تقدَّر بقدَرها، وألا تزال بضرر مثلها أو أشــد، وللإنسان حِيَل كثيرة ليتخلص من ضرورته دون اللجوء للتجنس.

الفرع الثالث: الموازنة والترجيح:

الــذي يظهر بعد عــرض أدلة المختلفين وردِّهــا إلى الكتاب والسنة والمقاصد المرعية المعتبرة، أن مذهب المحرِّمين هو الصحيح، وأدلتهم قوية سالمة من المعارض المساوي فضلاً عن الراجح.

إلا أنه قد تعتري المســألة أحوال وملابســات تبيح التجنس لضــرورة ملجئة فتقدَّر بقدرها. وغنيٌّ عن البيان أن الكلام ليس على من تجنَّس رغبــةً في الكفر وتفضيــلاً لأحكامه واعتزازاً وافتخاراً بتلك الجنسية، ولا الكلام عمّن يتجنس لتحصيل مصالح دنيوية ليســت ضرورية، بل غايتها أن تكون من التحســينيات؛ فالأول مرتد قطعاً، ولا يتوقف في هذا عالم، والثاني على خطر عظيم وهو ممن اســتحبَّ الحياة الدنيا على الآخرة، ويشــمله قوله - تعالى -: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

وقوله - جل ذكره -: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وإنما الكلام في ثلاث حالات، وبيانها كالآتي:

١ - الأقليات المسلمة التي هي من سكان تلك البلاد أصلاً؛ فهؤلاء تثبت لهم الجنســية بمجرد ولادتهم، ولا خيار لهم في ذلك؛ فهم مكرَهون عليها ولا إثم على مكرَه، ولا تســتقيم لهم حياة بدون جنسية؛ فهي في حقهم ضرورة، لكن مع ذلك لا بد أن يلتزموا بأحكام الإســلام جُهدَهم ويُظهروا دينهم وإلا وجب عليهم التحول ولزمتهم الهجرة، والهجرة لا تنقطع حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها.

ومن اختار البقاء أو ضاقت به الســبل فليعمل على إظهار دينــه ما استطاع، أو ليعزم على الهجرة لبلاد المسلمين متى ما أمكنه ذلك، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

٢ - من اضطــر إلى التجنس بســبب اضطهاده في بلده الأصلي، أو للتضييق عليه في نفســه أو عِرضه أو قُوته، أو كان لا يحمل جنســية أصلاً ومُنع من الإقامة إلا بالتجنس؛ فهؤلاء إن لــم يمكنهم دفــع ضرورتهم بالإقامة فقــط وكان لا بد من التجنس وتعــيَّن لدفع ضرورتهم الواقعة المعتبرة؛ فلهم التجنس مــن باب «الضرورات تبيح المحظورات». قال - تعالى -: ﴿وَقَدْ فَصَّـلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُـرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقد أباح الشــرع النطق بكلمة الكفر حال الإكراه مع طمأنينة القلب بالإيمــان. قال - تعالى -: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ [النحل: ١٠٦]، وقال - ســبحانه -: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨].

ولكن لا بــد أن تُقدَّر الضرورة بقدرهــا بعد تحقق كونها ضرورة ملجئة، وتعيُّن التجنس مُزيلاً لها؛ بشــرط أن لا تذوب شــخصيته في شــخصية الكفار، وأن يأمن على نفسه وأهله وأولاده الفتنة، وأن يستشــعر انتماءه للإســلام وأهله، وينوي الرجوع إلى بلاد المســلمين متى زال عذره، وأن ينكر المنكرات بقلبه إن لــم يمكنه ذلك بيده ولســانه، وأن يتخير البلد الذي يستطيع فيه إظهار دينه بلا غضاضة عليه؛ كحال المسلمين عند هجرتهم إلى الحبشة.

وانتفاء المفاسد التي ذكرناها آنفاً في حقه؛ فهذا باب يسوغ فيه النظر والاجتهاد والموازنة بين المصالح والمفاسد، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، والله عند قلب المرء ولسانه ولا يخفى عليه شيء من أمره. والله - تعالى - أعلم.



من شروط ولي أمر المسلمين

(١ - ٢)

محمد بن شاكر الشريف
alsharif@albayan.co.uk

مضت السُّنة الجارية أنه ما من دِين أو نِحلة أصاب أصحابها الضعف إلا وتكاثرت عليها حراب وسهام أعدائها من كل حدب وصوب؛ بغيةَ القضاء عليها، أو إحداث شرخ فيها، حتى ما كان بالأمس مهجوراً، يصبح اليوم مطلوباً مرغوباً يدعى إليه صباح مساء، وما كان بالأمس مقبولاً يدعى إليه ويعمل به، يصبح اليوم مهجوراً تتناوشه الأقوال من كل جانب.

ولذلك يقول الماوردي - رحمه الله تعالى -: «فليس دِينٌ زال سلطانه إلا بُدِّلت أحكامه، وطُمست أعلامه، وكان لكل زعيم فيه بدعة، ولكل عصر في وهيه [ضعفه] أثر»[1]، وهي كلمة حكيمة من عالم خبير، لها ما يصدِّقها من شواهد التاريخ البعيد والقريب على السواء. وعندما نتأمل هذا الكلام ونتابع ما يتحدث فيه بعضهم عن شروط ولاية الأمر في بلاد المسلمين في عصرنا الحاضر، ونجد من يزعم أن إسلام الوالي وكذلك رجولته لا تُشترَط في ذلك؛ يتبين لنا معنى هذا الكلام.

فقد تصرّمت الدهور وانقضت الأيام على تقرير بعض القضايا التي دلت عليها النصوص الشرعية وقبلتها الأمة من الناحية التنظيرية ومن الناحية العملية، ولم نجد لها مخالفة على مدى عدة قرون من الزمن، ثم يفاجئنا اليوم بعض من يناقش في هذه الأمور ويجادل فيها كمن يريد أن يعيد بناء الفقه من جديد والانقلاب على كل ثوابته بزعم التجديد. وعندما نفتش في ما يعرضه هؤلاء من أسانيد لدعواهم، لا نجد شيئاً يشد هذه الأقوال لا من الأدلة ولا من الواقع.

وما نود مناقشته في ذلك أمران، وهما اللذان كثر الكلام فيهما، **أولهما**: ديانة ولي الأمر في بلد المسلمين، **والثاني**: رجولته. وهذا أوان مناقشة المسألة.

• ديانة ولي الأمر في بلد المسلمين:

ولِيُّ الأمر في بلاد المسلمين يجب أن يكون منهم، ولا يجوز أبداً في دين الله - تعالى - أن يكون رئيس المسلمين أو أميرهم أو ملكهم من الكافرين، وهذه من المسائل المعلومة من الدين بالضرورة، ولم يخالفها أو ينازع فيها أحد على مر الأعصر والدهور، وأدلة ذلك أكثر من أن تحصر في مثل هذا المقال، وقد تظاهر على ذلك أدلة من الكتاب والسنة وإجماع أهل العلم.

(١) أدب الدنيا والدين، للماوردي، ص ١١٥

• **من القرآن الكريم:**

قول الله - تعالى -: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ [النساء: ٥٩]، فالخطاب والنداء للمؤمنين، وقيّد لفظ ولي الأمر بقوله: (منكم)، مما يبين أن ولي أمر المسلمين الذي تجب طاعته هو من كان من المؤمنين لا من غيرهم.

وقد وردت آيات عدة بالنهي عن موالاة الكفار أو اتخاذهم أولياء، وكذلك النهي عن اتخاذهم بطانة والركون إليهم حتى لو كانوا من مواطني دار الإسلام. والقبولُ بكون الكافر ولي أمر للمسلمين من أعظم الموالاة لهم والركون إليهم، فهناك ترابط وثيق بين موالاة الكفار وبين توليتهم الأمر. يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى -: «ولما كانت التولية شقيقة الولاية كانت توليتهم[1] نوعاً من تولِّيهم[2]. وقد حكم - تعالى - بأن من تولاهم فإنه منهم، ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم، والولاية تنافي البراءة، فلا تجتمع البراءة والولاية أبداً. والولاية إعزاز؛ فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبداً، والولاية وصلة، فلا تجامع معاداة الكافر أبداً»[3].

وقد قال الله - تعالى - أيضاً: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤١]، فهذا إخبار ووعد من الله - تعالى - أنه لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً، والسبيل يراد به الحجة، كما يراد به الظفر والغلبة، وخبرُه - تعالى - حق وصدق ووعده لا يُخلف. فأما الحجة فلا شك في أنه لا حجة للكافرين على المؤمنين؛ فالإسلام هو الدين الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأما الظفر والغلبة فهو لمن استكمل الإيمان؛ فمتى ما استكمل المسلمون الإيمان فلن يكون للكافرين عليهم سبيل على أي نحو من الأنحاء. وإذا كان للكافرين نصيب من سبيل عليهم؛ فذلك بسبب ضعف الإيمان عند المسلمين، لكن ذلك لا يكون كاملاً ولا دائماً؛ بسبب وجود أصل الإيمان عندهم، وبسبب ما يكون من عمليات الإحياء التي تعيد الدين عند المسلمين إلى موقعه الصحيح، هذا على اعتبار أن الآية يراد منها الخبر.

وأما إن كان المراد منها التشريع؛ فهي تعني أمر المؤمنين ألا يجعلوا للكافرين عليهم سبيلاً، وذلك يشمل كل سبيل يظهر فيه تسلُّط الكفار وعلوُّهم على المسلمين، فهم مكلفون ألا يجعلوا للكافرين عليهم سبيلاً، ولا سبيل أعظم ولا أظهر من أن يكون الكافر ولي أمر للمسلم. قال ابن كثير: «يحتمل أن يكون المراد: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ أي: في الدنيا، بأن يسلَّطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية. وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس؛ فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة. كما قال - تعالى -: ﴿إنَّا لننصرُ رُسلنا والَّذين آمنوا في الحياة الدُّنيا ويوم يقُوم الأشهادُ (٥١) يوم لا ينفع الظَّالمين معذرتُهُم ولهمُ اللَّعنةُ ولهُمْ سُوءُ الدَّار﴾ [غافر: ٥١ - ٥٢]. وعلى هذا فيكون رداً على المنافقين فيما أملوه وتربصوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين؛ خوفاً على أنفسهم منهم إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم، كما قال - تعالى -: ﴿فترى الذين في قُلُوبهم مرضٌ يُسارعُون فيهمْ يقُولُون نخشى أن تُصيبنا دائرةٌ فعسى الله أن يَأتي بالفتح أوْ أمْر مّنْ عنده فيصبحُوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾ [المائدة: ٥٢]»[4]. هذا الذي ذكره ابن كثير في تفسير الآية على أنها من قبيل الخبر والوعد.

وأما على تفسيرها أنها من باب الأمر؛ فهي تعني من ضمن ما تعني عدمَ تمكين الكفار من ولاية أمر المسلم بأي حال من الأحوال، لذا قال ابن كثير - رحمه الله تعالى -: «وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية الكريمة على أصح قولَي العلماء، وهو المنعُ من بيع العبد المسلم من الكافر؛ لما في صحة ابتياعه من التسليط له عليه والإذلال، ومن قال منهم بالصحة يأمره بإزالة مُلْكه عنه في الحال؛ لقوله - تعالى -: ﴿ولن يجعلَ اللَّهُ للكافرين على المُؤمنين سبيلاً﴾»[5]. وعلى اعتبار أن الآية للتشريع؛ فقد استنبط العلماء أحكاماً كثيرة من هذه الآية في علاقة المسلم بالكافر، حتى وإن كان من مواطني دار الإسلام، تدور في معظمها على عدم جواز تسليط الكافر على المسلم بأي نوع من أنواع التسلط، ولها فروع كثيرة مذكورة في كتب الفقه.

ويقول الشاطبي - رحمه الله تعالى -: «قوله - تعالى -: ﴿ولن يجعلَ اللهُ للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾، إن حُمل على أنه إخبار؛ لم يستمر مخبره لوقوع سبيل الكافر على المؤمن كثيراً بأسره وإذلاله، فلا يمكن أن يكون المعنى إلا على ما يصدقه الواقع ويطَّرد عليه، وهو تقرير الحكم الشرعي؛ فعليه يجب أن يحمل»[6]. وهي صيرورة منه إلى أن المراد من الآية التشريع وليس الإخبار.

(١) المراد بالتولية هنا: توليتهم الولايات.

(٢) والمراد بها: اتخاذهم أولياء.

(٣) أحكام أهل الذمة، / ٤٩٩

(٤) تفسير ابن كثير، ٢/ ٤٣٧

(٥) تفسير ابن كثير، ٢/ ٤٣٧

(٦) الموافقات، الشاطبي.

ولا يخفى أن ولاية الكافر على المسلم فيها تسليط عليه في كل شـأنه أكثر من تسليط السـيد على عبده؛ لأن من شـأن ولي الأمر أن يأمر وينهى، ويسـوس كثيراً من الأمور وفق اجتهاده وما ظهر له، في الوقت الذي يجب على الرعية طاعتـه وموافقتـه. وبالنظر إلى ما ينـاط بولي الأمر من التكاليـف وما له من الصلاحيـات - على ما تقرر في كتب الأحكام السـلطانية - يتبين أن ولي الأمر في بلاد المسلمين لا يمكن أن يكون من غيرهم.

• السنة:

قد بينت السـنة مثل ما بيّن القرآن، فيقول الرسول ﷺ: «إن أُمِّر عليكم عبد مجدع أسود يقودكم بكتاب الله، فاسمعوا له وأطيعوا»[1]، وقال: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية؛ فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[2]، فهذه النصوص وغيرها الكثير تأمر المسلمين بالسمع والطاعة للأمير، وذلك بشرطين: أن يقودهم بكتاب الله - تعالى - وسـنة نبيه ﷺ، وألا يأمرهم بالمعصية، وهذا لا يكون إلا من المسلم؛ إذ غير المسلم لا علم له بالشرع حتى يقودهـم به، ولا رغبة عنده في الحفـاظ عليه تحجزه عن الأمر بالمعصية.

كما بين الرسول ﷺ أن «الإسلام يعلو ولا يعلى»[3]. ومن مقتضى علوِّ الإسـلام ألا يكون ولي الأمر على المسلمين من غيرهم، فإذا كان ولي أمر المسـلمين من الكفار - حتى وإن كان الكافر من مواطني دار الإسلام - لم يكن الإسلام عالياً.

وقـد رتب أهل العلم على علو الإسـلام كثيراً من الأحكام؛ كالتفريق بين الزوجين إذا أسـلمت الزوجة وبقي الزوج على كفره، وكذلك إذا أسلم أحد الأبوين فالولد مع المسلم منهما، وإذا أسلم عبد من عبيد الكافر ارتفع مُلْكه عنه، ودليلهم في ذلك كله أن الإسلام يعلو ولا يعلى. وما دل عليه هذا الحديث يتطابـق مع ما دلت عليه الآية التي فيها نفي سـبيل الكفار على المؤمنـين، والآية والحديث يتكاملان؛ إذ الآية فيها نفي علو الكافر على المسـلم، والحديث فيه إثبات علو الإسـلام على غيـره، فالآية مع الحديث بمثابة نفي وإثبات: نفي علوِّ الكافر، وإثبات علوِّ الإسلام.

وهذا الذي دلت عليه النصوص الشـرعية قد أطبقت الأمة عليه وأجمع عليه العلماء من كل طائفة إجماعاً يقينياً قطعياً لا شك فيه، ولا شك أنه لا يُخالِف في ذلك إلا مخذول مرذول جاهل جهلاً مطبقاً، ليس للدين عنده مكانة وقدر.

• الإجماع:

وقـد حكى الإجماع على ذلك غيرُ واحد، فقال القاضي عياض: «أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر، وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل»[4]؛ فالعلماء مجمعون على أنه لا يجوز عقدها لكافر ابتداء. ولو كان وقت العقد مسلماً ثم طرأ عليه بعد ذلك الكفر؛ انعزل عن ولايته، وقال ابن حجر: «ينعزل بالكفر إجماعاً، فيجب على كل مسلم القيام في ذلك؛ فمن قوي على ذلك فله الثواب، ومن داهن فعليه الإثم، ومن عجز وجبت عليه الهجرة من تلـك الأرض»[5]، وأقوال أهل العلم في ذلك كثيرة.

وإذا كانت النصوص الشـرعية تأمر بقتال الكفار حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهـم صاغرون، كما قال - تعالى -: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُـمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]؛ فالكافر واقع بين أمرين: بين القتال، أو إعطاء الجزية مع الصغار؛ فكيف يزعم زاعم بجواز ولايتهم لأمر المسلمين؟

وإذا كانت النصوص الشـرعية وأقوال أهل العلم متفقة على ذلك؛ فإن الإجماع العملي أيضاً يؤيد ذلك، فليس هناك حادثة واحدة على مدى الزمن وعلى اتساع رقعة بلاد المسلمين صار فيها كافرٌ وليَّ أمر للمسلمين عن رضا منهم وقبول.

ولا خلاف بين أهل العلم في أنه لا يجوز أن يكون الكافر ولياً في نكاح المسـلمة حتى لو كانـت ابنته. قال ابن المنذر في كتـاب الإجماع: «وأجمعوا أن الكافر لا يكون ولياً لابنته المسـلمة»[6]، وولايته لأمر المسلمين في بلد أعظم بلا شك من ولاية أمر نكاح امرأة مسلمة؛ إذ ولاية أمر نكاح المسلمة التـي لا ولي لها داخل في حدود ولاية ولي الأمر، فهي جزء صغير من عمله.

بـل إن الـكافر لا حق لـه في الحـكـم حـتى فـي بلاد الكفر وإن رضيـه أهـلها، فهـذا رسـولنا ﷺ عندما أرسـل كتابه إلى قيصـر يـدعوه إلى الإسلام قال: «إلى هرقل عظيم الـروم» ولم يقـل: «هرقل ملك الروم». يقول النووي - رحمه الله تعـالى -: «قـال النبـي ﷺ: «إلى هـرقل عظيم الروم»،

(١) أخرجه مسلم رقم ١٨٣٨.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٧١٤٤، ومسلم رقم ١٨٣٩؛ واللفظ له.

(٣) قال ابن حجر: أخرجه الدارقطني ومحمد بن هارون الروياني في مسنده من حديث عائذ بن عمرو المزني بسند حسن، ورويناه في «فوائد أبي يعلى الخليلي».

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم، ١٢/٢٢٩.

(٥) فتح الباري، ١٣/١٣٢.

(٦) الإجماع لابن المنذر، ص ١٠٣.

فلم يقل: «ملك الروم»؛ لأنه لا ملك له ولا لغيره إلا بحكم دين الإسلام، ولا سلطان لأحد إلا لمن ولاه رسول الله ﷺ أو ولاه من أذن له رسول الله ﷺ بشرطه، وإنما يُنفذ من تصرفات الكفار ما تنفذه الضرورة. ولم يقل: «إلى هرقل» فقط، بل أتى بنوع من الملاطفة فقال: «عظيم الروم»، أي الذي يعظّمونه ويقدمونه، وقد أمر الله - تعالى - بإلانة القول لمن يدعى إلى الإسلام، فقال - تعالى -: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال - تعالى -: ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا ﴾ [طه: ٤٤]، وغير ذلك»[1].

وقال ابن حجر - رحمه الله تعالى -: «قوله: (عظيم الروم) فيه عدول عن ذكره بالمُلك أو الإمرة؛ لأنه معزول بحكم الإسلام، لكنه لم يخله من إكرام لمصلحة التألّف»، وقال العيني: «يستفاد من قوله: (إلى عظيم الروم)، ملاطفة المكتوب إليه وتعظيمه؛ فإن قلت: لمَ لم يقل: «إلى ملك الروم»؟ قلت: لأنه معزول عن الحكم بحكم دين الإسلام، ولا سلطنة لأحد إلا من قِبَل رسول الله ﷺ، فإن قلت: إذا كان الأمر كذلك فلم لم يقل: «إلى هرقل» فقط؟ قلت: ليكون فيه نوع من الملاطفة، فقال: «عظيم الروم»، أي الذي تعظمه الروم، وقد أمر الله - تعالى - بتليين القول لمن يُدعى إلى الإسلام، وقال - تعالى -: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾[2].

وهكذا كانت رسائل رسول الله ﷺ لملوك الأرض في زمنه لا يخاطب أحداً منهم بلفظ «الملك» وإنما يخاطبه بلفظ «عظيم»، فكتب إلى حاكم مصر فقال: «إلى المقوقس عظيم القبط»، وكتب إلى النجاشي فقال: «إلى النجاشي عظيم الحبشة»، وكتب إلى كسرى فقال: «إلى كسرى عظيم فارس»، وكتب إلى قيصر فقال: «إلى قيصر صاحب الروم»، ولما جاء الكتاب إلى قيصر وكان عنده ابن أخيه وفهم دلالة الكلام غضب وقال: لا تقرأ الكتاب؛ فإنه قال: صاحب الروم، ولم يقل: ملك الروم.

فإذا كانت الأدلة تدل على أن الكافر لا يعترف به ولي أمر - من الناحية الشرعية - حتى على الكفار مثله؛ فكيف يمكن الاعتراف بولايته على المسلمين؟

وليس في النصوص الشرعية خطاب لملوك الكفار بلفظ الملك أو الحاكم أو الأمير، وإن كان هناك حكاية عن أحوالهم بلفظ الملك، كما في قوله - تعالى -: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ﴾ [يوسف: ٤٣] الآية، وكما في قوله: ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف: ٧٩]، وكقوله - تعالى -: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وكما قال الهدهد لسليمان - عليه السلام -: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ [النمل: ٢٣]، فإن هذا كله من باب الإخبار بما كان أو ما هو كائن، وهو إخبار بالواقع بما هو عليه، وهذا لا يدل على الموافقة أو الإقرار به، بعكس المخاطبة بذلك فهذا فيه إقرار وموافقة.

• دعاوى المخالفين للكتاب والسنة والإجماع:

للمخالفين لحكم الشريعة في هذه المسألة كثير من الدعاوى التي لا تستند إلى نقل صحيح أو عقل سديد، فمن ذلك:

• حقوق المواطنة:

إذا رجعنا لمن يخالف الكتاب والسنة وإجماع المسلمين المستقر، ويقول بجواز ولاية المواطن الكافر للأمر في بلاد المسلمين، وقيل له: ما حجتك في هذا؟ انبرى قائلاً: هذا من حقوق المواطنة، والمواطن الكافر يملك من الوطن مثل ما يملك المواطن المسلم، ومن ثم فله حق ولاية الأمر فيه.

وهذا بلا شك معارضة للنصوص الشرعية وإجماع المسلمين بشُبَهٍ ودعاوى لا يعضدها شيء مما يعضد به المسلم المعظِّم لدينه أقوالَه، لكن بالنظر في كتاب الله - تعالى - نجد قول الله - تعالى -: ﴿ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، فالأرض أرض الله هو خالقها وهو مالكها وهو الذي يحدد من يكون الحاكم فيها، وقد قال الله - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، والرسول ﷺ عندما هاجر إلى المدينة كانت مختلطة غير صافية للمسلمين، بل كان فيها من أسلم من مشركي العرب الذين عُرفوا باسم الأنصار، وفيها من كان لا يزال على شركه، وفيها من كان من اليهود، ومع ذلك فإن الرسول ﷺ لم يقسِّم قيادة المدينة بين هذه الفئات الثلاث، وإنما جعل قيادتها مما انفرد به المسلمون، ومن يقرأ الصحيفة (الوثيقة) التي كتبها رسول الله ﷺ بين أهل المدينة عندما نزلها بعد الهجرة يدرك - لا محالة - أن حكم المدينة وقيادتها خالصة للمسلمين لا يشركهم في ذلك أحد من ساكنيها، سواء من اليهود أو غيرهم رغم كثرتهم. قال ابن إسحاق: «وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادَعَ فيه

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/ ١٥٤.

(٢) عمدة القاري. وبنحو ما تقدم قال الشيخ علي ملا القاري في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، والمباركفوري في تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي.

يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشـــرط لهم واشـــترط عليهم، وقد جاء فيها: «وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده؛ فإن مردَّه إلى الله - عز وجل - وإلى محمد رسول الله ﷺ»[1].

وعندما أراد الرســـول ﷺ أن يجلــي اليهود من المدينة قال لهــم: «اعلموا أن الأرض لله ورســـوله»[2]، قال النووي رحمـــه الله: «معناه: مُلْكها وَالْحُكْـم فِيهَا»[3]، والأرض لفظ من ألفاظ العموم، فالأرض كلها (مشـــرقها ومغربها) ملكُها للـــه وحده والحُكم فيها له وحده، وهذا لا يكون إلا بأن يكون الحاكم في أرض الله من المسلمين، ولذلك لم تكن الغاية في الجهاد منتهية بإســـلام الكفار؛ إذ لا إكراه في الدين، وإنما الغاية مرتبطة بكون الســـلطان والطاعـــة في أرض الله لله العلي القهار.

• تغير الأوضاع:

كمـــا تجد لهـــم احتجاجاً آخر هو أســـمج من الاحتجاج الســـابق، فهم لعدم قدرتهم على المنازعة في الأدلة المتقدمة تراهم يحرفون الكلم عن مواضعه فيقولون: إنما كان اشتراط كون ولي الأمر مسـلماً؛ لأن الدولة في ذلك الزمن كانت ملتزمة بالإسلام ومتمســـكة به وكان لولي الأمر اختصاصات دينية، ومن ثم فلا ينبغي أن يكون ولي الأمر فيها إلا مســـلماً. وأما اليـــوم فلم يعد لولي الأمر اختصاصات دينية، ومن ثم جاز أن يكون غير المســـلم ولياً للأمر. فيقال لهم: هذه الاختصاصات الدينية من تصرفه الشخصي أم من حكم الشريعة؟ فإذا كان الأمر من حكم الشـــريعة - وهو الواقع فعلاً - فإن التصرف السليم أن يعود الناس إلى التمسك بشريعتهم، وليس أن تُغيَّر الأحكام الشـــرعية لتوافق الأوضاع المخالفة للشرع، فبدلاً من أن يكـــون همهم وجهدهم مصروفاً لإعادة الأمور إلى ما كانت عليه في سياقها الســـليم؛ تراهم يعملون على تغيير الأحكام الثابتـــة لتجاري الواقع المنهزم، فأنزلـــوا الواقع منزلة المحكَم الـــذي يُرَدُّ إليه كل شـــيء، وأنزلوا الأحكام الشـــرعية منزلة المتشابه الذي يفسر في ضوء المحكَم.

• الحاكم موظف إداري وليس ذا سلطان:

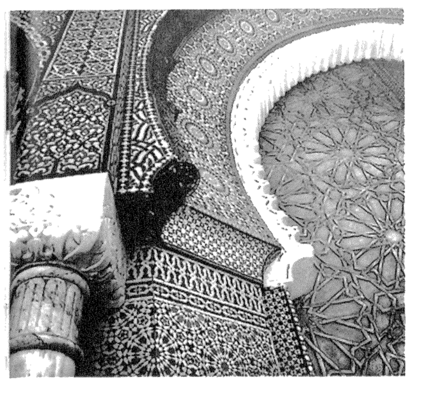
وهذا القول يذهـــب إلى أن الحاكم ليس بســـلطان في الحقيقـــة، وأنه مجرد موظف إداري، وأن الســـلطة في ظل الأنظمة الحديثة مقسمة (سلطة تنفيذية - سلطة تشريعية - سلطة قضائية) حيث لا يستقل بها شخص، وعلى ذلك فلا يلزم في ظل هذه الأنظمة أن يكون الحاكم مسلماً. ويقال في الجواب عن ذلك: مهما قيل عن تقسيم السلطة: فإنه لا شك أن السُّـــلطة التنفيذية (الحاكم) في معظم الأنظمة العصرية هي أقوى السُّـــلطات في الحقيقـــة، ومهما قيل أيضاً عن أن ســـلطان الحاكم ليس كاملاً وأن عليه رقابة، وأنه ليس مطلق التصـــرف؛ فإن هذا لا يناقض بحال وجود ســـلطان حقيقي له، وأن له فـــي جميع الأنظمة صلاحيات كبيرة؛ حيث يتمتع بإصدار قرارات ســـيادية لا يملك أحد نقضها أو الاعتراض عليها أو مناقشتها، والواقع المعاصر الذي نشاهده في جميع الأنظمـــة دليل صدق على ذلك، وهـذا بلا شـــك ســـلطان حقيقي وســـبيل على الرعية، ولا يجوز أن يكون للكافر على المؤمن سبيل.

• القبول بالتعددية السياسية والاعتراف بالآخر:

يرى القائلون بالتعددية السياسية والاعتراف بالآخر أن ذلـــك لا يتم في حالة إقصاء فصيل أو فئة من فئات المجتمع عـــن الوصول إلى أعلى المناصب فيه؛ والتي تتمثل في صورة ولاية الأمر، ومن ثم فلتحقيق هذا الأمر يرى القائلون بذلك أنـــه لا بد من تمكـــين الكفار من مواطني دار الإســـلام من الوصول إلى ولاية الأمر. وهنا ملحوظة أولية نبادر بذكرها؛ وهو أن هذا القول يرى في ولاية الأمر سلطاناً حقيقياً وليس مجرد وظيفة إدارية، وإلا لما حرصوا على وصول الكافر لهذا المنصب، وذلك أن الكفار في بلاد المســـلمين يتولون أعمالاً إداريـــة كثيرة ولا يعترض أحد على ذلك. ومن ناحية أخرى، فـــإن هذه الألفاظ مجملة تدخل تحتهـــا عناصر كثيرة غير متفق عليها، بعضها مما يمكن قبوله وفق المعايير الشـــرعية وبعضها مما لا يمكن قبوله: فما كان منها غير مقبول شرعاً - كولايـــة الكافر على المســـلم - فليس يستســـاغ عند أحد ممـــن يعقل أن يقبل هذا الممنوع لمجرد تســـميته أنه تعددية سياســـية أو اعتراف بالآخر، إذ الأسماء لا تغير من حقيقة المسميات.

على أن كل ما يذكره المخالفون في كل ما تقدم من أقوال يرونها حججاً لتصوراتهم؛ لا يســـتندون فيها إلى شـــيء من مصادر الحجة عند المســـلمين، حيث الحجة والصواب عند المسلمين محصور في كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله ﷺ الكريم وإجمـــاع الأمة، وما كان غير مســـتند إلى ذلك فلا تعويل عليه ولا التفات إليه.

(١) سيرة ابن اسحاق، ١/٥٠٣.
(٢) أخرجه البخاري رقم ٣١٦٧، ومسلم رقم ١٧٦٥.
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم، ١٢/١٢٩.





عبد الرحمن بن عبد الله جميعان

يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فالوسطية سمة جعلها الله ـ تعالى ـ لأمة محمد ﷺ، وهي صفة تلازمها، والغاية منها فهم الدين فهماً يتناسق ويتماشى مع العصر الذي تعيشه الأمة، دون إخلال في الأصول، أو إهمال للفروع.

وكما أن الوسطية بمعناها العام للأمة مطلوبة، فمن أخص مطالبها اليوم تتحدد بالدعوة؛ لأنها رأس هذه الأمة، وعماد قيامها، وسبب وجودها.

فالدعوة في هذه الأمة أساس ثابت ومتين، لا تكاد تنفصل عنه، ولا يمكن أن تكون هذه الأمة إلا بالدعوة، ولقد جاءت آيات كثيرة في القرآن تحرض على الدعوة: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨].

إنها ليست تطوعاً يتقدم به صاحب دعوة، إنما هو التكليف؛ التكليف الصارم الجازم، الذي لا مفر من أدائه، فالله من ورائه!

وإنها ليست اللذة الذاتية في حمل الهدى والخير للناس؛ إنما هو الأمر العلوي الذي لا يمكن التفلت عنه ولا التردد فيه.

وهكذا يتبين أمر الدعوة ويتحدد .. إنها تكليف وواجب، وراءه الهول، ووراءه الجد، ووراءه الكبير المتعال!

فهو التهديد الظاهر والملفوف لمن يبلِّغه هذا الأمر ثم يعصي. بعد التلويح بالجد الصارم في التكليف بذلك البلاغ[١]، فلا يمكن التملص من هذا الوعيد إلا بالجد الدائم والعمل المخلص المتفاني والمستمر.

• عمل يوجبه الارتباط:

الأمة ترتبط ارتباطاً عضوياً بالدعوة وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل إن الفقهاء يوجبون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجوباً لا فكاك منه أبداً، فهذا الطحاوي ـ رحمه الله ـ يبيّن أن الفاسق من المسلمين «واجب علينا منابذته، وترك إقراره على ما هو عليه من فسقه حتى نزيله عنه إلى الواجب عليه بالشريعة التي هو من أهلها»[٢]، فهذا حق واجب على المسلمين بالأمس واليوم والغد، لا تبدّله الأيام والعوادي.

ويحدد الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله تعالى ـ حكمها فيقول: الأدلة من الكتاب والسنة على وجوب الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ وأنها من الفرائض. والأدلة في ذلك كثيرة، منها قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ومنها قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

[النحل: ١٢٥]

وصرح العلماء أن الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ فرض كفاية بالنسبة إلى الأقطار التي يقوم فيها الدعاة، فإن كل

(١) ظلال القرآن: سيد قطب، سورة الجن.
(٢) تحفة الأخيار بترتيب مشكل الآثار للطحاوي: (١/ ٣٣١).

قُطْرٍ وكل إقليم يحتاج إلى الدعوة وإلى النشاط فيها، فهي فرض كفاية إذا قام بها من يكفي سقط عن الباقين ذلك الواجب، وصارت الدعوة في حق الباقين سنة مؤكدة، عملاً صالحاً وجليلاً.

وإذا لم يقم أهل الإقليم، أو أهل القُطر المعين بالدعوة على التمام، صار الإثم عاماً. ولئن كان الكثيرون اليوم قد تخلوا عن هذا الواجب فإن المهمة مضاعفة على الدعاة؛ لتردي أحوال الناس، ولقلة الدعاة، ولقلة الفقه والعلم.

◦ **المنهجية الدعوية:**

المنهجية الدعوية تأبى الفردية، وتأبى الانزواء خلف قضبان النفس والأهل والولد، بل تنطلق لتكمل المسيرة، وتترقى في سلم الصعود لتدرك المعالي والمعاني ذات الإسناد العالي الذي يضيء الدرب للناجين من وهج الصحراء القاحلة، والسائرين إلى أعالي الجنان.

إن المنهجية الدعوية تتأصل من خلال الكتاب والسُّنة وفقه السلف الصالح، ثم من الفقه المقتبس من صور العاملين الأوائل، ومما كتبوه منثوراً بين ثنايا صفحات الكتب، إنها جذور أصيلة في هذه الأرض الطيبة المعطاء دائماً.

في الخطاب الدعوي سنركز على عدة قضايا قد تكون من أساسيات منهج الوسطية في الدعوة:

١ ـ ضرورة تفقيه الداعية قبل البدء بممارسة الدعوة:

بوّب الإمام البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ في كتاب العلم من صحيحه (العلم قبل العمل) لما للعلم من مكانة في ميزان هذا الدين.

فالفقه والعلم من أساسيات الواقع الحاضر ومتطلباته، خاصة بعد تشابك الأمور، وتعقّد القضايا، وتوسيع رقعة الدعوة، وكثرة شياطين الإنس والجن، وتعدد الواجهات والرؤى، وادعاء كل صاحب هوى بحق ليس له.

في هذا الزمان الذي تحتاج الدعوة فيه إلى جهود أبنائها وسواعدهم، تجد الكثير من الدعاة يتقاعسون عن أداء هذه المهمة التي ترفع من شأنهم، وتعلي مكانتهم، وتبصّرهم في دينهم ودنياهم؛ فنراهم يزهدون في العلم والتعليم، ويمكثون الليالي والأيام يتسامرون، ويخرجون في نزهات يمكثون الأيام الطوال، ويقصّرون في أمر مهم مثل هذا، مع وجود الوقت والمكان، ووفرة طلاب العلم وأهله، وكثرة الكتب والمراجع في كثير من المكتبات والأماكن العامة اليوم.

أو تجدهم يضيعون أنفسهم وأوقاتهم بأمور سياسية تافهة يظنون أنها هي الأساس وهي المهمات العلا، وهذا من قلة الفقه في الدين، وقلة الفهم في الموازين الشرعية، وضياع الحرقة العامة والهم العام في قلوبهم.

والعلماء قديماً وحديثاً لا يزالون يفتون بعدم جواز الإنكار إلا لمن فقه الموازين الشرعية والسنن الإلهية، وكان بصيراً في الدين وعالماً بالواقع.

هناك أمور وقضايا ومسائل لا بد للدعاة أن يحوزوها، هي خير لهم من الجلوس للحديث والمسامرة، ومضيعة الوقت، فضلاً عن أنها من الواجبات التي أضاعها الكثيرون باللهو واللغو، والتفريط والإهمال. من هذه القضايا الهامة:

ـ العكوف على كتاب الله ـ تعالى ـ لزاماً، يقرؤه ويتدبره، ويطالع كتب التفاسير، كتفسير الطبري وابن كثير ونحوهما.

هذه المطالعة مهمة جداً خاصة في أول الطلب، وهي من المنجيات في وسط الطريق وعند تكالب الفتن واحتدام السيوف، وقد قال الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ: «من عرف كتاب الله نصاً واستنباطاً استحق الإمامة في الدين»[1]، وليس المعنى هنا أن يطالع بلا تدبر، ولا اجتهاد، ولا فهم، ولا بصر بعين ناقدة في التفاسير؛ بل لا بد من تلك العين؛ لأن «من اقتصر على اتِّباع أقوال المفسرين كان مقلداً، ولم يكن عارفاً»[2].

ـ ثم ينحو إلى تدبر سيرة النبي ﷺ، وسير الأنبياء من قبله، والنظر في سير أصحابه، وخاصة الكبراء منهم، ومحاولة تقليدهم والنهل من منبعهم الصافي؛ فإن الصحابة قد اكتسى كلامهم وفعلهم نوراً من ربهم، قصّر الخلف أن يأتوا بمثله.

ـ الابتعاد عن الخلافات غير المجدية والعديمة الفائدة، والارتفاع عن الخصومات الجانبية والنزاعات المذهبية التي لا طائل تحتها.

ـ التوغل في مسارب الحديث النبوي الشريف، والإبحار مع (فتح الباري) لابن حجر، وتراجم البخاري في مقدماته، مع لفتات النووي في شرحه لمسلم.

وقد يقول قائل: أكُلُّ هذا لأجل داعية؟ وأقول: نعم! فإن الفتن والمحن والمصائب، وتورُّط الدعوة والدعاة، وسير الدعوة في منازل الفتن والأهواء؛ كان سببها قلة الفقه والعلم الشرعي، بل ومحاربته من بعضهم! فإن العلم عاصم، والعلم من متطلبات العمل بالإنكار.

وقد يجرنا هذا إلى التصدي والتفكير جدياً في إنشاء

(١) تهذيب الغياثي (غياث الأمم في التياث الظلم) للجويني، (هذبه محمد أحمد الراشد)، ص ١٤١.
(٢) المرجع السابق.

كلية دعوية جادة تعلّم الدعاة كل ما يحتاجونه من علم دعوي وفقه في الواقع، وقد يتنبه بعضهم إلى أهمية تفقيه الدعاة؛ فيبدؤون بتعليمهم منذ نعومة أظافرهم. إنها حاجات ماسة وهموم صاعدة نأمل أن يقوم بها بعض الأخيار ليعينوا الدعاة على تجاوز المهمات من الأمور.

وعدم سؤالنا عن معتقد الناس تفتيشاً وتنقيباً، إنما يجعلنا في راحة نفسية نتعامل من خلالها مع الناس بما نراه، فتكون نفوسنا منشرحة، بعكس ما لو تعاملنا بخبث طوية، وتدخل للتعرف على بواطن الأمور، فهذا في الأصل مما نُهينا عنه شرعاً، ويتعبنا واقعاً، ثم هو ينفّر الناس عنا وعن منهج دعوتنا وهم شريحتنا المستهدفة! فالتساهل مع الناس - والمصلين منهم خاصة - والتبسط معهم، والعيش داخل مجتمعاتهم ومجالسهم، إنما هو سُنَّة نبوية قديمة.

٢ - هل الطاعة للقيادة، والولاء للدين؟

وتلك قضية هامة في التصور الحركي للدعوة الإسلامية الحديثة، فإن معظم الجماعات العاملة تربي أبناءها على الطاعة المطلقة لقيادتها، دون نقاش لأي أوامر تصدر، ولا مجادلة؛ كأننا في قاعة عسكرية! وفي هذا ضمور للفكر القيادي الإبداعي، وضمور للشخصية القيادية التي ستسود. فلنحذر مثل ذلك حتى لا تزلّ بنا الأقدام.

إن الأصل الذي يجب أن تنطلق منه الدعوة الإسلامية هو أصل الدين الذي لا ينبغي تجاوزه بحال، وهو أن الطاعة التامة دون تردد إنما تكون لله ولرسوله ﷺ، وتأتي طاعة الآخرين تبعاً لهذه الطاعة، (إنما الطاعة في المعروف)، وما أوامر القيادات إلا محض اجتهادات، فعليها ألاّ تضيق ذرعاً ولا تحجر على المخالف الإدلاء بالرأي، بل الأَوْلى أن تطلب هي الرأي والمشورة وتتدارس الأمور.

والدين هو أساس حركة الفرد والمجتمع، وينبغي أن يكون في حس المسلم هذا الشعور، فلا تعلو طاعة امرئ على طاعة الله ورسوله ﷺ، فهذا هو الأصل الذي ننطلق منه، وعندما قال عمر - رضي الله عنه - للنبي ﷺ في الحديث المعروف عن الإيمان، وفي الرواية الأخرى «عبد الله بن هشام» قال: «كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: يا رسول الله! لأنت أحب إليَّ من كل شيء؛ إلا من نفسي. فقال النبي ﷺ: لا، والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك! فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إليَّ من نفسي. فقال النبي ﷺ: الآن يا عمر»[1].

(١) صحيح البخاري، كتاب: الأيمان والنذور.

فيجب على الدعوة أن تربي أبناءها على الطاعة والولاء لهذا الدين، والانتماء إليه، وحب الطاعات؛ وقبل كل شيء حب الله ورسوله ﷺ، وقد عالج ابن القيم هذه المسألة في كثير مما كتب.

فينبغي أن يعرف الجندي والقائد أن التربية على هذا الحب هي الضمان لاستمرار الدعوة بأجيالها المتعاقبة، وقياداتها الواعية، وأنها أساس التعامل في ظل هذه الدعوة، بل إن الطاعة تنبع من العمل في ظلها، والتفيؤ ببركتها.

٣ - القبول بجهود المسلمين وإن قلّت:

إن جهود العاملين في حقل الدعوة كله خير وبركة ونماء؛ تلك مسألة. والأخرى أن بعضنا يريد من الآخرين الكمال الذي حجبه الله عن كثيرين. إن دعوتنا قد تآكلت وقضى الأعداء على كثير من الخير، والعدو الداخلي والخارجي لا يزال يتربص بنا الدوائر، ونحن نعيش في سذاجة وغفلة عارمة.

ومع كل ذلك لا نزال يحارب بعضنا بعضاً، بحجج نظنها شرعية. حدّثنا بعض العاملين في العمل الخيري بأن بعضاً منهم لا يقدّمون يد المساعدة إلا لمن سار على منهجهم، بل إن بعضهم يمتحن الناس في عقيدته حتى يقدم له كسرة خبز، كأن الخير محصور في فئة خاصة من المسلمين! إن الخير ينبغي أن يبلغ كل أهل الأرض ليعرفوا أي نمط من الناس نحن.

لقد جلست أتبصر في أقوال المحدثين كثيراً، عندما يتكلمون عن أصحاب البدع، فلم تمنعهم بدع هؤلاء من الأخذ عنهم، ولم يضيعوا خيراً كثيراً مغموراً فيه شر.

وللذهبي أقوال تسطّر بماء الذهب، منها ما ذكره في السير: في القبول بآراء بعض العلماء على ما يشوبهم من مآخذ:

قال ابن فضيل: عن سالم بن أبي حفصة: سألت أبا جعفر وابنه جعفراً عن أبي بكر وعمر، فقالا لي: يا سالم! تولّهما وابرأ من عدوهما، فإنهما كانا إمامَيْ هدى». كان سالم فيه تشيع ظاهر، ولكنه يعرف الفضل لأهله[2].

٤ - الإبداع في وسائل الدعوة:

إن الطرق التي نراها اليوم إنما هي تقليدية، وقد يكون غيرها بالياً لا يجدي. السيرة ملأى بالأحداث التي تدل على أصالة المنهج الإبداعي في وسائل الدعوة والتعامل في ظل هذه الحياة الدنيا. فحادثة الخندق التي برع فيها سلمان الفارسي، واستعار ميراثه بعد إعمال الفكر، دليل على تغيير

(٢) سير أعلام النبلاء، ج ٤، ص ٤٠٢.

نمطية التفكير.

وينتصب لنا خالد بن الوليد في مؤتة مثالاً صارخاً ودليلاً نافذاً قوياً في تغيير نمطية التفكير، وفي التفكير الإبداعي الذي طرأ على الموقف، فحوَّل الهزيمة نصراً، وهو لم يستخدم أكثر من الإمكانيات المتاحة، وهنا يقفز التفكير الإبداعي الذي وظف هذه الإمكانيات اليسيرة، وخدع العدو، واستطاع أن ينقذ الجيش ويحافظ على العنصر الإسلامي من القتل أو التشريد، وتلك قدرة هائلة في التفكير.

ليس الإبداع أن تأتي بالجديد فقط، بل قمة التفكير الإبداعي يكمن في توظيف الخامات المتوفرة لديك توظيفاً جيداً، يستطيع الداعية الاستفادة منها في كسب أنصار لدعوته، أو لصدِّ عدوان عليها، أو لشرح مفهوم من مفاهيم هذا الدين، وما رسالة الشافعي إلاَّ نمط إبداعي متجدد في التفكير الفقهي، وما فعله يوسف الصديق - عليه السلام - مع إخوته في الصاع ليس إلا نمطاً من هذا التفكير الإبداعي.

ولو تصورنا أن كل داعية رسم على ورقة مشروعاً دعوياً جديداً واحداً، ثم وضعت هذه المشاريع في كتاب ونشرت، والبلد الآخر يعمل هذا؛ أفلا يكون في يدنا الكثير الكثير من المشاريع الدعوية؟!

والإبداع لا يحتكره أحد، فلماذا نظل في طرق تقليدية أكل الدهر عليها وشرب؟! فما صلح بالأمس قد لا يصلح اليوم، وما نجح في بيئة لا يعني أنه قد ينجح في بيئة أخرى! فالتفكير الإبداعي وطول المكث تفكيراً، والتعرف على إبداعات الآخرين، ومدارسة طرق تفكيرهم، ودمج كل هذا وغيره بتراثنا قد ينتج لنا كمّاً هائلاً من الطرق غير التقليدية في الدعوة إلى الله.

ولو استطاعت المناهج التربوية الدعوية إدخال علوم الإبداع والتفكير الناقد، وحل المشكلات، وغيرها من العلوم التي سبقنا بها الغرب، لكان نفعاً للإسلام، ودفعاً وتجديداً لحيوية الدعاة.

٥ - نشر الحماسة والرقائق بين الناس:

الحماسة والرقائق من أشد المتطلبات الدعوية في عالم غلبت عليه الماديات، والشهوات فيه أصبحت تُحرك الكثير من المجتمعات. ومجتمعات الدعاة لن تظل مجتمعات راكدة، يعيش فيها الداعية دون أن يتأثر بالمحيط الخارجي، فهذا لا يمكن؛ لأن النفس البشرية تؤثِّر وتتأثر، تلك طبيعة بشرية عامة، ونحن لسنا بدعاً من الناس، بل نحن وسط مجتمعاتنا التي فيها الغث والسمين. وما من شك بأن وسائل الإعلام لها الأثر السيئ الكبير في تربية الناس وصقل تفكيرهم، وتوجيه رؤاهم، وللحكومات وسائل تربوية تليق بها، وللتوجهات السياسية الأخرى منهج تربوي طويل، وكل هذا يصب في صالح التربية الفكرية الزائغة، أو التيار الشهواني العارم. ومن هنا، ومع غياب الإعلام الهادف، ومع ضعف المناهج التربوية الحركية اليوم، ومع ضعف الداعية في التوجيه والإرشاد، ومع الملاحقات والمطاردات، تبدو الحاجة ماسة إلى هذه الرقائق التي ترطب القلب وتؤنسه بالحب لله - تعالى - والعيش مع سنة رسوله ﷺ.

والقلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، وتتلوث من أثر دخان هذه البيئة التي فيها الخَبَثُ الكثير، فتأتي الرقائق لتصقل القلب، وتحرك الوجدان، وترفع الإيمان في النفوس. ولا نعني بالحماسة تلك الحماسة الوقتية الفائرة، ولا الإيمان البارد الذي سرعان ما يخبو، بل نعني الحماسة المدفوعة بوعي، والإيمان النابع عن يقين. وحتى نضمن سلامة انطلاقتنا، ونأمل أن تأتي الحركة ثمرتها لا بد من الانتشار في المساجد، والمدارس، والأسواق... لنشر هذه الرقائق العالية المستمدة من الكتاب العزيز، والسنة المطهرة، وفقه الصحابة، وفهم السلف الصالح وتعاملهم السني مع الواقع ومع الرقائق.

وما من شك بأن الحركة الإسلامية اليوم، مطلوب منها وواجب حق عليها أن تبدأ البحث، بجدية صارمة لا هوادة فيها، عن وسائل نشر مثل: المجلة، والجريدة، والشريط، والقرص الحاسوبي، وفوق هذا كله أن تبدأ بوضع الخطوط العريضة القابلة للتنفيذ لإيجاد باقات قنواتية تضارع هذا الإعلام العربي والغربي الذي سطا على العقول والقلوب. فمهمة الحركة اليوم مضاعفة، وواجبها صار أكبر من ذي قبل، وقد نقعُ بالإثم جميعاً إن لم يتحرك التجار المسلمون، والإعلاميون الجادون لإيجاد هذه البدائل الحيوية الهادفة، فإلى متى يظل الدعاة والإسلاميون بهذه السذاجة وهذا التسطيح، والعمل فيما لا طائل تحته؟!

٦ - استمرارية الحوار الداخلي:

لا يزال الحوار بين قطاعات الحركة الإسلامية مقطوعاً، ولم يعطَ الأولوية في التعامل، بل نحن قد نطالب بالحوار مع من يخالفنا المعتقد والمذهب، ونضيق ذرعاً بالتحاور بيننا، كأننا نمثل (الإخوة الأعداء)!

إن الحوار الداخلي، وعَرْضَ أمورنا على طاولة التشريح، ونقد بعضنا بعضاً، طرقٌ كفيلة بتعويد الدعاة تقبُّل الرأي الآخر، مع ما في هذا الأسلوب من تصحيح مسارنا ولفت

انتباهنا إلى أخطاء قد نقع فيها، مع اســتمرار عظم العمل الإسلامي وتشعبه.

٧ ـ معرفة الأولويات والبدء بالأهم، والدعوة انطلاقاً من معرفة البيئة:

وتلك مســألة مـن أهـم مســائل الدعــوة وأخطرها وأدقهــا، ولا يفقهها أو يدركها إلا فقيــه، آتاه الله ـ تعالى ـ حكمــة وعلماً، وعدم معرفتها وفهمهــا حق الفهم قد يودي بالحركة الإسلامية إلى طرق وعرة مسدودة.

إن الداعية فقيه، وهو لا ينبغي منه الخروج عن أعراف الفقهــاء. فالفقيه عندما كان يفتي كان ينظر إلى البلد وإلى أعراف النــاس، ولهذا تعددت الإجابات، ويظن الجاهل أنها متناقضة فيســارع في غضــب إلى اتّهام الفقــه والفقهاء، ومــا علم أن هذا الاختلاف هو دليل واضح على ســعة هذه الشريعة، وعلى اســتيعابها لحاجات الناس وتغيير عوائدهم المتجددة.

ومن هـنـا نـقـول: إن الدعـوة لا ضـيـر عليـهـا ـ إن شاء الله ـ إنْ احتذت بهؤلاء الفضلاء، وســارت على هذا النهج؛ فهو النهج الصائب إن شاء الله.

وما فتئ العلماء المجتهدون يلحّون في تبيين هذه الخطوة المهمة، ويطيلون النَّفَس في توضيحها وتبيانها للناس.

فتغيُّـــر أعراف النـــاس يغيِّر الفتوى، بـــل تحرم الفتوى بغير العــادة، كما ذكر القرافي؛ رحمــه الله. فإذا كان ذلك فـــي النصوص فهو فـــي الاجتهادات أوْكد. وتأتي مســألة الحركة والدعوة لتؤكد هذه المســألة تأكيداً فقهياً وتجاربياً، فالتجارب أعطتنا مزيد علم بأصالة هذه القضية وأهميتها على المستويين الحركي والفردي.

وهــذا يؤكد علــى قضية ملحة لا بد من اســتيعابها لدى الدعاة، وهي أننا قبل أن نبدأ بالدعوة والحركة علينا مهمتان:

الأولى: دراســة البيئــة الدعويــة ومـدى ملاءمتهـا وصلاحيتها:

وهذه الدراسة تتأكد عند خروج الحركة من بيئتها لتبدأ الدعوة في بيئة أخرى قد تخالفها كل المخالفة، كالدعوة في بــلاد الغرب مثلاً، أو في تركيا، أو في بلاد البلقان، أو حتى في بعض الدول الإســلامية الأخرى؛ كأندونيسيا، وماليزيا، وغيرها.

فهــذه البيئات قد تكـون بيئة صالحة للدعوة ولنشــر الدين، ولكن لعــدم معرفتنا بها: تاريخاً، ومجتمعاً، وعادات، وتقاليــد... إلى آخــر القائمة، قد نخطئ فـــي التقديرات والحســابات، فتأتي دعوتنا نتيجة معكوسة، وقد نتسبب في شل الحركة ومحاربتها.

والثانية: التكميل والتعويض:

من هنا علينا أيضاً دراسة الأفراد الذين نتوجه بالدعوة إليهم، لنرى: أين يكمن الخلــل؟ وقد أطال الداعية (محمد الراشد) النَّفس في هذه القضية في كتابه (المسار في فصل فنـــون التجميع) وهو ـ فيما أحســب ـ فصل جيد في أمثال هذه المسائل والقضايا.

والحركات الإســلامية مدعــوة إلى أن تــدرِّب دعاتها المبعوثين على وسائل الدعوة وطرقها في البلاد التي يذهبون إليها، وتدرِّس تاريخ المنطقة بعناية، وألاّ يُبعث إلا من يوثق بعلمه وفقهه. أما أن يذهب الدعاة هكذا دون توجيه وعناية فسيكون مردوده ســيئاً، خاصة أن الدعوة الإسلامية ليست إغاثية بحتة، بل الجانب الدعوي شامل عام فيها.

٨ ـ نشر الدعوة انطلاقاً من المساجد:

فالمساجد وضعت للعبادة وللتشاور، ونحن عندما ننطلق من هذا المــكان إنما نرجع إلى الأصــل الأول والمكان الذي انطلقت منه دولة الإســلام، لهذا كان لزاماً على الدعوة أن يكون لها لبث في المســاجد تفتح به حلقــات القرآن، وتعلّم الفقه والحديث، وتكون حركة فاعلة في المسجد تدفع بعجلة التحرك للمجتمع.

إن المسجد مفتوح للدعاة، فلا بد من العودة إليه، وتجديد دوره الحضاري الكبير.

وبعد:

هـذه ملاحظــات قفزت إلى العقــل أحببت أن أدونها خوفــاً عليها مـن الضياع، راغباً إفــادة أخوتي الدعاة وقد تتفق معـي ـ أخي القـارئ ـ وقد تختلف، ولكن هذا الاختلاف لا يخرجنا عن أدب الإسلام، وعن حب الخير وعن الحصافة، فتكون لــك (بلقيس) قدوة، حــين رأت الكتاب فبادرت واصفـة كتاب سليمان ـ عليه السلام ـ بأنه كتاب كريم قبل أن تقرأه، ولا تكن ككســرى عظيم الفرس الذي مزّق كتاب رسول الله ﷺ فحرم نفسه والناس من فائدة عظمى.

إن هــذا الميزان يدعوك للنظر فـــي ما تقدم نظر تجرد وموضوعيــة، فتأخذ ما تــراه نافعاً وتزيد عليــه، وما كان غيــر ذلك فلــك كل الحق ـ بل هو مطلــب ـ أن تقوم بنقده علـــى صفحة من صفحات المطبوعــة. وما هي إلاّ محض اجتهادات يســوغ الخلاف فيها، وليس من الحق أن تسكت على خطأ أو ضلال؛ بل سارع وناقش وحاور؛ عسى أن تكون هذه الأفكار مدعاة لنا للتناصح والتشــاور وتصحيح مسارنا مستقبلاً.



تنمية الذات

مشعل بن عبد العزيز الفلاحي (*)
Mashal001@hotmail.com

إن النجاح في الحياة همّ يؤرّق الناجحين وحدهم، وشعور يتألق بهم في عالم الحياة فيجعل منهم آخرين على مساحات هذا الكون الفسيح، وصدق الرافعي حين قال: «إذا لم تزد على الدنيا كنت زائداً عليها». وعبر هذه المساحة بإذن الله - تعالى - سنصل وإياك إلى ما نريد، وأجزم - إن شاء الله - إن كنت على الخطو أن تهنأ بحياة حافلة بالنجاح وذلك ما نتمناه.

لــن يتحقق النجاح في عالم الواحد منّا ما لم نؤمن إيماناً صادقاً ويقينياً أننا أهل لذلك النجاح. إن العامل النفسي مهم للغاية في إقناع نفوسنا بتحقيق معالم نجاحها في الحياة، وما لم نصل إلى أعماق نفوســنا فنثق بها، ونهتف بتميزها، ونكتب فــي قرارها أننا من الناجحين، لن نحقق شــيئاً في مثل هذا العالم الطموح، وهذه بداية الطريق، ومن لم يحسن البداية فلن تكون له نهاية. ولذلك قيل: أضخم المعارك في حياة الإنســان تلك التي يقضيها الإنسان مع نفسه، وعندما تبدأ معركة المرء بينه وبين نفسه فهو عندئذٍ شخص يستحق الذكر.

١ - الثقة بالنفس أول مطالب النجاح:

ما رأيت أروع للنفس من السباق نحو المعالي، ولا شهدت لها حالاً أفضل ولا أحســن من بلوغ المجد في زمن التواني! لقد جاء الله بنا - بعد عبادته - لعمارة الأرض، واســتخلفنا فيهــا لذلك الهــدف العظيم: ﴿وَمَا خَلَقْــتُ الْجِــنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُــدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. والمتأمّل في النفس الإنسانية يجد أن الله - تعالى - أودع فيها قدرات فوصلت ببعضنا إلى أن نصبت أقدامهم على سطح القمر في ضحى النهار، وأعلنت حــين وصلت هناك أنــه قد لا يكون ثمة حــدود في الكون ... قدرات هذه النفس البشرية مهما كانت العوائق ... كبيرة أو قوية. والناظر في تاريخ الإنسان يجد ... احدة لكل فرد منّا، وليس على ذلك برهان أقوى ... جميعاً حين نلج إلى عالم الأرض الفســيح، لكن ... لا يحتاج إلــى برهان هو أن النهاية مختلفة إلى حد بعيد في حياة بعضنا.

(*) مشرف تربوي في إدارة التربية والتعليم بمحافظة القنفذة.

لقد خرج رسول الله ﷺ إلى عالم يتعلق بالشجر، ويسجد للحجر، ويؤلّه التمر واللبن. فوقف على الصفا وأعلن الرحلة من هناك، وواجه بمفرده جيوش الباطل، وظل يناضل عن رسالته، ويجهد في تحقيق أهدافه، ولم يهتف به الموت حتى قلَب موازين التاريخ، وغيّر معالم القيم في حياة تلك المجتمعات التي خاض التجربة فيهم، وأعاد أولئك الأفراد من تيه الطريق إلى غاية الهداية. وفي ثنايا الطريق دميت عقباه، وكسرت رباعيته، وثُلم وجهه، ووُضع سلى الجزور على ظهره، وإنما تضعف الهمم حين لا تقوى على تجاوز الصعاب.

وظل كثير من الناجحين على الطريق نفسه، فتجاوزوا كل ما يمكن أن يحول بينهم وبين النجاح، وليس أوضح على ذلك من ابن الأثير؛ فقد كتب كتابه (جامع الأصول) وهو مقعد، ودوّن ابن القيم كتابه (زاد المعاد) وهو في طريق السفر، وهتفت بابن الجوزي حتى طالع عشرين ألف مجلد وهو لا يزال في أيام الطلب، واختار سفّ الكعك على مضغه لتفاوت ما بينهما، وهكذا يظل النجاح حليف من أقنع نفسه بحياة الناجحين واللحاق بهم. وشاهد التاريخ الحاضر كثير، خاصه حتى من لم يعرف طريق الإسلام بعد، ودوّنت سيرهم أروع التحديات؛ ومن هؤلاء (إبراهام لنكولن)؛ فقد صارع الحياة صراعاً غريباً، وناضل من أجل النجاح نضالاً عجيباً، وركل كل معوقات الفشل بقدميه حتى وصل إلى ما يريد، ناهيك عن أماني المؤمن ورغباته، وعزه الحقيقي وجاهه.

هذا الرجل أراد أن يشارك في صنع القرار على مستوى بلاده؛ فشارك في بدايته في مجال الأعمال، وأخفق وهو في الحادية والعشرين من عمره، ولكنه لم يلبث أن عادة مرة أخرى فقدّم نفسه للانتخابات التشريعية وهو في الثانية والعشرين من عمره وأخفق مرة ثانية، وعاد ثالثة مساهماً في مجال الأعمال وهو في الرابعة والعشرين من عمره ولم يكن التوفيق حليفه، وتعرّض كما يتعرّض من يريد المجد إلى هزات قوية في حياته؛ فأصيب بانهيار عصبي وهو في السابعة والعشرين من عمره. ولم يلبث أن قام مرة أخرى محاولاً في طريق أكبر من سابقه؛ فشارك في انتخابات الكونجرس وهو في الرابعة والثلاثين، فلم يبرح عن محاولاته السابقة، وقام من تلك الكبوة ليعيد المحاولة نفسها مرة أخرى وهو في السادسة والثلاثين من عمره فلم يتحقق له شيء. وفي الخامسة والأربعين شارك في انتخابات مجلس الشيوخ وكانت كسابقتها، وفي التاسعة والأربعين من عمره أعاد الكرّة في انتخابات مجلس الشيوخ وخسر كذلك. وأخيراً وبعد ثلاثين عاماً من التجربة والإخفاق؛ انتُخب رئيساً للولايات المتحدة وهو في الثانية والخمسين من عمره.

وهكذا يظل النجاح أمنية مستعصية في بدايتها، لكنها سرعان ما تلين لأصحاب الهمم وتذعن لهم من جديد. وخرج (أديسون) من مدرسته يعيّر بالفشل والغباء، فأكبَّ على التجربة بنفسه، وظل يعاصر الحياة بمفرده، وبعد ٩٩٩ محاولة فاشلة في موضوع الكهرباء أضاء الدنيا بأسرها، وكتب يقول عن العبقرية إنها (١٪) إلهام [ونحن نقول: إنها توفيق]، و (٩٩٪) عَرَق جبين.

مسلمٌ يا جبال لن تقهريني
صارمي قاطعٌ وعزمي حديد
لا أبالي ولو أقيمت بدربي
وطريقي حواجزٌ وسدود

يقول محمد أحمد الراشد: كن حمّالاً في السوق، لكن قرّر مع أول خطوة لك فيه أن تصير تاجراً أو عقارياً أو مدير شركة فستصل بإذن الله، المهم تصميمك. وقال في موضع آخر، وهو يتحدث عن زرع الأمل في النفس: وفي هذا المنعطف يجفل الراهب فيدعي عجزاً، ويقول: تريد مني أن أكون فقيهاً وليس جدي مالك ولا الشافعي؟ وتطلبون أن أتغنى بالشعر وما ولدني المتنبي ولا البحتري؟ وتتمنون أن ألوك الفلسفة وليس جاري سقراط؟ فمن أين يأتي لي الإبداع، وقد قال النبي ﷺ: «الناس كإبل مئة لا تكاد تجد فيها راحلة»؟ فنقول: نعم! نريد، ونطلب، ونتمنى، ونظن، ونجزم، ولا وجه لا ستضعافك نفسك، وقد أعطاك الله ذكاءً ونسباً، فلِم لا تتعلّم السهر وتطلب الفصاحة؟! هـ.

ورحم الله محمد إقبال حين قال: لقد هبّت عليّ نفحة من نسيم السحر في الصباح الباكر، وناجتني وقالت لي: إن الذي عرف نفسه وعرف قيمته ومركزه لا يليق به إلا عروش المجد. وقال في موضع آخر، وهو يناديك أنت من بين كل الناس: فيا رجل البادية، ويا سيد الصحراء، عُد إلى قوتك وعزتك، وامتلك ناصية الأيام، وخذ بعنان التاريخ، وقُد قافلة البشرية إلى الغاية العظمى.

إن تنمية الذات مفهوم غائب عن أوساط الكثير منا، وحين نحسن الحديث فيه أو الدندنة حوله يمكن لنا أن نجترّ كثيراً ممن لم يزل لم يحلم بعد. وهذه الأسطر نفثة في عالم ذواتنا الفسيح.

٢ - المعتقدات الإيجابية وأثرها في النجاح:

النجاح أمنية تلهث في قلوب أصحابها، وحادٍ يشدو بالأرواح إلى أمنياتها. النجاح كلمة ما أحببت مثلها شيئاً، ولا أجد كلمة في الدنيا تدير رقبتي إلى الخلف غيرها.

النجاح أمنية وشرف وزكاء على وجه الأرض، وهو فرح، وفوز، وانتصار في عرصات القيامة. النجاح تاريخ بعيد لكنه غير مستحيل، وأرض تبدو صلبة لكنها قابلة للحرث، وحياة حافلة بالمخاطر لكنها مليئة بالعواقب الحميدة. والله لأركبَنّ في سبيلها المخاطر مهما كانت، والله لئن طال بي الزمن لأعتنقن ركابها، وأخوض غمارها مهما كانت صعبة أو مخيفة.

كثيرون هم أولئك الذين ترنو أعينهم لهذه الأمنية، وكثيرون مع هذه المعاني يقعدون عنها مغلوبين مأسوفين، كم هم الذين قعدوا على مقاعد الحياة الطويلة يتمنون هذه الفرصة لكنهم لم يجدوها! فيا صُنَّاع المجد في أي موقع من مواقع الحياة، ويا أصحاب الهمم العالية، ويا أيها الذين تاقت أنفسهم لبلوغ المعالي، ويا أيها الجادون في زمن التواني، ويا كل باحث عن النجاح متطلع إليه: اعذرني فقد هتفتُ بك في عالم يحتاج إلى تضحيات، وحياة تهتف لها الأمم.

يا أيها الحبيب: النجاح مفهوم ينطلق تحقيقه من حديث النفس أولاً، ويظل يهيم بنفسك في عالم الأماني حتى يركب بها المستحيل في عالم الأرض. إن حياة الناجحين لا يوجد في قاموسها شيء اسمه الفشل، كلا.. وما رأيت في حياتي مشهداً أكثر حزناً من مشهد ذلك الإنسان المتشائم.

قم - يا أيها القاعد - واركل عراقيل الفشل بقدميك وامضِ قُدماً؛ فالأرض فاسحة وسيعة وإنما تضيق على أصحاب الهمم الدنيئة.

يا أيها القاعد: أصحاب الإرادة لا يعترفون في قاموسهم بالدُّون، وإنما يظلون يهتفون حتى يصلوا إلى سلّم المجد. لله در ذلك القائل حين قال: إذا لم تعتقد أنك تصنع عالمك بنجاحاته وإخفاقاته؛ فأنت واقع تحت رحمة الظروف. نعم! إذا لم تعش هذا الاعتقاد فأنت مجرد شيء لا أثر لك في واقعك، فقال الآخر: دعني أخبرك أنه لو توفّر لدي ذلك الاعتقاد، فسوف أرحل باحثاً عن ثقافة أخرى، عن عالم آخر، عن كوكب آخر؛ إذاً لماذا تبقى هنا إن كنت مجرد نتيجة لقوى عشوائية؟ وصدق: لماذا تبقى هناك..؟ لقد ثبت في الواقع بما لا يدعو للنقاش أنك إذا لم ترضَ إلا بالأفضل فسوف تحصل عليه. تُرى ما الفرق بين من يملكون ومن لا يملكون؟ ما الفرق بين من يستطيعون ومن لا يستطيعون؟ لماذا يتغلّب كثيرون على المحن الهائلة ويحولون حياتهم إلى انتصارات رغم ظروفهم وأحوالهم، وآخرون على الرغم من كل ما يملكون من مزايا هم ضحايا ظروف بسيطة وعادية؟

إن النجاح قبل أن يكون انتصاراً على النفس؛ هو قناعة سكنت القلب فأشعلت فيه المصابيح، يموت أناس وهم على أسِرَّتهم في أجواء العافية والسكينة والطمأنينة، ويموت آخرون وهم يكتبون تاريخ أمتهم بمداد من ذهب. هل تريد أن تكون ناجحاً؟ هل تريد أن تكون علَماً بارزاً؟ هل تريد أن تكتب تاريخك بخط يدك؟ إذاً تعالَ، هيا معي أعلّمك درساً لا تنساه:

إذا اعتقدت أنك ناجح، وجزمت بأنك قادر على تخطّي عراقيل المستحيل، وجعلت ذلك معتقَداً إيجابياً في حياتك، وظللت تنافح عن مبدئك.. دعني أقول لك حين تكون كذلك: لا تملك ظروفُ الزمان والمكان تغييرَ وجهتك مهما كانت، ولا يملك بشر مهما أعطاه الله من قوة أن يدير رقبتك إلى طريق آخر، ويسعدني حين أراك كذلك أن أبارك لك بدايتك في طريق النجاح، ولا يضيرك بعد ذلك من يعترض سيرك؛ فإنما هو هباء لا يملك مقاومة الرياح.

٣ - الأهداف.. السر الكبير في تحقيق النجاح:

النجاح أمنية ينتظرها كل إنسان على وجه هذه الأرض، غير أنها تتوقف على أسباب كثيرة، لعل من أهمها وأكثرها أثراً: الثقة بالنفس، بعد عون الله - تعالى - وتوفيقه وسداده. وفي الجزئين السابقين تحدثت عن هذا الموضوع، ودونت لك هناك أهمية هذا الجانب. وفي هذا الجزء أكتب عن الخطوة الثالثة في هذه السلسلة ، وأرسم لك - بإذن الله تعالى - معالم النجاح، وأضيء لك شمعة المجد، وأفتح لك طريقاً إلى المعالي، وأهيئ لك أرضاً خصبة للتفوق، وإذا كنت صادق العزم - بإذن الله - أضمن لك - إن شاء الله تعالى - فواتح الخير، وغايات المجد، وحياة الناجحين. فقط أشترط عليك أن تعيد قراءة الجزئين السابقين. وقبل أن تلج هذا الجزء الذي بين يديك؛ تفضّل بكسر حواجز الوهن والكسل التي يعيشها كثير من الناس، وحين تكون مستعداً للبدء حقيقة في مشروع النجاح الكبير الذي ينتظرك، تفضَّل مشكوراً بقراءة هذا الجزء، سائلاً الله لك التوفيق والنجاح:

إن أول خطوة بعد توثيق الصلة بالله - تعالى - وتوثيق الصلة بنفسك، أن تكتب لك أهدافاً في الحياة تسجّل بها تاريخك من جديد، وتكتب بها رسالتك في الحياة، وتُعظِم بها ذكرك في عالم الناجحين.

إن الهدف - كما يقرر الناجحون - أمنية يسعى الإنسان لتحقيقها على وجه الأرض، ويستشرف الأيام القادمة لكتابة تاريخ نفسه فيها من جديد. الهدف أمنية تستعر في قلب صاحبها فيدوِّنها بيده، ويكتبها على جدار غرفته، ويضعها

في سجلّه الشخصي، ثم يرحل يجوب الأرض لنيلها والحصول عليها، آه لحياة ضائعة بدون أهداف! آه لعمر طويل لا يستطيع أن يجدد تراثاً أو يكتب تاريخاً أو يسوّد صحائف أعمال صالحة! آه أيتها الحياة بسنينك الطوال! آه ممّن يرضى أن يحيا فيك حياة المجاهيل!

أما علمت - أيها الحبيب - أن الحياة بغير أهداف حياة لا تستحق أن يعاش لها أو يهنأ فيها؟ ألم تدرك بعدُ أن الأهداف ليست ضرورية لتحفيز الإنسان فحسب، لكنها شيء يبقيه حياً ماثلاً في أعين الأجيال، وعبر آثار التاريخ الطويل؟ فهيا - أيها الحبيب - نكتب حياتنا، ندوّن تاريخنا، نبيِّن عن آثارنا للأجيال القادمة!

أما أيقنت - أيها الحبيب - أن العالم بأسْره يفسح الطريق للشخص الذي يعرف اتجاهه، والذين لا يعرفون لحياتهم أهدافَها يتعثرون في ثنايا الطريق، ويسقطون على جنباته؟

أيها الحبيب: الأهداف هي المعنى الحقيقي في حياة الواحد منا، هي الأماني التي نحيا لها، فيا ليت شعري كيف يرضى الإنسان أن يعيش حياته بلا رسالة، وتمضي الأيام به قُدماً بلا أهداف؟! فقط دعني أقول لك: مع عظمة الأهداف وضرورتها في حياة المتطلّب للنجاح؛ لا بد أن تخضع لشروط وتتصف بمواصفات، وإلا كانت أماني فارغة تهتف بالنفس دون تحقيق غاياتها وأمنياتها. إنه لا بد أن تكون تلك الأهداف التي تختطها لحياتك أهدافاً تبعث على التحدي، وواضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، ومحددة بزمن يمكن الوصول إليه، ويمكن مع كل ذلك قياسها، وقبل ذلك وبعده لا بد أن تكون أهدافك صادرة عن إرادة واقتناع، ثم لا تنسى أن تدوِّنها على الورق. وكتابة الأهداف وتدوينها على الورق هو مكمن الفرق بين كثير من أصحاب البدايات الجادة وبين أصحاب الأماني المقعدين.

حين تدوّن أهدافك على دفترك وفي سجلك الخاص، وتحتفظ بجزء منها في محفظتك؛ فأنت حينئذٍ بدأت أول خطوة في الطريق، وستصل بإذن الله تعالى، فقط حاول أن تقطع جزءاً من الهدف كل يوم، ولا تسمح لنفسك مهما كانت الظروف التي تعترضها أن تتجاوز يوماً أو تؤجل إلى يوم آخر؛ فإن هذا هو البلاء الذي يبدأ يسيراً في عقل صاحبه ثم ما يلبث أن ينتشر ويصعب تلافيه أو علاجه. حاول أن تتقدّم خطوة؛ فالأعمال الكبيرة في أول بداياتها صغيرة بسيطة، وقد قال رسول الله ﷺ في وصية جامعة: «أدومه وإن قلّ». وأثبتت التجارب العملية الميدانية على كافة المستويات اليوم، أن العاملين بهذه الوصية هم أكثر الناس نجاحاً، وأقدرهم على الاستمرار.

ثم إياك إياك أن تلتفت لصيحة ناعق، أو حديث شامت، أو هذيان مخذّل! واعلم أن أعداء النجاح كثيرون؛ فحين يرونك بدأت في تجاوزهم سرعان ما يلبسون جلباب النصيحة يهوِّنون عليك سيْرَك، ويعرقلون خطوك، وتذكّر ما قاله ابن القيم - رحمه الله تعالى - حين ذكر هذا الصنف وأوصى السائر على الطريق بقوله: «وإذا صاحوا بك في طريق سيرك، فلا تلتفت إليهم؛ فإنك متى التفت أخذوك وأعاقوك». وضرب لذلك مثلاً رائعاً حين قال: «الظبي أشد سعياً من الكلب، ولكنه إذا أحس به التفت فيضعف سعيه؛ فيدركه الكلب ويأخذه» اهـ.

لا أود أن أفارقك حتى أعلمك بحقيقة تعترض كل ناجح خاض طريقك: لا بد أن تجد في ثنايا الطريق إخفاقات تتفاوت في آثارها، ولا بد كذلك أن تجد في نفسك بعضاً من الوهن والضعف والعجز في بعض الأحيان، وليس أنفع لعلاج ذلك كله من صدق التوكل والإقبال على الله تعالى، وكثرة النوافل؛ فإنها الشموع التي توقد ضِرام الأنفس لتحقيق غاياتها مهما كانت كبيرة أو طويلة المدى، ولا تنسَ انطراحك بين يدي الله - تعالى - داعياً متبتلاً خاشعاً منيباً؛ فإن مثل هذه الأحوال تتنزّل بها الكرامات من السماء. ومع ذلك كله لا تنسَ معينات الطريق من حضور الدورات التدريبية وخاصة ما يعنى بالتنمية الشخصية، ومثل ذلك كتب أهل الشأن في ذلك؛ فإنها من معينات الطريق. واعلم أن من لا يمشي لا يمكن أن يتعثّر، ومن لا يخوض غمار الحياة بجرأة لا يمكن أن يصل ألبتة. وإذا وُجِد التصميم والإصرار على تحقيق هذه الأهداف، لم تمت - بإذن الله تعالى - حتى تذوق بعض معانيها العظام.

وأخيراً: دعني أودعك، وأقول لك: تذكّر قول القائل: فراغ الأنفس من الأهداف العظيمة؛ طريق إلى فراغها من الأعمال الجميلة. واقرأ في (صيد الخاطر) لابن الجوزي؛ فقد قال: «ينبغي للعاقل أن يصل إلى غاية ما يمكنه؛ فلو كان يُتصوّر للآدمي صعود السموات لرأيت من النقائص بقاءه بالأرض، ولو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد لرأيت المقصّر في تحصيلها في حضيض» اهـ. وكن على يقين تام لا يقبل الشك: أن بإمكانك فعل شيء آخر لم تفعله إلى اليوم، وطاقتك لم تُستنفَد بعدُ في مطلوبك الحقيقي، وقد تكون بعد قراءة هذه الأسطر شيئاً كبيراً. كل ما أتمناه ألا تضيع هذه الفرصة التي تستعر في قلبك مرة أخرى.

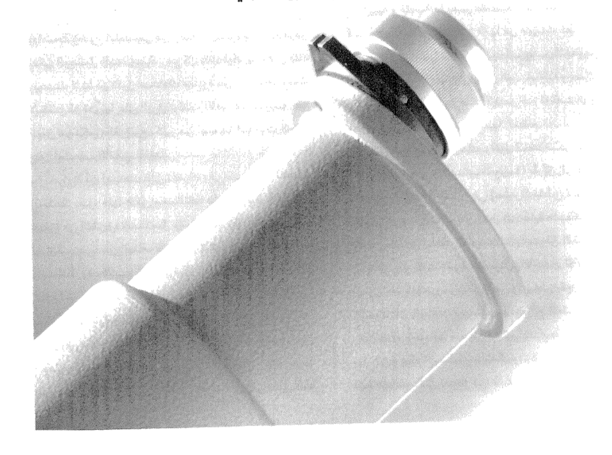
دعوة إلى التركيز

(١ - ٢)

د. عبد الكريم بكار

www.islamtoday.net/bakkar

من الواضح أن قدرات أدمغتنا على معالجة المعلومات والإحاطة بالمعارف هائلة بكل ما تعنيه الكلمة، لكنها في النهاية محدودة، كما هو شأن كل المخلوقات. ومن هنا نجد أن الإنسان لا يرتاح للتعامل مع المعلومات والمعطيات العائمة، ولا مع الكتل المعرفية الضخمة، ولهذا فإنه يسعى دائماً لتفريغ العلوم وتوزيعها على مساقات جديدة كلما زاد مخزونه المعرفي.



فـي زماننا تتضاعف المعارف - وسـطياً - كل عشـر سـنوات؛ وهذا يعني وجود حاجة مسـتمرة إلى المزيد من التخصـص، والتركيز في طلب العلم والتوجه البحثي. وهذه بعض الملاحظات السريعة في هذا الشأن:

١ - حـين نقرأ في تخصص مـن التخصصات العلمية نكـون في بداية أمرنا كمن يدخـل إلى غرفة مظلمة؛ حيث يأخذ بتحسُّـس الأشياء واكتشافها على سبيل التدرج، وكلما كانت الغرفة أكبر كانت معرفة ما بداخلها أشـق، واحتاجت إلى وقت أطول، وسـتكون عملية الاكتشـاف شبه مستحيلة إذا كانت تلك الغرفـة تفتح على دهاليز وممرات وفضاءات فسيحة، كما هو الشأن فيمن يريد فهم (التاريخ الإسلامي)؛ حيث إن عليه أن يتضلع من العلوم السياسـية والاجتماعية الاقتصادية وعلوم الإنسـان والبيئة وعلـوم أخرى.. ولهذا فلا بد من التركيز علـى بلد معيَّن في حقبة زمنية محددة، وإلا كانت أقواله وتحليلاته عمشاء وحولاء، وربما حجبت أقوالُـه وتحليلاته حقيـقةَ ما جرى في الماضي، أو شـوَّهته وحرَّفته!

٢ - التركيـز يعني رؤية تفصيلية مدققة في مسـاحة أو قضيـة صغيرة، والمرء حـين يتخصص في فرع من فروع المعرفة الدقيقة يطَّلع على شـيء محدود لكنه يراه بطريقة أفضـل. أما غير المتخصص فإنه يطَّلِـع على الكثير الكثير من المعارف لكنه لا يسـتطيع أن يراها بشكل واضح، ويجد نفسـه عاجـزاً عن نقد ما يراه أو تعليلـه أو الإضافة إليه. ولا يسـتطيع أحد أن ينجو من هذه المعادلة الصارمة والسُّنَّة الماضية؛ وذلك لأن الكَمَّ لا يكون إلا على حساب الكيف، كما أن الكيف لا يكون إلا على حساب الكم.

٣ - نحن لا نريد اليوم الإحاطة بالعلوم والسـيطرة عليها والاستكثار منـها لغـايـات ترفيهية، أو لدواعٍ مظهرية وشكلية - كما كانت عليه الحال في بعض مراحل تاريخنا -، وإنما نريد توظيف المعرفة في خدمة الناس وإرشادهم ومساعدتهم على الوفاء بمتطلبات العبودية لله - تعالى - وتحسـين أحوالهم المعيشية. وهذا يتطلب شيئاً مهماً، وهو (الإبداع) في اختيار الموضوعـات التي نتخصـص فيها، وفـي توظيف المعارف والمعطيات التي يتمخَّض عنها البحث العلمي الرشيد.

وإذا تأملنـا في كثير مـن البحوث العلمية والرسـائل الجامعية التي يشـتغل على إنجازها الألوف من الشـباب المسـلم، فإننا سنجد أن لدينا مشـكلة عويصة: فهذا باحث يقضي سـنوات من عمره في تحقيق كتاب تراثي لا يشـكل إخراجه أي إضافة لما هو منشـور في فنـه، وربما وجدتَ من يعمل على تحقيـق كتاب لم يهتمَّ به طلاب العلم وقت تأليفـه قبل أربعمئـة سـنة؛ بسـبب ضعفـه أو عدم الثقة بمؤلفه، وهذا باحث يشـتغل على مسألة ضيئلة وصغيرة وهامشـية للغاية، حتى يصح أن نقول فيه: «إنه يعرف كل شـيء عن لا شيء»! ويستشـعر في نهاية المطاف أنه ليس عنده ما يتحدث عنه، كما أنه لا يعرف كيف يتخذ منه وسيلة لتشكيل دوره الإصلاحي في الحياة العامة!

٤ - ليس التركيـز الذي نحتاج إليه عبارة عن حشـد كمٍّ هائل مـن المعلومات المتخصصة، فهذا على أهميته ليس هو المطلوب الأساسـي، إنما المطلوب هو توليد مجموعة من الملاحظات الذكية والبارعة التي تساعدنا على فهم الطبائع التـي فطر الخالق - عز وجل - الأشـياء عليها، إلى جانب فهم السنن النفسية والاجتماعية التي تحكم حركتنا في هذه الحياة.

إن الشريعة الغراء على مستوى العقيدة والأحكام والآداب، توفِّر لنا الدليل والنظام الـذي علينا اتِّباعه في التعامل مع الطبائع والسـنن. ومن المعروف أن هناك أفكاراً كثيرة جداً حول نوعية العلاقة التي تربط الثقافة بالطبيعة، وحول تأثير كل منهما في السلوك الإنساني. نحن نحتاج إلى من يرشدنا إلى كيفية تهذيب الطبيعة بالثقافة، وكيفية التعامل مع سُـنَّة من السـنن الكونية من أفق معرفتنا بسـنة أخرى، وهذا ما ألاحظ غيابه عن كثير من بحوثنا وطروحاتنا؛ والسـبب هو عدم وجود قدْر كافٍ من الاهتمام برؤية الأشياء على ما هي عليه بعيداً عن الخلفيات الثقافية الموروثة.

٥ - إذا أردنـا أن نسـتفيد من التركيـز في التحصيل العلمي وفي البحث والتطوير، فإننا نحتاج إلى شـيء مهم؛ هو محاولة فهْم النشأة الأولى للظواهر التي نتخصص فيها، ومعرفـة الأطوار والمراحل التاريخيـة التي مرت بها. ونحن جميعاً نعرف أننا لا نسـتطيع فهم أي شيء على نحو حسن إلا إذا فهمنـا تاريخه. ويؤسـفني القـول: إن قلة ما نعرفه عن تاريخ التخصصـات العلمية والظواهر الاجتماعية التي نحاول استيعابها، هي أكبر نقطة ضعف في مناهجنا وكتبنا وبحوثنـا؛ هذا مع أن نحواً من ثلـث القرآن الكريم يتحدث عن أخبار السـابقين والمراحل التاريخية التي سبقتنا! والله المستعان.

للحديث صلة.



مؤتمرات

مؤتمر (رحمة للعالمين)

تقرير: مجلة البيان

حملات مسعورة وهجمات مستفزة؛ تتجه بين كل حين وآخر للنيل من رسول الله محمد ﷺ ودين الله - تعالى - الذي أرسل به محمداً ﷺ ليدعو ويبشر به العالمين.

فمنذ بدايات التاريخ وحين كان كفار قريش يستهزئون برسول الله ﷺ، مروراً بأحداث تاريخية طويلة، إلى أن وصلنا لزماننا هذا الذي توالت فيه حملات الاستهزاء والسخرية برسول البشرية محمد ﷺ، والتي لا تعدُّ ولا تحصى. بل صارت هذه السخرية تُحمى بقوانين الدول، ويحق لكل أحد أن يتهكَّم بمحمد ﷺ بدعوى حريَّة التعبير والرأي، ولا عجب إذاً أن نجد الإساءات تتوالى من الدنمارك إلى النرويج إلى السويد إلى هولندا، وغيرها.

منذ ذلك الوقت وهذه المحاولات تتكرَّر وتزداد؛ حنقاً وغيظاً على هذا الدين العظيم، وجهلاً به وبحقائقه الناصعة، وتجاهلاً للمليار ونصف مسلم يدبُّون على ظهر البسيطة، وغيظاً من أهل الكفر والعدوان حين يرون هذه الأمَّة الولود تتزايد ويتكاثر الداخلون في دينها بإعلان إسلامهم لله ودينونتهم بدين الله الذي بُعث به النبي الخاتم محمد ﷺ بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

وحيث إنَّ الأمة المسلمة ترصد وتراقب ما يجري من تحركات آثمة، وأفعال هوجاء مغرقة في الجهالة والظلاميَّة من أهل الكفر والضلال؛ استهتاراً برسول الإسلام ﷺ ودين الإسلام ومبادئه وثوابته؛ فلقد أقامت مجلَّة البيان مؤتمراً بالتعاون مع جامعة الخرطوم، وجمعية القرآن الكريم، وإذاعة طيبة، وقناة طيبة، ومجلة النصرة، برعاية رئاسة الجمهورية السودانية؛ حيث كان المؤتمر عالمياً، وقد دُعِيَ له علماء ودعاة ومفكرون من عشرين دولة إسلامية

كان المؤتمر بعنوان (رحمة للعالمين ﷺ) تحت شعار: (حتى تكون النصرة نهج حياة)، واستمر حتى يوم ١١/٥/ ١٤٢٨هـ - الموافق ١٥ نوفمبر ٢٠٠٧م.

وممَّن شرَّف المؤتمر بحضوره ومحاضراته جمع من

علماء العالم الإسلامي؛ كأمثال الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق، والشيخ الدكتور ناصر العمر، والشيخ الدكتور همام سعيد، والشيخ الدكتور عبد الحي يوسف، والشيخ محمد الحسن الددو، والشيخ الدكتور محمد العريفي، والشيخ الدكتور عبد الرحمن المحمود، والشيخ محمد حسين يعقوب، والدكتور راغب السرجاني، والدكتور باسم خفاجي، وجمع كبير من أهل العلم والفكر والدعوة والثقافة في مختلف البلدان.

ولقد أعلن القائمون على المؤتمر عدَّة أهداف دعا لها، ومن أهمها:

١) تأكيد وجوب إجلال ثوابت الشريعة وتعظيم حرماتها.

٢) بيان أسباب التطاول على النبي ﷺ وخلفياته ودواعيه.

٣) استثمار ردود الأفعال الصادرة عن حوادث الإساءة في سبيل إحياء الاتِّباع للنبي ﷺ.

٤) الإشادة بالجهود المبذولة في النُّصرة، وتحليل نتائجها وآثارها على الأقليات الإسلامية.

٥) ترسيخ ثقافة العمل الدعوي المنهجي المستمر، بدلاً من أسلوب ردود الأفعال العشوائية.

• فعاليات المؤتمر:

ابتدأ المؤتمر يومه الأول بالحديث عن منزلة النبي ﷺ في دين الإسلام، وعن التطاول المعاصر على النبي ﷺ مظاهره وبواعثه.

وفي اليوم الثاني، تحدث المحاضرون عن ظاهرة التطاول: بين حرية التعبير وإجلال الشريعة، وعن جملة كبيرة بالتعريف بمشاريع الدفاع عن النبي ﷺ، واختُتمت فعاليات هذا اليوم بالحديث عن دفاع الأمة عن النبي ﷺ قراءةً تحليلية.

وفي اليوم الثالث والأخير تحدَّث المحاضرون عن ردود الأفعال الإسلامية على الأقليات المسلمة وآثارها، ومن ثمَّ الحديث عن الدفاع عن النبي ﷺ: من ردات الفعل إلى النهج العلمي المستمر.

واختتمت جلسة اليوم الثالث بذكر جملة من التوصيات التي قدَّمتها الأمانة العامة للمؤتمر وألقتها أمام حشد كبير من الجمهور الحاضرين في القاعة.

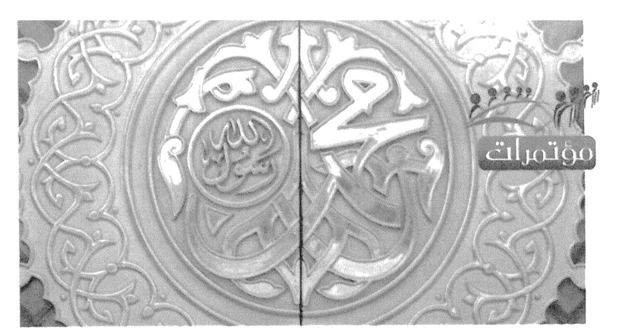
وبحمد الله وتوفيقه؛ عقد على هامش المؤتمر عدد كبير جداً من المحاضرات والدروس العلمية والدورات التدريبية وورش العمل وحلقات النقاش.

وقد صدر البيان الختامي متضمناً التوصيات التي خلص إليها المؤتمرون بعد مشاورات ومداولات، كان من أهمها: التأكيد على ضرورة تعظيم منزلة النبي ﷺ في نفوس المسلمين، ثم العناية بالميراث النبوي من السنة؛ جمعاً وتحقيقاً وحفظاً وتفقهاً. ودعا المؤتمر في هذا الجانب إلى إقرار حصص دراسية للتعريف بالنبي ﷺ، بالإضافة إلى التخصص في الدفاع عن النبي ﷺ، كما دعا المؤتمر إلى التحليل الفكري لظاهرة الطعن في النبي ﷺ، وتفعيل دور لجان الدفاع عن النبي ﷺ. وأكد المؤتمر على دور العلماء وطلبة العلم والدعاة إلى الله تعالى.

وفيما يتعلق بالغرب دعا المؤتمر إلى تطوير الخطاب الدعوي الموجَّه إلى الغرب على مستوياته المختلفة، وركّز المؤتمر على العناية بالترجمة، ومواصلة لقاءات النصرة ونشرها على كافة المستويات.

كما دعا المؤتمر إلى عقد لقاءات متخصصة في كل مجال يمكن به دفع مسيرة النصرة، وأشاد المؤتمرون بموقف الأمة في نصرة النبي ﷺ على مختلف الأصعدة والمستويات، ثم الالتجاء إلى الله - تعالى - وهو ما تحتاجه الأمة وواجب كل فرد منها في كل وقت.

وتفاعلاً مع قراء مجلة البيان ولنقلهم إلى شيء من أجواء مؤتمر رحمة للعالمين؛ نقدم بحثين مهمين قُدِّما للمؤتمر، لعل الله - عز وجل - أن ينفع بهما الكاتب والقارئ، والله مولانا وهو حسبنا ونعم الوكيل.



التطاول المعاصر على النبي صلى الله عليه وسلم: مظاهره وبواعثه

أ. د. ناصر بن سليمان العمر(*)

• مدخل:

إن من سنة الله - تعالى - التدافع بين الخير والشر وأهل الإيمان والكفر، ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠].

فالله - تعالى - يدفع شر الكفار والفجار بالحق وأهله، ويكون ذلك ببذل الأسباب الحسية والمعنوية؛ كإعداد القوة، ورباط الخيل، وكالدعاء وأعمال البر، وغير ذلك مما يدفع البلاء.

وهذا التدافع بين الحق والباطل قَدَرٌ كوني لازم، ليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، وليمحص الذين آمنوا ويصطفي منهم من شاء، وليهلك من هلك عن بينة.

ولما كانت الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - رأس دعاة البشرية إلى الحق والخير، لم يكن بد من معارضة أهل الباطل وأذاهم لهم، ولهذا كان أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل.

ففي صحيح ابن حبان والحاكم عن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - أنه قال: يا رسول الله! من أشد الناس بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى العبد على حسب دينه»(1).

والبلاء النازل بالناس أنواع، من جملته البلاء الذي يصيب أهل الحق من أهل الباطل، وقد نال الأنبياء من ذلك البلاء الوافر، وقد أخبر الله - تعالى - في القرآن عن قتل الأنبياء ولا سيما من قبل أعداء الله من بني إسرائيل. قال الله - تعالى -: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء: ١٥٥]. وهذا الإنسان إذا بلغ به الكبر وتجاوز القدر حداً يخرج معه إلى إيذاء الله بقوله: كيف يعجب من إيذائه رسله وأولياءه؟ وتأمل الجرأة واعجب من قول عبيد الله الذين خلقهم ودبّر أمرهم ورزقهم من الطيبات، وأنزل عليهم من بركات الأرض والسماء: ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [آل عمران: ١٨١]، فهل من دواعي العَجَب بعد ذلك أذى أمثالهم للأنبياء؟ قال الله - تعالى -: ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [آل عمران: ١٨١]، فلا عجب والله في أن يصدر من أمثال هؤلاء أذى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢ - ١١٣].

لكن العجب أن لا ينتصر أهل الحق لرُسُل الله، والله - تعالى - يقول: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾.

[الحديد: ٢٥]

(*) المشرف على موقع المسلم على الشبكة العالمية: www.almoslim.net.

(1) صحيح ابن حبان (٢٩٠٠)، (٢٩٢١)، والحاكم (١٢١)، (٥٤٦٣).

فيـا عبد الله، أيـن رائحة الإيمان منـك وأنت لا يتغير وجهك من مسِّ رسـولك ﷺ ولا يتمعـر؟ تلك والله غاية برد القلب وسـكون النفس، وما كان ذلك في قلب قط فيه شيء مـن إيمان، وذلك والله هو الخذلان: ﴿ وَلَيَنصُـرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠]، ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسـًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٨] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ⟨٧⟩ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾. [محمد: ٧ - ٨]

فنسأل الله أن يثبت أقدامنا وأن ينصرنا بنصْرنا رسله.

• مظاهر التطاول القديم:

ذكـر في المدخل أن العداء قديم بـدأه إبليس، فقال الله - تعالى -: ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ [طه: ١١٧]، ثـم تتـابع الأبـالسـة عليه وتواصوا به، ونجـمَ عنـه التطـاول والأذى بأنواعه علـى عباد الله الصـالحين؛ ابتـداءً من الغـمـز واللـمز والتعـريض بالكلام، وانتـهـاءً بالقـتل، وكل ذلك نال أنبيـاء الله، فأصابتـهم من العـدا الآفـات والآلام، ولحقـهم منهـم الغضب والضجر، ونالهـم بسببهم الإعياء والتعب، وقـد أصاب نبيَّنَا مـن ذلك ما أصابه، قالوا: سـاحر، كاهـن، مجنـون، صابئ، وألقوا سـلى الجزور على عاتقه، وشجه الكفار وكسـروا رباعيته، وسقي السم وسُحِر، ثم قضى نحبه فتوفي ﷺ ولحق بالرفيق الأعلى، فتخلص شـهيداً مـن دار الامتحـان والبلوى. ففي صحيح البخاري قالت عائشـة - رضي اللـه عنـها -: كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أَبْهَرِي من ذلك السم»[1].

قال القاضي عياض: «وأصاب غيـره من الأنبياء ما هو أعظم منه؛ فقتلوا قتلاً، ورموا في النار، ووشـروا بالمياشير، ومنهم من وقاه الله ذلك في بعض الأوقات، ومنهم من عصمه كما عُصِم بَعْدُ نبيُّنَا من الناس. فلئن لم يَكْفِ نبيَّنَا ربُّه يد ابن قَمِيئَـةَ يوم أُحد، ولا حجبه عـن عيون عداه عند دعوته أهل الطائف؛ فلقد أخـذ على عيون قريش عند خروجه إلى ثور، وأمسك عنه سيف غَوْرَث، وحَجر أبي جهل، وفرس سُراقة..، وهكذا سـائر أنبيائه مبتلى ومعافـى، وذلك من تمام حكمته سبحانه؛ ليظهر شرَفهم في هذه المقامات، ويبيِّن أمرهم، ويتم كلمته فيهم، وليحقق بامتحانهم بشَرِيَّتهم، ويرتفع الالتباس عن أهل الضعف فيهم؛ لئـلا يضلوا بما يظهر من العجائب على أيديهم ضُلال النصارى بعيسى ابن مريم، وليكون في محَنِهم تسـلية لأممهم، وفور لأجورهم عند ربهـم، تماماً على الذي أحسن إليهم»[2].

وهـذا يبين طرفاً مـن العداء القـديم وحكمته، وبعض ضروب تطاول الأقزام على الغُـرِّ الجَحَاجِحة العظام، ﴿ وَمَا نَقَمُـوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّـهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج: ٨]، وهذا التقرير جواب السـؤال المأمور بطرحه في المائدة: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَـابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّـا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِـقُونَ ﴾ [المائدة: ٥٩]، وقديماً قال سحرة فرعون لفرعون: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، فالسنة التي ركبها هؤلاء الذين نبغوا في دبر الزمان قديمة.

• التطاول المعاصر:

وأما المعاصرون فقد جروا على سَنَن أسلافهم السابقين، مـن أئمة الكفر الملاعـين: ﴿ أَتَوَاصَوْا بِـهِ بَلْ هُمْ قَـوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات: ٥٣].

غير أن هؤلاء فاتهم النيل من نبينا ﷺ في ذاته وشخصه، لكن نفوسـهم الخبيثة أبت إلاَّ تسـخير ما أنتجه العصر في التطاول عليه وسبه، فأحدثوا وسائل وأساليب جديدة للطعن لم يعرفها الشـيطان ولم يُمْلِها على من سبقهم، فجمعوا بها - كما جمع أسـلافهم - بين نوعي التطاول والأذى: بالقول، وبالفعل.

أمـا التطاول بالقول فهو واحد، تتفنن العبارات، وتختلف اللغات، والمضمون هو المضمون.

وأما التطاول بالفعل فربما وقع من الأولين شيء منه فآذاه حسـاً، كما في وَضْع سلى الجزور، وكذا الشوك والقاذورات، وكما في الحرب والجرح والشج والسَّمِّ، ونحو ذلك من أصناف الأذى الحسي الذي لحق ذاته الشريفة ﷺ.

وقد فات هذا ونحوُه هؤلاء المتأخرين بموته ﷺ ولحوقه بالرفيق الأعلى، وتخلُّصه من دار الامتحان والبلوى، غير أنهم أبوا إلاَّ أن يضربوا في عار الفعل بسـهم، فسخَّروا أقلامهم للطعـن والتطاول بالرسـم ونحوه مما لم يكـن معروفاً عند أسلافهم.

والتطاول المعاصر كالتطاول القديم:

- إمـا أن يصدر مـن كفار أصليين، كاليهـود والنصارى الحاقديـن، كما حصل من ابن الأشـرف اليهودي، وكما حصل مـن فئام من المشـركين، ويحصـل اليوم من يهـود ونصارى

(١) صحيح البخاري (٤١٦٥).

(٢) الشفا ٢/١٥٨.

حاقدين: بعضهم قساوسة، وبعضهم ساسة متدينون، وبعضهم علمانيون.

- وإما أن يصدر من مرتدين؛ كما حصل قديماً من ابن خطل، وابن أبي السرح قبل فيْأته رضي الله عنه، ويصدر اليوم من أمثال الصومالية المرتدة أيان حرصي، ومؤسس جمعية المرتدين الإيراني إحسان جامع الذي يصف النبي ﷺ بأنه شخصية مرعبة، ومثل هؤلاء طوائف من العلمانيين والشيوعيين الذين ما فتئوا يطعنون تصريحاً أو تلميحاً، وكلما أمن أحدهم العقوبة تمادى في إساءة الأدب.

مظاهر القسم الأول: التطاول بالقول:

والحوادث كثيرة، ولكني أكتفي بنماذج لها مراميها، فأشير على الصعيد الإعلامي إلى نماذج محدودة، وعلى الصعيد الديني إلى نماذج لشخصيات مشهورة مقربة من بعض ساسة الغرب:

■ فأما الصعيد الأول: فمنه ما اشتهر في بعض المواقع وما نشرته صحيفة هيوستن برس الأمريكية الأسبوعية في ولاية تكساس، من إعلان لدار عرض أمريكية تعرض فيلماً إباحياً بعنوان: «الحياة الجنسية للنبي محمد».

ورغم الاحتجاجات التي تلقتها دار السينما من مسلمي ولاية تكساس، إلا أنها رفضت إيقاف عرض الفيلم، واستعانت بالشرطة لصد المتظاهرين.

ومع ذلك لم يتم اتخاذ أي إجراء لمنع عرض الفيلم من قبل المسؤولين.

- ومن الحوادث القديمة نسبياً والتي تذكر في هذا الصدد: حادثة الهجوم على المقر الرئيس لمنظمة «بني بريث»(1)، ومبنيين رئيسيين في واشنطن العاصمة عام ١٩٧٧م؛ طلبت فيه مجموعة إسلامية إلغاء الفيلم السينمائي «محمد رسول الله»، ودَفْع مبلغ ٧٥٠ دولاراً كغرامة، وتسليم الرجال الذين قتلوا «مالكوم إكس»(2) الداعية المعرف باسم: الحاج مالك شباز.

والغرض من هذا بيان أن الحملة على نبينا ﷺ قديمة في الغرب وقد كانت لها آثارها إذ ذاك، ولكنها تنشط حيناً وتضمحل حيناً آخر.

- ومن هذا القبيل نشاط عدد من الإعلاميين الغربيين قديماً وحديثاً ودأبهم على تشويه صورة الإسلام والمسلمين عن سبق إصرار وترصُّد؛ بدعوى حرب الراديكالية(3):

وهذا ليس بالأمر الجديد؛ ففي عام ١٩٨٥ خصص الإعلامي الفرنسي المخضرم (برنار بيفو) في برنامج ثقافي كان ذائع الصيت يدعى «أبوستروف» أو (فاصلة) بالعربية، حلقةً خاصةً عن «القرآن والعنف»، دعا إليها محمد أركون، وعلال سي ناصر، وجيل كيبل وآخرين. رغم هذا العنوان القاطع للحلقة الذي يربط دون تردد بين القرآن والعنف، نجد أن هذا الصحافي يعترف منذ البداية وهو يقدم للموضوع بأنه لم «يقرأ» القرآن! إلا أنه في ما يبدو كان قادراً على استخلاص الحُكم بأن القرآن يدعو للعنف حتى بدون قراءته!

واليوم تجد بعض الكتاب قد سلك تلك السبيل، ومن أمثلتهم الصحفيون الدنماركيون والسويديون.

- ومن المرتدين الذين اقتحموا مجال العمل الإعلامي أيان حرصي؛ التي قالت: «النبي محمد بالقياس بالمعايير الغربية؛ هو شخص منحرف ومستبد»، واستشهدت بأنه تزوج من طفلة عمرها تسع سنوات. وقد رُفعت مجموعة من تهم التمييز من قبل عدة منظمات إسلامية ومسلمين بشكل فردي ضدها، إلا أنها لم تصل أبداً إلى المحاكم؛ لقناعة المدعي العام بأن: «آراءها لا تؤثر على وضع المجتمع المسلم في هولندا، وأن تصريحاتها لا تحتوي أي استنتاجات تتعلق بمسلمي هولندا، وأن حقوقهم كمجموعة وكأقلية لم تنكر». وطبعت كتابها (قفص العذارى) والذي أكدت فيه نيتها إنتاج فيلم على شاكلة فيلم حياة براين، سيتناول حياة النبي محمد المليئة بالألوان على حد وصفها؛ حيث أكدت على أنه سيقوم شخص بتمثيل دور النبي محمد [ﷺ]، وستذكر فيه الجوانب التي تفترض أن باقي المسلمين لا يودون أن تظهر للعلن عن النبي محمد [ﷺ]. واستشهدت بما قالت أنه حب النبي محمد [ﷺ] لزوجة ابنه، وكيف أنه غاب في غار وعاد ومعه الحل السحري لزواجه منها. وفي ٢٣ نوفمبر ٢٠٠٥م وفي مقابلة مع صحيفة (صابفو) الدنماركية على خلفية قضية الصور الكاريكاتورية؛ ناقشت ما أسمته مشكلة اعتبار القرآن مقدساً عند المسلمين بغض النظر عن تمسكهم بالدين فقالت: «التقيت مؤخراً بعض الصحفيين العرب وأخرجت قرآناً من حقيبتي وألقيته على الأرض، فقامت فتاة تركية غير محجبة وكانت تبدو علمانية،

(١) منظمة صهيونة ترمى بالماسونية.

(٢) مسلم أمريكي كان في مبدأ أمره مقدَّماً في حركة أمة الإسلام، يدين بعقيدة الإليجا، وهي طائفة باطنية عنصرية مشبوهة، يرى بعض المحللين أنها مدعومة بغرض هدم الإسلام باسم الإسلام، ولاسيما بين الزنوج، ثم يسّر الله لمالك الحج ولقاء العلماء بالجزيرة ومصر والسودان، فرجع وأنشأ جماعة أسماها «جماعة أهل السنة» وشرع في الدعوة إلى دين الحق بصورته الصحيحة، وظل على هذه الحال يُسلِم على يديه الفئام ويرجع إلى الدين الحق مَنْ خُدِع بالأفكار الباطنية، حتى كان يوم ١٨ شوال سنة ١٣٨١ هـ عندما دُعي مالك شباز لإلقاء محاضرة بجامعة نيويورك، وعندما صعد المنصة وأخذ يدعو للإسلام أُحدِثت مشاجرة مفتعلة في وسط القاعة، فالتفت إليها الحاضرون، وفي غفلة من الناس؛ انطلقت ثماني عشرة رصاصة غادرة من ثلاثة رجال بالصف الأول لتستقر في جسد هذا الداعية.

(٣) ولا شك أن هذه إساءة لمن دعا إلى الإسلام والقرآن وبلَّغهما وقام بهما خير قيام ﷺ، وإن كان غيرها أصرح.

وقالت لي: أطالب بأن تلتقطـــي القرآن وتعيديه إلى حقيبتك! أجبتها بأن هذه نسختي وبأنني أفعل بها ما أريد. والذي يحدث الآن بأنك لا تستطيع إعادة تفسير محتوى القرآن لأن كل شيء حوله (الغلاف، الرسائل، الحبر) مقدس».

وقد أســهمت مع المخرج الهولندي (ثيــو فان جوخ) في إصدار أحد أشــهر الأفلام الملبســة المســيئة للإسلام وكان عنوانه (الخضوع)، وكانت نتيجة إصدار الفيلم اغتيال مخرجه من شــاب مسلم مغربي نَذَرَ نفسه لهذا الشأن، نسأل الله أن يثبته ويفرج عنه[1].

■ وأمــا الصعيد الثاني وهو المتمثــل في بعض القيادات الدينية، فالمتأمل يجد أن إساءات عظيمة لنبينا ﷺ بدرت من أشخاص لا يقال: ليست لديهم معرفة بالأديان، بل لهم خبرة بالأديان، بل إن الإســـاءة إلى رسول الله ﷺ جاءت من رجال الدين النصارى أنفســـهم، بل من رؤوسهم ومرجعياتهم، سواءً كانوا كاثوليك أو بروتستانت.

أما الكاثوليك فحســـبُنا كلمة رئيسهم القريبة التي رفض أن يعتذر عنها، بل أَســـف لســـوء فهم المسلمين، ولـما سببته كلماته من مردود غير حميد تجاه بعض النصارى!

وإذا كان مقدَّم النصارى ورئيســـهم لا يتورع عن أن ينقل في جمع رسمي معدٍّ له ومهيأ ما قاله إمبراطور بيزنطي يقدح فيه في رسول البشرية؛ فكيف يتورع من هم دونه ممن هم أقل مسؤولية، وكلماتهم أقل اعتباراً وأثراً؟

هــذا مع أن لهــذا (البنديكت) كلمــات أخرى تعرَّض فيها للإســـلام، ومن العجب أن بعضهم يزعم بأن الرجل ناقــل، وكأن هــذا يـرفع عنـه الجـرم! قـال القاضي عياض - رحمه اللــه -: «إن اتُّهم هـذا الحاكــي فيما حكاه أنـه اختلقـه ونسبه إلى غيـره، أو كـانت تـلك عـادة له، أو ظـهر استحســـانه لذلك، أو كان مولعاً بمثله والاســـتخفاف له، أو التحفظ لمثله وطلبه، ورواية أشــعار هجوه ﷺ وسبه؛ فحكم هذا حكم الساب نفســـه، يؤاخذ بقوله ولا تنفعه نسبته إلى غيــره؛ فيبادر بقتله، ويعجل إلـــى الهاوية أمه»[2]. ولهذا أمر النبي ﷺ بقـتل الجاريتين اللتين كانتا تتغنيان بهجاء ابن خطل له، مع أنهما لم تنشــئا شــعراً، وإنما رددتا وقالتا ما أنشأه غيرهما على وجه فيه إقرار واستحسان.

وأما البروتســـتانت، فقبل أربع ســنوات تقريباً في عام ١٤٢٣هـ، نشــطت حملة قساوسة في أمريكا غرضها الطعن في نبينا ﷺ وتشويه صورته:

- فعُرِف منهم (جيري فالويــل Jerry Falwell)[3] الهالك في ربيع الآخر من هذا العــام، وهو صاحب كتاب: (فلنتقدم إلى معـركة هـر مجدون)[4]، وضع في أوله - عليه من الله ما يستحق - سيرة زائفة لنبينا ﷺ.

ويجــدر هنا قبل نقــل كلمة ذائعة لــه أن يُعلم أن حزب بوش في ١٦/أكتوبر/٢٠٠٢م قام بتكريم كل من القسيســين (بات روبتسون) و (جيري فالويل)؛ لمساهمتهما في دعم التيار اليميني المحافظ والحزب الجمهوري.

فمما قاله هذا الهالك: «في رأيي أرســى المســيح مثالاً للحب، وموســى فعل الشيء نفســه؛ لكنَّ محمداً ضرب المثل المناقض لهما». وقال - عليه من الله ما يستحق - في حديث له بُثَّ يوم الأحد بتاريــخ ٦/أكتوبر/٢٠٠٢م على برنامج «٦٠ دقيقة»: «أنــا أعتقد أن محمداً كان إرهابيــاً، لقد قرأت ما يكفي من المســلمين وغير المسلمين أنه كان رجل عنف، ورجل حروب». وهذا يشعرك بمعنى الإرهاب الذي يحاربون! ونحن لا ندري ماذا قرأ للمســلمين؟ هل قرأ ﴿وما أرسـ لناك إلاَّ رحمةً للعالمين﴾[الأنبياء: ١٠٧]؟

والعجيب أن هذا القســيس الذي يصف الرحمة المهداة بما يصفـه؛ به يُعـــدُّ من أقوى أنصـار الدولـة الصهيـونـية في اليمين الأمريكي! حتى قال: «إن معنا ٧٠ مليون شـــخص، ولا شيء يمكن أن يصب غضب الجمهور المسيحي على رأس هذه الحكومة أكثر من التخلي عن (إســـرائيل) أو معارضتها في مســـألة حيوية». وفي ١٤ أبريل/نيســان ١٩٩٨ نشــرت جريدة «يو إس إيــه توداي» الأمريكية مقــالاً لفالويل ينتقد فيــه إدارة الرئيس الديمقراطي بيل كلينتون لما اعتبره فالويل ضغطاً تمارســـه إدارة كلينتون على (إسرائيل) للقبول بخطة الســـلام الأمركية، وقال في مقالته تلــك: إن ضغط أمريكا على إســـرائيل «يجب أن يُقلِق كل مــن يأخذون على محمل

١) هذه المعلومات موجودة بترجمتها في موسوعة (الوكيبيديا) العالمية على شبكة الإنترنت.

٢) الشفا ٢/٢٠٩

(٣) قسيس إنجيلي معروف، قطن منطقة لينشبرج بولاية فرجينيا، كان له برنامج اسبوعي إذاعي وتلفزيوني يصل لأكثر من مليون منزل، وله جامعة أصولية تسمى جامعة الحرية، عُرف بسبه وشتمه لنبينا محمد ﷺ. ويجدر بالذكر أن الصهاينة أهدوه طائرة خاصة من نوع ويندستريم ثمنها (٢,٥ - ٣,٥) مليون مع قطع غيار بقيمة نصف مليون دولار. وهو يباهي بأنه يقطع بطائرته النفاثة ١ آلاف ميل في الأسبوع للدّعاية الانتخابية لمرشحيه. وظهر فولويل كأول سياسي أمريكي مرموق يقول: على أمريكا دعم (إسرائيل) ليس من أجل مصلحة (إسرائيل) فقط، ولكن من أجل المحافظة على أمريكا نفسها. ومع اقتراب انتخابات ٩٨٠ زاد بروز (فالويل) وسلطت الصحافة أضواء على منظمته المعروفة باسم الأكثرية الوطنية، وقرر ريغان مكافأته فمنحه ميدالية تحمل اسم: (فلاديمير زيف جابوتنسكي) الأيديولوجي الصهيوني اليميني أستاذ (بيغن). وقد قالت قريس هالسل: «لفالويل وبيغن نفس الأهداف: إنهما يعشقان القوة ويبرران العنف من أجل تحقيقها».

(٤) وهي معركة نهاية التاريخ التي يرى البروتستانت حتميتها مع المسلمين عند سفح هرمجدون، وقد نشر هذا الكتاب في موقعه على الإنترنت: www.falwell.com.

الجد وَعْدَ إبراهيم بخصوص أرض (إســرائيل)»، وذلك في إشارة إلى إيمان الإنجيليكانيين بأن الله وعد إبراهيم - عليه السلام - بأن يعيد أرض (إسرائيل) لليهود.

فانظر كيف يمجد وينصر قتلة الشيوخ، ومغتصبي الأرض، ومهلكي الحرث والنسل، ثم يطعن في الرحمة المهداة والنعمة المسداة ﷺ؟

إن كلمة هذا الكافر شــر من كلمة ســلفه الغوي المبين: ﴿ فلمَّا أن أراد أن يبطش بالذي هُو عدوٌّ لَّهُما قال يا مُوسى أتريدُ أن تقتُلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريدُ إلاَّ أن تكُونَ جبَّارا في الأرْض وما تُريدُ أن تكون من المُصْلحين ﴾ [القصص: ١٩]، فتلك حادثة عين قبــل النبوة لها حظها من الخطأ، وأمــا هذه فمن نحو كلمة فرعون: ﴿ ذرُوني أقتُل مُوسى وليدْعُ ربهُ إنِّي أخافُ أن يُبدل دينكُمْ أو أن يُظْهر في الأرض الفســاد ﴾ [غافر: ٢٦]، إنها كلمة قوم السوء الفاسقين: ﴿ أتذرُ مُوسى وقومهُ ليُفسدُوا في الأرض ويذرك وآلهتك ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، وهي الكلمة التي قيلت عن يسوع في التلمود: «لقد ضلل يسوع، وأفسد إسرائيل وهدمها».

- ومثـال آخر لرجـال دينـهم: القس (بـات روبرتســون Pat Robertson)[1]، أحد مؤيدي بوش، وقد كان له أثره الكبير في فوز بوش برئاســة الحزب الجمهــوري في مارس ٢٠٠٠، فقد كان يقــود الائتلاف اليميني النصرانــي المؤيد له، وقد كشــف عن هذا منافــس بوش (جون ماكــين). كما أن بوش يدعمه دعماً كبيراً[2]، وقد أشير إلى تكريم الحزب الجمهوري له مع (جيري)، وقد تصدر (نشــيد المســيح) افتتاح أعمال المؤتمــر القومي للحــزب الجمهوري من أجــل اختيار بوش مرشحاً رسمياً في مارس ٢٠٠٠، وأعلن فيه تبنِّيه لأفكار تيار اليمين النصراني.

يـقـول بـات روبرتســـون فـــي برنـامــج (هانتي كولمز Hannity Colmes) بُثَّ في قناة فوكس الإخبارية Fox News: «أنا أقول: هذا القرآن ماهو إلاّ سرقة من المعتقدات اليهودية، ثم استدار محمد بعد ذلك ليقتل اليهود والنصارى في المدينة. أنا أقصد: أن هــذا الرجل كان قاتلاً ســفاك دماء»، وقال: «أظـن أن الإرهاب قد غدا تيــاراً وليس فقط عند حفنة من المتطرفين. إذا اشــتريت مصحفاً اقرأه بنفسك فستجد عنفاً يبشر به».

وقد أُجبر هـذا الرجـل على الاعتـذار عـن قـولـه هذا، ولكنـه عـــاد ليقـول في كـتـابه الذي صدر حديثاً باســم: (الاســم The Name) ص ٧١: «الإســلام أسسه فرد بشري مقاتل يســمى محمداً، وفي تعاليمه ترى تكتيك نشر الإسلام من خلال التوسع العسكري ومن خلال العنف إذا كان ضرورياً» وقال: «الإســلام بخلاف المســيحية: في تعاليمه الأساسية تعصُّب عميق ضد أصحــاب الديانات الأخرى»، فتأمل قوله عــن النبي ﷺ: «إنه كان يدعو قومه إلى قتل المشــركين، إنه رجل متعصــب إلى أقصى درجة، إنه كان لصاً وقاطع طريق، ما يدعو إليه خديعة وحيلة، ٨٠٪ من القرآن نُقل من نصوص النصرانية واليهودية ثم استدار ليقتل اليهود».

وقارن هـذا القول بكلمة اليهــود في التلمود: «الناصري [أي المسيحي] هو الذي يتبع تعاليم كاذبة، يبتدعها رجل يدعو إلى العبادة في اليوم الأول التالي للسبت». وفي تلمود اليهود أيضاً: «إن المســيح كان ســاحراً ووثنياً»، وقالوا: «إن يســوع الناصري موجود في لجات الجحيم بين الزفت والقار»، «لقد ضلل يسوع، وأفسد إسرائيل وهدمها»، صدق الله: ﴿ كذلك ما أتى الَّذين من قبلهم من رَّسُولٍ إلا قالُوا ساحرٌ أو مجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أتواصوا به بلْ هُمْ قومٌ طاغُون ﴾ [الذاريات: ٥٢ - ٥٣]، ﴿ تشابهت قُلُوبُهُم ﴾. [البقرة: ١١٨]

والتهم التي تلفَّظ بها بات روبرتســون فيها من مغالطات أسلافه الماضين الشيء الكثير، وقد جاء رد بعضها في القرآن؛ كقــول الله - تعالى -: ﴿ وما كُنت تتلُو من قبْله من كتاب ولا تخُطُّهُ بيمينك إذًا لاَّرْتاب المُبْطلُون ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، ﴿ ولقد نعلم أنَّهُم يَقولُون إنما يعَلمُهُ بشرٌ لسانُ الذي يلحدُون إليه أعْجَميٌّ وهذا لسانٌ عربيٌّ مُّبينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣].

ثم تتكــرر الصورة مـرة أخرى، فيجعل المفســدين من الذيــن فعلوا بالمســلمين الأفاعيل بمكــة والمدينة، ونقضوا العهــود والمواثيق، وعمدوا إلى قتل النبي ﷺ مراراً وقتلوا من أتباع دينه من قتلوا.. يجعلهم ضحية ويجعل المســلم البريء مفسداً!

- مثــال ثالث لرجال دينهم: (جيــري فاينـز)[3]، الرئيس الســابق للمؤتمر الســنوي للكنيســة المعمدانية الجنوبية، والذي يمدحه بــوش جهاراً؛ فيذكر عنه أنــه من المتحدثين بصدق عن دينهم، وهذا الرجل عمّد بوش ليكون من النصراء

١) قسيس إنجيلي، معروف باهتماماته السياسية، وتأييده المطلق للدولة الصهيونية، يمتلك عدداً من المؤسسات الإعلامية من بينها نادي الـ ٧٠٠، وله برنامج تلفزيوني يصل إلى عشرات الملايين في الولايات المتحدة الأمريكية، بالإضافة إلى امتلاكه محطة فضائية تصل إلى ٩٠ دولة بأكثر من ٥٠ لغة وهي محطة (البث النصراني) وغيرها، كما أنه يقف خلف أكبر تحالف سياسي ديني في الحزب الجمهوري وهو «التحالف النصراني».

٢) قام البيت الأبيض في يوم الجمعة ٤/أكتوبر/٢٠٠٢م بالإعلان عن منحة دينية قدرها نصف مليون دولار أمريكي للقسيس (بات روبتسون). والجدير بالذكر أنها المنحة الأولى التي يمنحها البيت الأبيض لمؤسسة أو شخصية دينية.

(٣ وهو راعي كنيسة جاكسون فيل في فلوريدا، وهو من أبرز المتحدثين في المؤتمر السنوي للكنائس المعمدانية الجنوبية، وهو أكبر مؤتمر ديني يعقد في كل عام.

الأوائل لسماحة العقيدة. يقول هذا الرجل عن نبينا ﷺ: «... شاذ يميل للأطفال، وتزوج اثنتي عشرة زوجة؛ آخرهن طفلة عمرها تسع سنوات...».

وهذا الكلام قولٌ من قائله بغير عرفان، مع كذب بيّن لا برهان له به، ويكفي أن يعلم قائلُه أن النبي ﷺ تزوج زوجه الأولى خديجة وهي تكبره بأكثر من خمسة عشر عاماً على المشهور، وأنه لمّا بنى بعائشة وهي ابنة تسع لم ينكر أحد هذا، ولا تكلم به المنافقون الحاضرون الذين هم في الحرص على الكيد والطعن في النبي ﷺ مع (جيري فاينز) سواء، ولكنهم أعلم بواقع ذلك الجيل وأعرف به؛ فمعهود عندهم أن تُنكَح المرأة إذا بلغت التسع وبلغت شأن النساء، ولذلك ما بنى بها النبي ﷺ حتى بلغت التسع، مع أنه تزوجها قبل الهجرة بثلاث سنين، ثم إنه لم يتزوج بِكراً غيرها، وهو سيد قومه، بل سيد البشر أجمعين.

إن هذا الكلام يذكّرنا بكلام قتلة الأنبياء من قبله في المسيح ابن مريم وأمه، فقد اتهموها بالشذوذ في تلمودهم، فقالوا في تلمودهم: «إن يسوع المسيح كان ابناً غير شرعي، حملته أمه خلال مدة الحيض من العسكري (بانديرا) بمباشرة الزنا». وفي كتاب صمويل الثاني[1] يرمون داود - عليه السلام - بالزنا بزوجة (أُوريًا الحِثّي) في فصل كامل عُنونَ له بـ (خطيئة داود وخداعه)؛ فقد بعثَ - على زعمهم - داودُ - عليه السلام - هذا الرجل ليموت في الحرب ويتزوج امرأته التي فجر بها، وكانت قد حملت منه. والعجيب أن في ثنايا القصة ما يبين أن أُوريا الحِثّيَّ الذي صوروه مظلوماً تزوج من تلك المرأة وهي طفلة (تنام في حضنه كأنها ابنته)! ومع ذلك لم ينقد هذا الرجل وأمثاله من هذا شيئاً وجاء لينتقد ما تقره العقول السوية!

يطعنون في نبينا لتزوجه تسع نساء ثم يذكرون لداود - عليه السلام - نبيهم الذي يعظمون في كتبهم المعتمدة ما لم يكن لرسول الله ﷺ عُشْره! بل يذكرون عن سليمان ابن داود - عليهما السلام - أنه كانت له سبعمائة زوجة وثلاثمائة محظيّة، فانحرفن بقلبه عن الرب[2]! وقالوا: أُولع سليمان بنساء غريبات كثيرات، مع أنه كان منهياً من الزواج منهن، إلاّ أنه فعل!

ويزعمون أن لوطاً [عليه السلام] شرب الخمر وواقع ابنتيه البكر والصغيرة[3].

١) الفصل الحادي عشر وما بعده.

٢) بسط هذا في سفر الملوك الأول في الفصل الحادي عشر، وعنوانه: (زوجات سليمان).

٣) كما في سفر التكوين (١٩/ ٣٠ - ٣٨) وعنوان الفصل: خطيئة ابنتي لوط.

فعجباً لمن في ملتهم واعتقادهم مثل هذا، ثم يأتون يشنّعون على ما أحلّه الله لرسوله ﷺ من الزوجات مع ظهور حِكَمِه العظيمة! وقد تضافرت الأمارات الدالة على أن زواجه منهن - رضي الله عنهن - لم يكن للهو واللعب.

وأخيراً، يحسن التنبيه إلى أن هؤلاء القساوسة تجيء إساءاتهم في مجامع مشهودة أثناء مناسبات مقصودة، فهم يعنون ما يقولون ويتعمدونه ويرتبون له، فليست كلماتهم فلتات لسان غير مقصودة، بل العداوة معلنة صريحة يدعى لها، وانظر كيف اختار (جيري فاينز) الاجتماع السنوي في مدينة سانت لويس بولاية ميسوري الأمريكية ليلقي طعوناته في نبينا ﷺ، ولم يكتفِ بذلك بل قال: إن الله الذي يؤمن به المسلمون، ليس هو الرب الذي يؤمن به المسيحيون، وقال: «لن يقوم الرب بتحويلك إلى إرهابي يحاول تفجير الناس وأخذ أرواحهم»، فالسياق كله طعن في نبي الإسلام ودينه، ومع ذلك يلقون تأييد الحزب الجمهوري، وينالون ثناء رئيسه.

مظاهر القِسْم الثاني: التطاول بالفعل.

وهو قديم حتى بعد موته ﷺ، وقد أثبتت كتب التاريخ المعتبرة محاولات بعض الفرنجة - لعنهم الله - قصد المدينة لنبش الحُجرة النبوية ونقل صاحبها ﷺ، ليأخذوا من المسلمين جُعْلاً على زيارته. قال الذهبي في تاريخ الإسلام: «فقام صلاح الدين لذلك وقعد، ولم يمكنه أن يتزحزح من مكانه، فأرسل إلى سيف الدولة ابن منقذ نائبه بمصر أن جهز لؤلؤاً الحاجب، فكلمه في ذلك فقال: حسبك، كم عددهم؟ قال: ثلاثمائة ونيف كلهم أبطال.

فأخذ قيوداً بعددهم، وكان معهم طائفة من مرتدة العرب، ولم يبقَ بينهم وبين المدينة إلا مسافة يوم، فتداركهم، وبذل الأموال؛ فمالت إليه العرب للذهب، واعتصم الفرنج بجبل عالٍ، فصعد إليهم بنفسه راجلاً في تسعة أنفس، فخارت قوى الملاعين بأمر الله - تعالى - وقويت نفسه بالله، فسلّموا أنفسهم، فصَفَدَهم وقدِم بهم القاهرة، وتولى قتلهم الفقهاء والصالحون والصوفية»[4].

وقد ذكر بعضهم بضعة محاولات لنبش القبر الشريف من قبل النصارى على مر التاريخ، ومحاولات غيرها لبعض الباطنية من الرافضة.

ومن المظاهر المعاصرة الحادثة هذه الرسوم الكاريكاتورية، وليست الدنمارك أول من يحدثها.

وقد رسَم قبلَ سنوات كاتبٌ ينتمي إلى دولة عربية كاريكاتيراً معرِّضاً بنبينا ﷺ؛ ديكاً وحوله تسع دجاجات

(٤ تاريخ الإسلام للذهبي ٤٢/ ٣٦٤ - ٣٦٥

وعلق: (محمد جمعة زوج التسعة).

وقد ثارت القضية حينها وكتبت ردود في مجلة لواء الإسلام وغيرها.

غير أن السويديين والدنماركيين المعتدين جاؤوا بما لم يُسبَقوا إليه، فقد جاهروا بنشر رسومهم المعبِّرة عن تُهَم مختلفة ورزايا متعددة، ولم يكتفوا بذلك حتى أكدوا قصدهم بتكرار نشرها على صفحات الإنترنت وغيرها، بل تمادى بعضهم في الرسم بعد احتجاجات المسلمين، فوضع بعضهم لتلك الرسوم مقاطع مرئية فيديوية متحركة، وخصصت صفحات تجمع ما صدر من تصوير لنبي الإسلام ﷺ خلال العقود الأخيرة كلها، وأشد من ذلك تضمنته صفحات الإنترنت.

• مدخل لدوافع التطاول على نبي الإسلام ﷺ والواجب تجاهه:

هذه مجرد توطئة وسرْد لأصولها، وقد رأيت أن فائدة هذا البحث تكمل بالإشارة إليها، ولايليق بنا عرض المشكلة وذكر السب والشتم والتطاول دون الإشارة إلى بواعثه وسبل دفعه وتخطي آثاره[1].

وقد أشير في أول البحث إلى بعض الدوافع وهي العداوة القديمة بين الحق والباطل، وأخطأ من ظن أن الإشكال مع الغرب جاء من جهة عدم تصوُّرهم جميعاً للإسلام أو لنبيه ﷺ، وقد شاع أثناء التعدي الدنماركي على شخص النبي الكريم ﷺ عبارة غير دقيقة اتخذت شعاراً، ونصُّها: (لو عرفوه لأحبوه)، والله - تعالى - يقول: ﴿يا أهلَ الكتاب لمَ تلْبسُون الحق بالباطل وتكْتُمُون الحق وأنتُم تعلمُون﴾ [آل عمران: ٧١]. ويقول - عز وجل -: ﴿الّذين آتيْناهمُ الْكتاب يعرفُونه كما يعْرفُون أبناءهمُ الّذين خسرُوا أنفُسهُم فهُم لا يُؤمنون﴾ [الأنعام: ٢٠]، فكثير منهم يعرفون الكتاب ويكتمونه حسداً وبغياً، وكثير منهم يعلمون أن محمداً هو رسول الله حقاً، ومع ذلك أبوا إلاّ أن يناصبوه العداء في الحاضر، كما ناصبه أسلافهم العداء في الماضي، وهم يعلمون، ولهذا أثنى الله على من خالف هواه منهم وانصاع للحق الذي عرف، فقال - سبحانه -: ﴿الّذين يتّبعُونَ الرّسُول النّبيّ الأمي الّذي يجدُونهُ مكْتُوباً عندهم في التّوْراة والإنجيل يأمُرُهم بالمعرُوف وينْهاهم عن الْمُنكر ويُحلّ لهُم الطّيبات ويحرمُ عليهمُ الخبائث ويضعُ عنهُم إصرهُم والأغلال الّتي كانت عليهمْ فالّذين آمنُوا به وعزّرُوه ونصروهُ واتّبعُوا النُّور الّذي أُنزل معهُ أولئك هُمُ الْمُفلحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وفي قصة إسلام عبدالله بن سلام الحبر البحر - رضي الله عنه - في صحيح البخاري وغيره ما يبين هذه الحقيقة بجلاء[2].

فهذا السبب لا ينبغي أن يُغفَل ويهمل. وكذلك فإن من الواجب ألا يغالى فيه ويعمم، فإن هذا من دواعي تفاقم الإشكال لا حله، وهذا مقتضى الإنصاف الذي علَّمنا إياه ديُننا، كما في قول الحق - سبحانه -: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

وعدم المغالاة فيه تكون بمراعاة أمرين:

أحدهما: استحضار أن هناك خمس طوائف من الغربيين؛ فكما أن هناك طائفة أولى من المستكبرين باطري الحق وغامطي الإسلام، فإن هناك طائفة ثانية من الجهلة المغرر بهم. أما الطائفة الثانية فلا يعرف أهلها عن الإسلام إلاّ ما صورته الطائفة الأولى، فهؤلاء المساكين يجب أن يُنقذَهم بنو الإسلام، فيعرِّفوا بنبي الثقلين ﷺ وبدين الحق، فتعرض لهم صورته المشرقة في سكينة وهدوء. وتقصيرُ المسلمين في حقهم من الظلم لهم.

أما الطائفة الثالثة فهي بين هؤلاء وهؤلاء، وهم المعرضون الذين لا يريدون معرفة الحق وتمييزه من الباطل، يصمون آذانهم ويستغشون ثيابهم، إما لهوى أو ظلم أو جهل، وهؤلاء ينبغي أن يرغَّبوا في الإسلام وينبّهوا إلى أهمية النظر فيه، فإن أعرضوا أُلحقوا بالفريق الأول.

وأما الطائفة الرابعة فهم المنصفون من الغربيين الذين عرفوا شيئاً من الإسلام فبانت لهم تعاليمه السمحة وتشريعاته الحكيمة، وعرفوا شيئاً عن نبينا ﷺ فعظموه، فوقفوا موقف أبي طالب من محمد ﷺ، وقاموا مقام غيره ممن حمى بعض أهل الإسلام وذبّ عنهم.

ومن هؤلاء على سبيل المثال: جوسلين سيزاري الباحثة الفرنسية، وروبرت فيسك الصحافي البريطاني، وماركوس بورج أستاذ علوم الدين في جامعة أوريغون الأمريكية، وفرانسوا بورجا الباحث الفرنسي البارز، وكذلك كارين أرمسترونج الكاتبة البريطانية والراهبة الكاثوليكية سابقاً وصاحبة العديد من المؤلفات عن الإسلام والمسيحية واليهودية.

وكذلك الأمير الأنجليزي تشارلز. وكلنا يعلم شهادته النادرة التي أسقط فيها صفة التطرف التي يحاول الإعلام الغربي أن يربطها بالإسلام، إلى جانب دفاعه عن فضل الحضارة الإسلامية على القارة الأوروبية وعلى الحضارة الغربية بصفة عامة.

وأمثال هؤلاء ينبغي أن يُعرَف لهم فضلهم، وأن يُكافَؤوا

---

١) لم أجد ضمن عناصر موضوعي أو موضوع المشارك الإشارة إلى العلاج الذي نملكه، والإشارة إليها من الأهمية بمكان. ولذا، أدرجتها لتكتمل الفائدة.

(٢ انظر في الصحيح (٣٦٩٩)، (٤٢).



عليـــه، وأن يُحرص علـــى دعوتهم وهدايتهـــم، فليس هؤلاء كغيرهم من بني جنسهم.

وأما الطائفة الخامســـة والأخيرة فهم مســـلمو الغرب، فهؤلاء ينبغي أن نكون ردءاً لـمُحسنهم، حادبين على مسيئهم، حريصين على هدايته وتوجيهه التوجيه الأمثل.

الأمر الثاني الذي تنبغي مراعاته:

معرفة الأســـباب الأخرى التي ســـاعدت علـــى التجرؤ والتطاول من قبـــل أوباش الغرب وجهاله على نبينا ﷺ، على الرغم من توافر عوامل التعريف بالإسلام ونبيه ﷺ في عصر الفضائيات وثورة الاتصالات.

ولعل أهم هذه الأسباب اثنين:

الأول: تقصير بني الإســـلام في عرض صورة الإســـلام الواضحة النقية والتعريف بنبيه ﷺ.

والثـاني: عرض صـورة لمَسْـــخ مشـــوَّه والتصريح بأنها صورة الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، أو الإيهام بذلك عمداً أو خطأ.

ولا شك أن هذين الســـببين يتداخلان مع ما سبق ذكره، ولا سيما الثاني؛ فإن أثر الغرب في هذا ظاهر، بيد أن الغرب ليس هو كل شيء فيه، كما أن حقد الغربيين له من يدعمه من الأطراف العميلة المؤثرة وليست كل شيء فيه.

أما تقصيـــر بني الإســـلام في عرض صورة الإســـلام الواضحة النقية والتعريف بالنبي ﷺ فيشمل أموراً، منها:

- تقصيرهم في التعريف به وعرض أخباره ابتداء.

- وتقصيرهم في تنقية الصورة المشـــوهة بالشُّبَه الغربية أو المستغربة الناطقة بالعربية.

- تقصيرهم في بيان الأخطاء ومعالجتها على المســـتوى الداخلي والخارجي، فعندما تُزوَّر ممارســـات باسم الإسلام خطأ ويُزعَم أن محمـــداً ﷺ جاء بها، ثم لا يوضح بجلاء أن الإســـلام منها براء داخل الصف المســـلم أو خارجه؛ فإما أن تبقى الصورة مشوهة عند إغفال الاعتراف بالخطأ وتصحيحه فـــي الذهن الغربي؛ وإما أن تتكرر الأخطاء عند إغفال توعية الصف المسلم وحواره وتعريفه بالخطأ الذي وقع فيه.

فلعل ما ســـبق من أســـباب داخلية وخارجية هي أعظم الأسباب التي قادت إلى تشوُّه صورة الإسلام لدى الغرب.

وانضاف إليها عامل مهم ساعد المتطاولين على التطاول؛ ألا وهو ضعف بني الإسلام وقلة حيلتهم، وإلاَّ فالغرب يحترم القوي، ولهذا لا تجد الكاثوليك اليوم يطعنون في البروتستانت، ولا العكس، وكذلك شـــأن الطائفتين مع اليهود، مع أن محاكم التفتيش وتاريخهم الغابر يبـــين حجم الاختلاف بينهم ولكن القوي يُحترم، وقد قيل:

تـراهـم يظلمون مـن اسْـتَـرَكُـوا
ويجتنبون من صَـدَق المصَاعا[1]

وفي الختام يحســـن التنبيه إلـــى أن العلاج الذي نملكه يتعلق بأمور:

أولاً: علاج المظاهر والأســـباب التي للمســـلمين فيها يد: كتصحيـــح واقـعهم، وإنكار المناكر التي ليست من الإسلام في شيء، وتبيين الدين الصريح الناصع الذي جاء به محمد ﷺ، والاجتهاد في التعريف به، مع الدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل الأحسن.

ثانيـاً: مدافعـــة الباطـــل وأهله الناقمين على الإســـلام ومجاهدتهم جهاداً كبيراً، وتزوير شـــبهاتهم؛ من أجل إيصال صورة الإسلام ونبيه ﷺ للناس بيضاء نقية كما هي عليه في الواقع.

وهـــذا يتطلب خطاباً إعلامياً عصريـــاً نقدياً موضوعياً يغزو الأســـواق الغربية؛ فالفضائيات الإسلامية - ويتوقع أن يكون لها ظهور في السنوات المقبلة - ينبغي أن تُعنى بتصدير الثقافة الإســـلامية أشد من عناية الغربيين بتصدير ثقافتهم عبر أفلامهم وموادهم الإعلامية الفضائية المختلفة.

ثالثـاً: علينـــا أن نعمل لتكـــون أمتنا أمـــة قوية يرهبها الأعداء؛ فـــإن القوي مهاب، ولهذا لا يجـــرؤ كثير من هؤلاء المتطاولين علـــى الطعن في باطل، مثـــل: المحرقة اليهودية؛ فنفوذ أدعيائهـــا كَفَلَ لها من القوانين ما يُجرِّم به الطاعنون فيها، وقد قال الله - تعالى -: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْـتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِـن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّـهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

كمـــا أن الحاجة إلى الالتجاء إلى الله ماســـة، والاعتماد عليه كبيرة، والدعاء لأهـــل الضلال من الكفار بمعرفة الحق واتِّباعـــه. وفي صحيح البخاري: أن ابن مســـعود قال: كأني أنظـــر إلى النبي ﷺ يحكـــي نبياً من الأنبيـــاء ضَرَبَه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون!».

فكمـــا أننـــا بحاجة إلى دعـــاء الله بأن يهلـــك الظالمين المســـتكبرين المعرضين من الكافرين المستهزئين؛ نحن أيضاً بحاجة إلى أن نســـأله - ســـبحانه - أن يهـــدي ضالهم غير المكابر أو المعرض المحارب، ويدُلَّ حائرهم، ولا ســـيما أولئك النفر الذين لا يزالون ينافحون عن الإسلام ونبيه ﷺ.

---

(١) استركوا: استضعفوا، والمصاع: الضراب والجلاد.



الدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم منهج شرعي مستمر

أ. د. همام عبد الرحيم سعيد(*)

أولاً: عداء الكافرين لرسول الله ﷺ مستمر إلى قيام الساعة:

إن من المُسَلَّمات في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ أن سيل العداوة لرسول الله ﷺ لا يتوقف إلى قيام الساعة، وكذلك حال جميع الأنبياء قبله وجميع الصالحين بعده. قال الله - تعالى -: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]. وقال - تعالى -: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير هذه الآية:

«وكما جعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك ويعادونك ويعاندونك، جعلنا لكل نبي من قبلك أيضاً أعداءً، فلا يحزنك ذلك، كما قال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ [الأنعام: ٣٤]، وقال - تعالى -: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقال - تعالى -: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]. وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: «إنه لم يأتِ أحد بمثل ما جئت به إلا عودي»(١). وقوله: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] بدل من ﴿عَدُوًّا﴾ أي: لهم أعداء من شياطين الإنس والجنّ، والشيطان كل من خرج عن نظيره بالشر، ولا يعادي الرسل إلا الشياطين من هؤلاء، وهؤلاء قبحهم الله ولعنهم. قال عبد الرزاق: حدثنا معمر عن قتادة في قوله: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ قال: من الجن شياطين ومن الإنس شياطين يوحي بعضهم إلى بعض» ا هـ(٢).

(١) أخرجه البخاري ١/ ٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٢/ ٢٢٣.

(*) مدير مركز دراسات السنة النبوية الشريفة، عمان، الأردن.

وقال ابن عاشــور - رحمه اللــه -: «.. وأن عداوة أمثالهم لمثله سنة من ســنن الله - تعالى - في ابتلاء أنبيائه كلهم، فما منهم أحد إلا كان له أعداء، فلم تكن عداوة هؤلاء للنبي - عليه الصلاة والسلام - بدعاً من شأن الرسل. فمعنى الكلام: «ألست نبياً؟ وقد جعلنا لكل نبي عدواً»[1].

ثانياً: المعركة لم تتوقف:

إن الحملة المعادية لرسول الله ﷺ لم تتوقف منذ أن نزل عليه الوحي بالرســالة، ولن تتوقف إلى قيام الســاعة. وهذه الحملــة تأخذ صوراً كثيرة، وتتناول كل جانب من جوانب هذا الدين الذي جاء به النبي الكريم ﷺ. فقد كان المشــركون في مكة ينالون من النبي ﷺ ســبّاً وشــتماً وإيذاءً مادياً ومعنوياً؛ وكذلــك فعل اليهــود بعد الهجرة حيث قالوا: الســامُ عليك، ووصفوه - صلــوات الله عليه - بالرعونة، وآذاه المنافقون في المدينة؛ هذا في حياته. أما بعد موته، فقد افترى عليه المفترون؛ فكانت الأحاديث الموضوعة، وكانت الفرق المبتدعة التي غيّرت وبدّلت في دين الله، ووجهت هذه الفرق سهام الحقد إلى سنّة النبي ﷺ، ثم كانت الفرق الباطنيــة الملحدة والزنادقة الذين نشروا في الأمة أفكارهم الزائغة وعقائدهم الباطلة، ثم كانت هجمة الأعداء من الصليبيين والمغول والتتر، ثم بدأت الحملة الصليبية المعاصرة التي كانت أشــدّ حملات العداء وأعتاها، ولا ريــب أن جميع هذه الحملات كانت تســتهدف النبيّ ﷺ وسنّته ودينه وشريعته.

ثالثاً: كيف واجه المسلمون هذه الحملات؟

بعيداً عن ردّات الفعل، فإنّ القرآن الكريم والسنّة النبوية يؤسسان لمواجهة أعداء الإسلام وفق منهج لا يتغير يقوم على تعظيم قدر النبي ﷺ وإظهار فضائله، والكلام عن شــمائله؛ سواء بما وصفه الله به، أو بما ذكره في سنته، أو بما وصفه به أصحابه، كما في قوله - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦]. وقوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وقوله - تعالى -: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١].

وقوله - تعالى -: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

وقوله - تعالى -: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾. [الأنبياء: ١٠٧]

وقولــه - تعالى -: ﴿ وَمِــنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَــى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩].

وقوله - تعالــى -: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَــبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الطور: ٤٨].

هــــذه طائفة من الآيات الكريمة التــي تبين تعظيم قدر نبينا ﷺ عند ربه سبحانه وتعالى.

ولقد ذكر النبي ﷺ في سنته الشريفة الكثير من الأحاديث التي تبيِّن شرف قدره وتمجِّد ذكره.

فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه، عن جبير بن مطعم - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لي خمسة أسماء: أنــا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»[2].

وأخرج الإمام مســلم في صحيحه، عن واثلة بن الأســقع يقول: ســمعت رســول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إســماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[3].

وأخرج الإمام البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رســول الله ﷺ قــال: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحســنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية؛ فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون هلا وُضِعت هذه اللبنة! قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»[4].

هذا هو نبينا ﷺ قبل هجوم الأعداء عليه وبعد هجومهم، فــإن مكانته العالية لا تبلغها مكانـــة، ورتبته عند ربه لا تصل إليها رتبة، وقد أعطــاه الله عطاء من الذكر والفضل والمنزلة والمحبــة ما لم يجتمع لخلق الله كلهــم، ونجد هذا في أقصر ســورة من القرآن: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر: ١ - ٣].

ويقوم هــذا المنهج على تعظيم قدر دينه وشــريعته وبيان خصائصها، وذكر جوانب العظمة والإعجاز في هذه الشــريعة

(١) التحرير والتنوير، ١/ ١٣٩٤.

(٢) ٣/ ١٢٩٩.
(٣) ٤/ ١٧٨٢
(٤) ٣/ ١٣٠٠.

وما فيها من الحكم البالغة والمصالح الأكيدة والفوائد الجليلة، مع ما اتصف به دين الإسلام من البيان والتفصيل واليسر ورفع الحرج، فكان هذا المنهج على مدى الأيام دعوة صريحة واضحة وصل نورها إلى أرجاء المعمورة، فدخل في هذا الدين شعوب شتى وأقوام كثيرون على اختلاف ألوانهم وألسنتهم، وما زال باب الدعوة إلى الله - تعالى - مفتوحاً، بل إننا مستبشرون بظهور هذه الدعوة كما في قوله - تعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح : ٢٨].

وقوله - تعالى -: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف : ٨ - ٩].

وقوله - تعالى -: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

[التوبة : ٣٢ - ٣٣]

وأخرج مسلم عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ مُلْكُها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض...»[1].

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن نافع بن عتبة بن أبي وقاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: «تغزون جزيرة العرب فيفتح الله لكم، وتغزون فارس فيفتحها الله لكم، وتغزون الروم فيفتحها الله لكم، وتغزون الدجال فيفتح الله لكم»[2].

وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن تميم الداري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مَدَر ولا وبر الا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل؛ عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر»، وكان تميم الداري يقول: «قد عرفت ذلك في أهل بيتي؛ لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذل والصغار والجزية»[3].

وأخرج الإمام البخاري بسنده إلى معاوية - رضي الله عنه - يقول: سمعت النبي ﷺ، يقول: «لا يزال من أمتي أمةٌ قائمةٌ بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى

(١) صحيح مسلم ٤/٢٢١٥.
(٢) المسند ١/١٧٨. إسناده صحيح على شرط مسلم.
(٣) ٤/١٠٣، صحيح على شرط مسلم.

يأتيهم أمر الله وهم على ذلك». قال عمير: فقال مالك بن يُخامر: قال معاذ: وهم بالشأم، فقال معاوية: هذا مالك يزعُم أنّه سمع معاذاً يقول: وهم بالشأم»[4].

وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن سمرة السوائيّ، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول في حجّة الوداع: «إنّ هذا الدين لن يزال ظاهراً على مَن ناوأه لا يضرّه مخالف ولا مفارق، حتى يمضي من أمتي اثنا عشر خليفة»، قال: ثم تكلم بشيء لم أفهمه، فقلت لأبي: ما قال؟ قال: «كلّهم من قريش»[5].

وأخرج الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله، يقول: سمعت النبيّ ﷺ، يقول: «لا تزال طائفةٌ من أمتي يقاتِلون على الحقّ ظاهرين إلى يوم القيامة»، قال: «فينزل عيسى ابن مريم ﷺ فيقول أميرهم: تعالَ صلِّ لنا، فيقول: «لا، إنّ بعضكم على بعضٍ أُمراء، تَكرمة الله هذه الأمّة»[6].

وأخرج الطبراني بسند صحيح عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتي قوامة على أمر الله، لا يضرها من خالفها، تقاتل أعداء الله، كلما ذهبت حرب نشبت حرب قوم آخرين، حتى تأتيهم الساعة»[7].

وأخرج ابن أبي عاصم بسند صحيح عن أبي هريرة وابن السمط - رضي الله عنهما - كانا يقولان: لا يزال المؤمنون في الأرض إلى أن تقوم الساعة، وذلك أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتي قوامة على أمر الله عز وجل، لا يضرهم من خالفهم، تقاتل أعداءها، كلما ذهب حرب قوم تستحرب قوم أخرى، يزيغ الله - عز وجل - قلوب قوم ليرزقهم منهم، حتى تأتيهم الساعة كأنها قطع الليل المظلم»[8].

إن هذه الآيات والأحاديث تقرر أن رسول الله ﷺ منصور أبد الدهر إلى قيام الساعة على من ناوأه وخالفه، وأن أمته كذلك منصورة ببركته والسير على سنته ومنهاجه، وأنه ليس بعد نبينا ﷺ نبي ولا بعد هذه الأمة أمة.

رابعاً: نتائج معارك الأعداء مع النبي ﷺ وأمته:

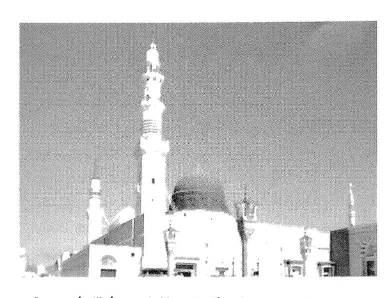
إن المتتبع لمعارك الأعداء مع النبي ﷺ وأمته على مدار التاريخ يجد تلازماً بين شدة هذه المعارك واشتعال أحقادها وما يعقب ذلك من النصر والظهور لهذا الدين على غيره.

(٤) ٣/١٣٣١.
(٥) ٥/٨٧، درجة الحديث: صحيح لغيره.
(٦) ١/١٣٧.
(٧) مسند الشاميين ٢/٣٩٤.
(٨) الآحاد والمثاني ٥/٢٥٤.

لقد كانت معركة الإسلام في المدينة مع اليهود الذين لم يدعوا جانباً من جوانب الشر الذي عرفته البشرية - والذي لم تعرفه - إلا واستخدموه للنيل من نبي الله ﷺ وأصحابه ودينه وأمته، ولا مجال لاستعراض آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ ووقائع السيرة الشريفة التي تبين النتائج الإيجابية على الإسلام وأهله نتيجة هذه الحرب. ونؤكد أنه ما كانت لهذا الدين وأهله نهضة إلا بعد معركة شرسة من هذه المعارك، فقد وقعت الفتن بعد موت النبيّ ﷺ حتى أشفق بعض الناس على الإسلام وأهله خوفاً عليه من الاستئصال، وكان أعظم هذه الفتن ما شجر بين أصحاب النبي ﷺ من قتال ونزاع على الخلافة والملك، ولا يخفى أن هذه الفتنة كانت بفعل شياطين الإنس والجن من اليهود وأوليائهم من المنافقين الذين اختفت رؤوسهم في أرجاء الدولة الإسلامية الواسعة الانتشار ووسط الكثرة الكاثرة من المسلمين الجدد الداخلين في الإسلام من مختلف الشعوب والأمم، وكان المقصد الأول من هذه الفتنة القضاء على الرسول ﷺ ورسالته، فماذا كانت النتيجة؟ هل قضت هذه الفتنة العاصفة على الرسول ﷺ ورسالته؟

والجواب: كانت نتائج هذه الفتنة قيام منهجية عظيمة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً في التأصيل والتقعيد والحفظ، ومن ذلك: كتابة القرآن الكريم في المصحف الإمام، وشَكْل المصحف ونقْطه، وضبط القراءات القرآنية، وظهور أئمة القراء، وكان من ذلك وضع منهج الرواية والدراية لأحاديث النبي ﷺ ابتداء من العصر الأول والصحابة أحياء متوافرون وهم يحفظون السنن في صدورهم غضة كما سمعوها من رسول الله ﷺ، وكان من ذلك ظهور الجهابذة من رجال الحديث وعلله الذين ضبطوا مناهج علم الحديث ودوّنوا الأحاديث في مصنفاتهم، وكانوا وهم يدونون ويصنفون يردّون على أهل البدع والفرق افتراءاتهم، حتى إننا وجدنا في تصنيف الإمام البخاري لكتابه الجامع الصحيح ما يردُّ على معظم أهل الفرق المبتدعة في زمانه؛ كالقدرية والمرجئة والخوارج غيرهم من المبتدعة. وكان من ذلك أيضاً تأكيد منهج العقيدة الصحيحة الصافية من شوائب الشرك وتخليصها من نزغات المضلين من أهل الفرق المبتدعة الضالة.

وكان من ذلك أيضاً قيام حركة التقعيد والتأصيل للفقه



الإسلامي، وظهور أئمة الفقه الكبار من أمثال: أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، وآلاف الأئمة من الفقهاء والأصوليين الذين ضبطوا الفروع وقعّدوا الأصول، فأحاطوا الدين بأسوار متينة حافظت على الرسول ﷺ ورسالته. وكان من ذلك أيضاً قيام حركة التأصيل في التاريخ ونقل الأخبار؛ كالجهد الذي قام به ابن إسحق في سيرته، وابن سعد في طبقاته، والطبري في تاريخه، وغيرهم كثير من المؤرخين والإخباريين.

هذه نتيجة المعركة بين النبي ﷺ وأعدائه. نعم، لقد خسر المسلمون دولة الخلافة، لكنهم حققوا بفضل الله - تبارك وتعالى - المحافظة على أصول دينهم ومنهج عقيدتهم وشريعتهم، وكتاب ربهم وسنة نبيه ﷺ؛ فهل تحقق هدف العدو من فتنته؟

وبعد انقضاء القرون الثلاثة الفاضلة؛ هبّت موجة عاتية من الفتن الباطنية والعقائد الزائغة وسيطرت على العالم الإسلامي، وحاولت هدم الإسلام في عقيدته وشريعته ورسالة نبيه ﷺ، وتزامنت مع هذه الهجمة الشرسة غزواتُ الأعداء من الصليبيين أولاً ثم المغول والتتر. وكان من أبرز أهداف الصليبيين: نبشُ قبر النبي ﷺ، وقد عملوا لهذا ووجهوا حملاتهم إلى المدينة، ولكن هذه الموجة العاتية وهذه الفتن الباطنية وهذه الهجمات الشرسة أيقظت المسلمين من جديد وأنشأت فيهم فعلاً جديداً، فأكدوا ما كانوا عليه من تأصيل وتقعيد ومنهج، واستعادوا نهضتهم مرة أخرى، وعادت جيوشهم إلى مواقعها، وتقدمت إلى زوايا أخرى من الأرض حتى اقتربت من شمال أوروبا. ويكفينا أن نعلم أن الحركة العلمية الموسوعية في الحديث والفقه والأصول والتاريخ إنما نشأت بعد هذه الهجمة.

فهل نالت هذه الهجمة من الرسول ﷺ ورسالته، أم أكسبت

رسول الله ﷺ ذكراً مع ذِكْره وفضلاً مع فضله، وعطاءً من الله إلى جانب عطائه؟

ثــم كانــت الهجمــة العاتية في العصور الحديثة التي عصفت بالمسلمين ففرّقتهم أيدي ســبأ، واستهدفت النبي ﷺ وســنته، والقرآن الكريم وحفظه وتفسيره، والفقه الإسلامي وأصوله، وعقائد الإســلام الصحيحة، وروجوا للعقائــد الفاســدة والبــدع المنحرفة، كما نالــوا من أخلاق المســلمين فأشــاعوا فيهم رذائل الأخلاق ومفاســد الطباع، حتى ظن كثير من المخلصين أن الإســلام إلــى ضياع، ولكن هذه الهجمة أعادت للمســلمين دورهم مــن جديد؛ فحاطوا إسلامهم ورســالة نبيهم ﷺ بسياج من الفكر الأصيل والعمل المنهجي في مختلف الجوانب المســتهدفة في الهجمة الغربية والاستشــراقية. وكان من نتائج هذه الهجمة: انتشار الإسلام في بلاد الغرب، ومحاولة الساســة الغربيين إقامة التحالفات والحشــود العســكرية للحيلولة دون تمكين الإسلام في عالم الغرب، بل وفي العالم أجمع.

وكان من مظاهــر هذه الهجمة الأخيــرة أيضاً التعرض المباشــر لشخص رسول الله ﷺ والإســاءة الموجهــة إليه. وكما هــي الهجمات الســالفة في نتائجهــا الباهرة لصالح الإسلام والمسلمين؛ فإننا ما زلنا نحصد نتائج جديدة وثمرات يانعة وانتصارات جديدة ستكون آثارها - بإذن الله - متناسبة مع عالمية الهجمة وشراستها.

إنها سُــنة الله فــي تعظيم قدر رســوله ﷺ ونصر دينه وأوليائه، وكما قال الله - تبــارك وتعالى - في التعقيب على حادثة الإفك: ﴿إِنَّ الَّذين جاءُوا بالإِفْك عُصبةٌ منكُمْ لا تحسـ ـبوهُ شرًا ـكُم بل هُو خيرٌ لَّكُم لكل امرئٍ مّنْهُم مَّا اكْتسـ ـب من الإِثْم والذي تولَّى كبرهُ منهُم له عذابٌ عظيمٌ﴾ [النور: ١١].

فإننا نقول: لا تحسبوا هذه الهجمة شراً لكم، بل هي خير لرسولنا ﷺ ولأمته.

خامساً: الكرامة للمدافعين عن النبي ﷺ وأمته:

إن هذه السُّــنة الســالفة الذكر متحققة لا محالة، فمن أكرمه الله وأعــزه ورضي عنه فإنه يختــاره مجنّداً في هذه المعركة ليكون منافحاً عن رســوله ﷺ وأمة الإســلام. ويكون ذلك في رأيي في حدود النقاط التالية:

١ - تعظيم النبي ﷺ ودعوة الناس إلى الإيمان به:

إن أوجــب واجبات الدعاة في هــذا الزمان دعوة الناس إلى تعظيم النبي ﷺ وتوقيره والإيمان به نبياً خاتماً ورسولاً، وداعياً إلى الله بإذنه وســراجاً منيراً، ورحمةً مهداةً للعالمين، وبركةً للنــاس جميعاً، وخيراً للأرض برِّها وبحرها ونباتها وحيوانها، فضلاً عن البشر جميعاً من سكانها.

> إن أوجب واجبات الدعاة في هذا الزمان دعوة الناس إلى تعظيم النبي ﷺ

وحتى لا تكون هذه الدعوة ردة فعل تنشأ في حالة انفعال محــدود يرتبط بموجــة مــن موجــات العداء، وتزول عند توقف هذه الأفعال؛ فإنّ على أمّة الإســلام - قياماً بشــرط الإيمــان - أن تجعل تعظيــم النبي ﷺ وتوقيــره من الأمور الدائمة الإعلان، وهذا ما جاء به القرآن الكريم؛ فالرسول ﷺ ما ســمي رســولاً إلا لأنه يحمل هذه الرسالة إلى بني البشر مسلمهم وكافرهم، فالمسلم لا يتحقق إسلامه إلا بدوام الصلة بينه وبين الرســول ﷺ؛ لأن الرسول هو ســبيل الإيمان بالله - تبــارك وتعالى -، والكافر لا يزول كفره إلا بدوام طَرْق قلبه بهذه الرسالة وتعريفه بصاحبها ﷺ.

قال الله - تعالى -: ﴿الَّذين يتَّبعُون الرسُـ ـول النبي الأُميَّ الذي يجدُونـ ـه مكتوبًا عندهُمْ في التَّوراة والإِنجيل يأمُرهم بالمعْرُوف وينهاهُم عـ ـن الْمُنكر ويحلُّ لهم الطَّيبات ويحرمُ عليهـ ـمُ الْخبائث ويضعُ عنْهُم إِصْرهُـ ـم والأغلال التي كانتْ عليهم فالَّذين آمنُـ ـوا به وعزَّروه ونصرُوهُ واتَّبعُـ ـوا النُّور الَّذي أنـ ـزل معهُ أولئك هُمُ الْمُفلحـ ـون ﴿١٥٧﴾ قُلْ يا أيُّها النَّاسُ إِنّي رسـ ـولُ اللَّه إليكم جميعا الذي لهُ ملكُ السَّموات والأرض لا إله إلاَّ هُو يُحْيي ويُميتُ فآمنُوا باللَّه ورسُـ ـوله النَّبي الأمي الَّذي يُؤمنُ باللَّه وكلماته واتَّبعُوهُ لعلَّكُمْ تهتدُون﴾ [الأعراف: ١٥٧ - ١٥٨].

وإننــي أفترض أن الذين يســيئون إلى النبي ﷺ هم أحد فريقين:

فريـ ـق عرفه حــق المعرفة ثم جحد به وبرســالته، فقال الله فيهم: ﴿الَّذين آتيْناهـ ـمُ الْكتاب يعرفونهُ كما يعرفُون أبناءهُمْ وإِنَّ فريقًا منهـ ـم ليَكتُمُون الحق وهـ ـم يعْلمُون ﴿١٤٦﴾ الحـ ـقُّ من رَّبِّكَ فلا تكونـ ـنَّ من الْمُمترين﴾ [البقرة: ١٤٦ - ١٤٧]، وقال - ســبحانه -: ﴿ولمَّـ ـا جاءهم كتابٌ من عنـ ـد الله مصدّقٌ لّما معهُـ ـمْ وكانُوا من قبلُ يسْـ ـتفتحون على الَّذين كفرُوا فلمَّا جاءهُم مَّـ ـا عرفُوا كفرُوا به فلعْنةُ اللَّه على الكافرين﴾ [البقرة: ٨٩].

وهذا الفريق الجاحد لا يرجى منه الإيمان بالرســول ﷺ،

ولا ينتظـر منه تعظيـم النبي ﷺ وتوقيـره إلا بإخضاعه وتخويفه، وقد كان للدولة الإسـلامية شـأنها مع هؤلاء. وأمّا الآن فقد تكون وسائل الضغط المدني؛ كالمظاهرات والمسيرات والملتقيات ورفع الشـكاوى من أبرز أشكال المقاومة، وقد تكون المقاطعة الاقتصادية والتهديد بالمصالح الدنيوية من وسـائل هذا الإخضاع.

وفريق آخر: عرف النبي ﷺ من خلال الشبهات والافتراءات التي يروجها الإعلام الغربي والتربية الغربية، ابتداءً من رياض الأطفـال والمدارس والجامعات حيـث يلقّن طلاب المدارس أن شخصية النبي ﷺ هي شخصية المحارب الدموي المحب لسفك الدماء، الذي يحتقر النسـاء، ويجمع بين الكثير منهن في بيت واحـد، ولا يلتزم بالعهود، وأن الكتـاب الذي جاء به ما هو إلا جملة من الأساطير والأخبار المنقولة عن التوراة والإنجيل. وهذا الفريـق ضللته هذه الدعايات والافتراءات حتى أصبح مصدِّقاً بها ومروِّجاً لها، وهو السـواد الأعظم من عالم الغرب. وعلاج هذا الفريق الدعوة والبيان، والتعريف بشـخص رسول الله ﷺ ودينه وشـريعته والقرآن الذي أنزل عليه، وفي هذا الفريق أمل كبير بتغيير موقفه، بل وباتِّبـاع النبي ﷺ بعد معرفته، والذين يسْلِمون في الغرب أنموذج من هذا الفريق.

٢ - الانتفاع من وسائل العصر:

حيث لم يُقدَّر للبشرية أن تتكاثر عليها وسائل الاتصال والتقارب والانتشار كما هي في هـذا العصر، حتى أصبح للمرء قدرة على سـماع أنفاس المتحدثين على بعد آلاف الأميال، كما أصبح نقل الخبر من الشـرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب لا يحتـاج إلا ثواني معدودات، كمـا أصبح التفاهم بين أصحاب اللغات واللهجات شائعاً ذائعاً. إن هذه الوسائل المعاصرة تجعل تبليغ الإسـلام أيسـر من أي وقت سـابق؛ فهل نحن قادرون على استخدام هذه الوسائل؟

٣ - ضرورة عرض الأفكار بيُسر للوصول إلى البشرية:

لم يكن العقل البشـري في فترة من فترات التاريخ أرغب منه في المعرفة وحب الاستطلاع كما هو في هذا العصر، فمن لا تفكر في الوصـول إليه فإنه يفكر في الوصول إليك. ولقد عجبت عندما علمت أن أكثر من ٥٠٪ من الداخلين على نافذة المكتبة الأزهرية هم من الشـعب الأمريكي وهم أكثر بكثير من الداخلين عليها من العرب والمسلمين! وهذا يجعل مهمة عرض الأفكار والعقائد والمذاهب أيسـر مـن أي وقت مضى. ولـمّا كان هذا الدين دين الفطرة، وكان هذا الرسول ﷺ رحمة الله للعالمين، وكانت شريعته شريعة العدل والخير والحق والوسط: فإن تقديم هذا النبي ﷺ وتقديم شريعته لهذا العقل البشري المفتوح يأتي في هذا الزمان، ولعله المبشَّر فيه بظهور الإسلام على كل ما سواه من العقائد والمذاهب.

أكثر من ٥٠٪ من الداخلين على نافذة المكتبة الأزهرية هم من الشعب الأمريكي وهم أكثر بكثير من الداخلين عليها من العرب والمسلمين!

٤ - تصنيف المادة العلمية تصنيفاً جديداً:

إن المـادة العلمية التي نمتلك كنوزها ونحتفظ بجواهرها كما صنفها القدماء من علمائنا بلغة عصورهم وتلبية لحاجات دهورهم، ووفقـاً لمنطق مجتمعاتهم؛ أصبحـت اليوم بحاجة إلى تصنيـف جديد بلغة العصر، وترتيب جديد لحاجات هذا الدهر، ومنطق جديد يراعي مجتمعات هذا الزمان.

لقـد كان تصنيف الإمام البخـاري في زمانه لأحاديث النبي ﷺ تصنيفاً مبتكراً سـبق عصـره، وكذلك كل من ألّف مـن الفقهاء والأصوليـين والمحدثين، إلا أن هـذا التصنيف وهذا الترتيب وهذا المنطق توقف عند ظاهرة الإبداع الأولى، وأصبحنـا اليوم بحاجة إلى من يسـتأنف التجديد والتطوير في أساليب التصنيف والترتيب والمنطق؛ فطبُّ اليوم غير طب البخاري، وسياسة اليوم غير سياسته، وكذلك شؤون الحياة المختلفة، وهذا يستدعي القيام بتصنيف جديد. ولـمّا كان هذا الدين دين العصور والدهور إلى قيام الساعة ودين الشعوب والأمم قاطبـة؛ كان لا بد من إدخال كل عصر في سـياق هذا الديـن بما يلبي الحاجات ويحقـق الأولويـات، ويوافق منطق الإنسان في كل عصر من عصوره.

٥ - المسارعة إلى إيجاد هذا التصنيف والتبويب والترتيب:

وإنني أدعو هذا المؤتمر الموقر كما أدعو إخواننا القائمين على مجلة البيان الزاهرة، أن يسارعوا إلى إيجاد هذا التصنيف العصري للسنة النبوية بما يحقق الأمور التالية:

أ - الاتفاق على عناوين الموضوعات في مختلف مجالات المعرفـة؛ ابتداء من العقائـد، ومروراً بالعبـادات والأخلاق والتربية والأسـرة والإدارة والإعلام والسياسة وغير ذلك من

المجـــالات، آخذين بعين الاعتبار أن تكـــون هذه العناوين بلغة العصر، وأن تكون ســـهلة في نقلها إلـــى اللغات الأجنبية، مع مراعاة أن يكون واضعو هذه العناوين من المتخصصين في كل مجال من مجالاتها، وبهذا نقدم الســـنة النبوية ونكشـــف عن كنوزها لطلاب المعرفة.

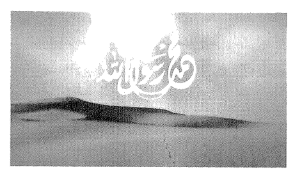
ب – جمع الأحاديث النبوية تحت هذه العناوين مع الحُكم عليها تصحيحاً وتضعيفاً، مع الحرص على جمع طرق الحديث الواحد من جميع رواياته، وذلك للوصول إلى موسوعة معاصرة للســـنة النبوية الشريفة تيسّـــر اطّلاع العالَم على رسالة هذا النبي الكريم، ليعلم الناس جميعاً شرَف هذا النبي ﷺ وقَدْرَه، ومدى حاجتهم إلى الهدى الذي جاء به.

ج – لقد قمنا – بفضل الله تعالى – بمثل هذا المشـــروع، منذ أكثر من عشـــرين ســـنة، وذلك من خلال مركز دراسات الســـنة النبوية الشريفة في عمان، وأصدرنا الدليل التصنيفي الذي قامت بنشره جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية.

د – إبراز موضوع الشـــمائل النبويـــة والأخلاق المحمدية بطريقة تستوعب هذه الشمائل من كتاب الله – تعالى – وسنة نبيه ﷺ على نحو من التفصيل الذي لم يتحقق حتى الآن بشكله الكامل، بعيداً عن الأحاديـــث الضعيفة والموضوعة، والانتفاع من كتب الشـــمائل السابقة، ولا سيما كتاب (الشفاء بالتعريف بحقوق المصطفى) للقاضي عياض بن موسى اليحصبي، الذي قال عنه المستشرق (ماسينيون): «يكفي لتعرف أوروبا محاسن رســـول الله محمد ﷺ ومحامده أن يُنقَل كتاب (الشفاء) إلى إحدى اللغات الأوروبية»[1].

إنّ اســـتخلاص عناوين شاملة لهذه الشـــمائل، ثم جمع الآيـــات الكريمـــة والأحاديـــث النبوية الشـــريفة الصحيحة والحســـنة تحت هذه العناوين مع شرح موجز، ثم ترجمة هذه الشمائل إلى اللغات الأجنبية؛ سيكون – بإذن الله تعالى – أبلغ وسيلة للتعريف الكامل بهذا النبي الكريم ﷺ، مع التفصيل في الأخلاق النبوية فـــي: رحمته، وبره، وعدله، وصدقه، وصبره، وإحسانه، وحُسْـــن معاملته لأهله وخدمه وأصحابه وأعدائه، ورفقـــه، وإيثاره، ووفائه بالعهود، وحيائـــه، وجهاده، وعبادته، وذكـــره لله واســـتغفاره، إلى غير ذلك من أخلاقه الشـــريفة وصفاته المنيفة مؤيَّدةً بشواهد من سيرته الصحيحة.

هـ – تحـديد عناصر الخطاب المناســـب للعقلية الغربية، مع المحافظة على الثوابت الشرعية؛ كتأكيد بشرية النبي ﷺ، وبيان دور الحواس في المعرفة، وتأكيد دور العقل في الكشف عن العلل والاســـتنباط، والتعريف بمكانة التجربة والخطأ في الاجتهـــاد، وتقدير دور العلم والعلماء، وبيان أهمية انســـياب المعارف الإنســـانية بين الشـــعوب تحت مبدأ (الحكمة ضالة المؤمن، أنّى وجدها فهو أحق الناس بها)، وإبراز دور الإســـلام في الحفاظ على البيئة والرفق بالحيوان، ورعاية حياة الإنسان المعيشية بعيداً عن التلوث وأسباب الدمار الكارثي الذي يهدد الأرض وسكانها، وتأكيد مبدأ التعاون بين الشعوب والثقافات على كل ما ينفع الإنســـان ويســـعده. وأقترح على هذا المنتدى الكـــريم تخصيص لجنة تقوم بتحديـــد عناصر هذا الخطاب وتحديد محتواه من الكتاب والســـنة وترجمة هذا المحتوى إلى اللغات الأخرى.



الاقتراحات والتوصيات:

أولاً: العمـــل علـــى تحديد عناصر الخطاب الإســـلامي المناسب للعالم الغربي.

ثانياً: الشـــروع في تصنيف موضوعات الســـنة النبوية الشريفة بما يناسب هذا العصر، مع الحرص على شمول هذا التصنيف لجميع الحاجات الإنسانية المعاصرة.

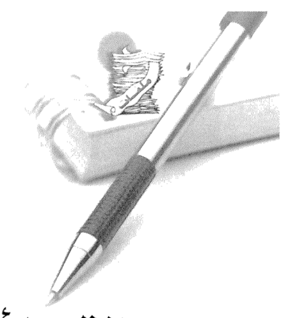
ثالثاً: تصنيف موضوعات الشمائل النبوية وجمع الأحاديث النبوية فيها، ولا سيما جانب الأخلاق النبوية الشريفة.

رابعـاً: ترجمة الأعمال السابقة للغات الأجنبية.

خامساً: إيجاد مراكز إعلامية في الغرب تقوم بالتواصل مع الإعلاميين ورجال الفكر والسياســـة والقضاء والمال وتزوِّدهم بنشرات تتضمن التعريف بالنبي ﷺ وبرسالته.

سادســاً: تحميل الأنظمة والحكومـــات في البلاد العربية والإســـلامية مسؤوليةَ الدفاع المتواصل عن النبي ﷺ، وإلحاق هذا العمل في الأعمال الدبلوماسية إلى هذه الأنظمة.

(1) نقلاً عن كتاب الرسالة المحمدية للسيد سليمان الندوي رحمه الله تعالى، ص١٠٧، ط دار الفكر، دمشق، ١٩٨٢م، وكذلك كتاب زاد المعاد لابن قيّم الجوزيّة رحمه الله تعالى.



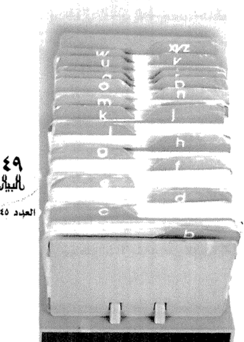
النقد الأدبي

آفاق ورؤى (١-٢)

هـــل لدينا نظرية نقديّة واضحة في أدبنا العربي الحديث؟ وما أبرز سماتها؟ وما جهود النقاد الإسلاميين في صياغة هذه النظرية؟ وكيف ينظر الأدباء الإسلاميون إلى مصطلح الحداثة؟ تُرى أيمضي أدبنا العربي الحديث إلى القيم الأصيلة أم إلى التغريب والتحلّل؟ وما موقفه من عقيدة الأمة؟ وما رؤيته للمرأة عموماً؟ وفي ظل هذا كله ما مستقبل هذا الأدب العربي الحديث؟

وبعد: إنّ كان المضمون المشـــرق لا يصنـــع أدباً راقياً وحده مع التأثير العظيم لهذا المضمون في الحياة الإنســـانية؛ فإنَّ الشـــكل الفنّـــي للمضامين الســـامية لا يقلّ عنه أهمية فـــي رواج الأدب وانتشاره وتأثيره. كما أنَّ مواكبة الأدب بالنقد الموضوعي الجاد من العناصـــر المهمّة في تطوّر الأدب وتقدّمه، وممّا يثري دوره الفكري والجمالي معاً، ويساعد على حضوره في وسائل الإعلام المتنوعة!

ولعلّنا في هذا العدد من (البيان) نقدّم ضمن ملف (النقد الأدبي) شيئاً من الإجابة عن بعض تلك التساؤلات السابقة.





الأدب الذي نريده

د. حلمي محمد القاعود
drhelmyalqaud@yahoo.com

(١)

طوال القرن العشرين كان السؤال المطروح من خلال المهمومين بالأدب العربي: ما الأدب الذي نريد؟ وأخذ هذا السؤال أشكالاً متنوعة ارتبطت بعملية الاحتكاك بالأدب الأجنبي عموماً، والغربي خصوصاً: تراوحت الإجابات وأخذت صوراً عديدة ما بين أدب رومانتيكي، وأدب واقعي، وأدب وجودي، وأدب رمزي، وأدب سيريالي، وأدب... وبقدر تنوع النظريات الأدبية وتعددها كانت الإجابات التي طالعها القارئ العربي على مدى قرن من الزمان أو أكثر.

وواضح أن الإجابات على تنوعها وتعددها لم تلبِّ حاجة القارئ العربي، بل القارئ الإسلامي على امتداد البلاد الإسلامية في لغاتها المختلفة.

ويبدو أن الإجابات المطروحة أخفقت في الوصول إلى ما يريده القارئ العربي خصوصاً، والإسلامي عموماً، لسبب بسيط؛ وهو عدم تعبيرها عن طبيعة الأدب الذي تحتاجه الأمة؛ فالأدب كما يُقال بحق: مرآة الأمة، ليس بمعنى الانعكاس فحسب، لكن الانعكاس مضافاً إليه التصوّر الذي يجعل الوجود الإنساني أكثر فطرية وحرية وعدالة ورقياً وجمالاً؛ وهو ما لم يره العربي المسلم في كثير من النصوص الأدبية التي أُتخِمت بها الكتب وصفحات الدوريات والصحف، وتم تشخيصها عبر وسائل الفنون المرئية والمسموعة.

على مــدى التاريخ جعلت الأمم الأدب ميداناً لموضوعين رئيسيين:

أولهما: المفاخرة بين الأمم بما تنتجه من أدب، وما تملكه من أدباء وشــعراء وكتاب. ويُقــال: إن بريطانيا العظمى في عزّ ســطوتها الاستعمارية لم تفاخر بممتلكاتها التي لم تكن تغرب عنها الشمس؛ ولكنها كانت تفاخر بشاعرها المسرحي الأشهر (وليام شكسبير).

الآخر: هو اســتخدام الأدب بوصفه وسيلة غير مباشرة للتعبير عن هوية الأمة وأمجادها وتاريخها ورؤاها وتصوّراتها، ويمكن أن نجد ذلك عند الإغريق والرومان وقدماء المصريين والصينيين والهنــود والعرب وغيرهم، بل إن القبائل العربية بعد الإســلام نظرت إلى ماضيها الجاهلي لتكتشف مقدار ما تملكه من شــعر مقارناً بغيرها من القبائل، وهنا نشــأت ظاهرة ما يُسمى بالانتحال في الشعر العربي؛ لتكثير موروث القبيلة من الشعر بوصفه مصدر عز وفخار ومجد.

الأدب إذاً عنصــر رئيس في النظام الحضــاري للأمة، لا تستطيــع أن تستغني عنه، أو تعده أمراً هامشياً، حتى لو مرت عليها فترات خمول وانحدار.

(٢)

مــرّ الأدب العربي بفترات ازدهــار واضمحلال، وتوهج وركود، وحيوية وجمود، وعُرف كبار الشــعراء والأدباء الذين تجاوزت شــهرتهم العالم العربي والإسلامي إلى العالم كله، ولكن هذا لم يمنــع أن يعيش الأدب العربي فترة من الركود والجمود بلغت الحضيض في أواخر العهد العثماني، لأسباب مختلفة لا مجال لتناولها في هذا الســياق؛ ولكن أبرز معالم الأدب العربي في هذه الفترة تمثلت في سطحية الموضوعات وهامشــيتها بالنســبة للواقع الاجتماعي والإنساني، وركاكة التعبير وانحطــاط اللغة التي جمعت بــين العامية المبتذلة والفصحى المهجورة، ولعل أبرز الأمثلة على ذلك ما نراه في كتابي ابن إيــاس والجبرتي، مع أنهما يحملان تأريخاً لفترة مهمّة في حياة أمتنا، ولكن صياغتهما جاءت ضعيفة للغاية.

مع بدايات القــرن التــاســع عشــر الميلادي، وتولي محمد علي الحكم في مصر والشــام، وإرساله المبعوثين إلى بعض الدول الأوروبية لدراســة العلوم والآداب واللغات؛ بدأ عصر جديد بالنســبة للأدب العربي، حيث اطّلع العرب على نمــاذج من الأدب الغربي في لغاتهــا الأصلية أو في ترجمة عربية، تختلف في الســياق والمضمــون والصياغة اللغوية والأجناس الأدبية.

مرحلة الاتصال بالأدب الغربي كانت حاسمة، وكانت لها مضاعفاتها ونتائجها، وتأكدت هذه النتائج والمضاعفات بعد وصول طلائع الاســتعمار المزمن إلى البلاد العربية؛ فسادت الفرنســية الجزائر وبلاد الشــام بوجود القوات العسكرية، ومصر بحكم المبعوثــين والقــادمــين من أجـل التـدريس أو الأعمال المصرفية أو التجارة أو غير ذلك. ودخلت إنجلترا باحتلال مصر مجال التنافس مع الثقافة الفرنســية. ويُمكن القــول بإيجاز: إن حركة التعليم في مصر والشــام والمغرب العربي قد خضعت لثقافة جديــدة غازية، زحزحت الثقافة الإسلامية عن مكانها؛ إن لم يكن بالإزاحة الكاملة فبالتصورات والرؤى، وهو ما صنع على امتداد القرن العشرين حتى اليوم نخباً تتحرك بالتصــوّر الثقافي الغربي بطريقة غير إرادية؛ لأن هذا التصوّر صار حاكمــاً في مجالات التعليم والإعلام والثقافة والســلوك والأزياء والعــادات والتقاليد.. صحيح أن هنــاك مقاومة لهذا التصــور، وهناك حركات إصلاحية إســلامية حاولت وتحاول - مع كل المعوقات والعقبات - أن تستعيد التصوّر الإسلامي، وترســخه في الأذهان والعقول والنفــوس، ولكن التصوّر الغربي يبــدو صاحب الغلبة حتى اليوم، وخاصة في المجال الثقافي، والمجال الأدبي على وجه أخص.

للإنصاف فالاحتكاك بالتصوّر الغربي أعطى نتائج إيجابية وأخرى سلبية:

النتائج الإيجابية تتمثل فــي التعرف على أجناس أدبية جديدة نشــأت مع حركــة النهضة الأوروبيــة الحديثة أو تطورت في سياقها، وتتمثل في: الرواية، والقصة القصيرة، والمسرحية النثرية والشعرية، والمقالة، والسيرة الذاتية، وأدب الأطفال، والأدب المقارن.

وقد اســتفاد الأدباء العرب من القرن العشــرين بهذه الأجنــاس الأدبية من خــلال التعريــب أولاً، ثم من خلال التأصيل، وتوالت أجيال المؤسسين الرواد، والبناة الناضجين،

والمجدديـــن المتطورين. ويمكن القـــول: إن الأدب العربي في القرن العشرين امتلك تراثاً هائلاً في هذه الأجناس به نصوص كثيرة تتوفر فيها شروط الجودة الفنية والموضوعية.

ولا ريـــب أن كتابة الأجناس الجديـــدة التي تأصلت في تربة الأدب العربي الحديث قد أعطت مجالاً عريضاً للدخول إلى قضايا كبرى وموضوعات مهمّة، كان من النادر أن يتطرق إليها الأدب العربي قبلاً وخاصة في العصر العثماني؛ فعالج الكُتّاب قضايا الفقر والجهل والمرض، ذلك الثالوث الذي ألح عليه الكُتّاب طويلاً في قصصهم ومقالاتهم ومســـرحياتهم، كما عالجوا قضايا الاستعمار والعلاقات مع الغرب، والحرية والشـــورى والعدل، والاهتمام بالعمـــل والزراعة والصناعة والحرف، والعلاقات البشرية بين الرجل والمرأة داخل الأسرة وداخل المجتمع... إلخ.

في الوقت ذاته كانت حركة أخرى موازية تدعو للاهتمام باللغة وتصويبها واســـتخدام الأســـاليب العربية الســـليمة، والتركيـــز على تأدية المعنـــى، والبعد عن التقعـــر والركاكة والزخرفـــة التي تثقل الكلام، لدرجة أن الإمام محمد عبده، وكان مشـــرفاً على قلم الصحافة، أنـــذر أصحاب الصحف وكتّابهـــا بالإغـــلاق وعدم ممارســـة الكتابـــة إلا إذا أتقن الصحفيون والكتاب اللغة العربية نحواً وصرفاً وأسلوباً!

وظهرت مدرســـة من الموهوبين في الأساليب والصياغة سمّيت (مدرسة البيان) وكان أصحابها يقتربون في صياغتهم من الشعر، وكان على رأســـها المنفلوطي والرافعي والبِشري والزيات، وقد أحدثت هذه المدرسة إضافة عظيمة للأساليب انعكست على كبار الكتاب والشعراء في القرن العشرين، وقد تناولتها تفصيلاً في أحد كتبي.

في مقابل هذه الإيجابيات فإن فريقاً لا يُســـتهان به من النخب التي انحازت للثقافة الغربية اســـتباح لنفسه أن يُعبّر عـــن القضايا القومية والوطنيـــة والاجتماعية والفكرية من خلال منظور غربي، غريب بصفة عامة عن ثقافتنا وطبيعتنا وظروفنا، وراح نفر منه ينقل النظريات الأجنبية نقلاً حرفياً لا يتناســـب مع واقعنا ولا ينسجم معه، فبدا ما يكتبونه دعوة لواقع آخر وتعبيراً عنه، وانطلاقاً منه، وهو ما جعل كثيراً من نصوصهم لا تلقى تجاوباً من الجمهور، بل أخذت تبعده عن الأدب والأدبـــاء، وبدا ما يقدمونه للنـاس (جيتو) معـزولاً لا يقربه أحد - اللهم - إلا من يكتبونه ومن على شاكلتهم.

في الإطار ذاته رأينـــا من يروِّج من خلال الأدب العربي إلـــى نظرية الصراع الطبقي، وقد لقيت هذه النظرية رواجاً كبيراً في فترة الخمســـينيات والستينيات من القرن الماضي بســـبب وجود أحزاب وهيئات حاكمة تبنتها وسيطرت على وسائل النشر والتوصيل الأدبي، وصار الأدب في أغلبه مجرد منشـــورات زاعقة تهتف للنظرية وأصحابها ومســـتورديها، ولذلـــك تراجع الأدب المعبر تعبيـــراً حقيقياً عن هموم الأمة وهويتهـــا، وخفت الصوت الإســـلامي فـــي الأدب، تصوّراً وتحققـــاً، خفوتاً ملحوظاً؛ فالشـــعراء والكتاب في معظمهم وقفوا من الرؤية الإســـلامية الصافية موقفاً غريباً وعجيباً، انتهى إلى العداء في كثير من الأحيان.

رافق كل ذلك اســـتهانته بالقيم الفنية في الأدب العربي؛ فقد راح فرقاء عديـــدون يروِّجون للعاميات المحلية ويبعثون اللغات العرقية القديمة، التي صهرها الإسلام في إطار اللغة العربية، تحت دعاوى الواقعية والوطنية، وكان بعضهم صريحاً في الإعلان عن عدائه للغة العربية بوصفها لغة مستعمرين غزاة! بالإضافة إلى أن عدداً لا يُســـتهان به من أدباء المغرب العربي، الذي وقع تحت ســـيطرة الاســـتعمار الفرنسي، آثر الكتابة بالفرنسية بوصفها اللغة السائدة والأكثر انتشاراً بين المواطنين، وما زالت الصحف الرئيسية في الجزائر والمغرب وتونس تصدر باللغة الفرنســـية؛ حيث يتعامل بها الناس في المدارس والجامعات والبنوك والمؤسسات والهيئات والوزارات والشوارع!

وقد تطـــرف بعض الموالين للتصـــوّر الغربي ثقافياً في الاستهانة بقواعد الشعر العربي الذي يعدّ فن العربية الأول، وبعد أن بدا لفريق إلغاء القافية وعدم الاعتداد بالشطرين، جـاء فريق آخـر رفـض الوزن والـقافيـة جمـيـعاً، وأنشـأ ما يُسمى بـ (قصيدة النثر). وقد وقفت جهات عديدة وراء هذا التطـــور الخطير الذي لم يلقَ اســـتجابة من كثير من النقاد الجادين بســـبب غموضـــه وســـيرياليته، ومعالجته لقضايا

تافهة، وتعبيره عـن رؤى غير مقبولة في كثير من الأحايين، وابتعاده عن واقع الأمة بصفة عامة.

(٢)

ولعلنا مـن هذا العـرض عرفنا حقاً مـا الأدب الذي نريده.

إن الأدب الـذي نريده هـو الأدب الراقي الجميل الذي يحمل الإنسـان عامة، والعربي والمسـلم خاصة، في حناياه ويدافع عنه ويسـمو به فـي إطار مـن الأداء الفني المتقن الشائق الذي يُحبب الأدب إلى قارئه.

ولعل هذا ما جعل الدعوة إلى (الأدب الإسـلامي) تأتي ردّة فعل طبيعية على سلبيات الأدب الراهن في البلاد العربية والإسـلامية؛ فهي دعوة للانطلاق نحو آفاق إنسانية أرحب تتجاوز السـلبيات القائمة في الحقل الأدبي، سـواء أكانت موضوعية أو فنية، وفي الوقت ذاته تعيد للتصور الإسلامي أو الهوية الإسلامية وجودها الفاعل والمبدع في محيط البناء الثقافي للأمة.

لقـد شـهدت العقود الأخيـرة نماذج أدبيـة لا تكتفي بالتصورات الأجنبية المعادية للأمة وقيمها وأخلاقها، بل تدخل إلى المناطق التي تجرح مشـاعر المسلمين وعواطفهم، فضـلاً عن عقائدهم، وصارت هناك جماعات تملك الهيمنة على وسـائط النشـر والتعبير، لا تجد غضاضة، بل تُحبذ التجديـف في حق الـذات الإلهية والإلحاح على المسـائل الإباحيـة، وتزعم بعدئذٍ أن ذلـك إبداع أو فن له منطق وله موضوعاتـه التي يجب أن (يحترمها) الناس ولا يتدخلوا فيها! بل إن القوم أمعنوا في فرض إرادتهم العدوانية بنشر نصوص صادمـة للمجتمع بأمـوال المجتمع ومؤسسـات المجتمع الثقافية، في ظل ظروف اسـتثنائية تعيشها بعض العواصم العربية!

ولا شـك أن الأدب الـذي نريـده يرفـض التجديف والإباحية، كما يرفض القضايا الهامشـية التافـهة التي لا تسـمو بالإنسـان ولا ترقى به. إن الإنسـان العربي في طـور مرحلة حرجة؛ حيـث يعيش تحت مطرقـة الأطماع الاستعمارية الخارجية، وسـندان الأمية والتخلف والبطالة، والفسـاد الاقتصـادي والإداري والاجتماعـي، والضعف العسكري والسياسي، والخواء الثقافي والمعرفي... وكل هذا وغيره يفرض على الأديب العربي المسـلم أن يفرغ لمواجهته ومعالجته وكشف السبل التي تجعل أفراد الأمة قادرين على العمل الإيجابي الذي يُضيء الواقع، ويصنع المستقبل، ويبني أمة تملك إرادتها وتحقق العدل والمساواة والكرامة والشورى والحرية بين أبنائها.

إن الأديب العربي المسلم أمامه المجال مفتوح ليتناول كل الموضوعات الإنسـانية، شـريطة أن تأتي في إطار التصوّر الإسلامي الذي ينتصر للخير ويرفض الشرّ، ويدعم القدرة على مقاومة هذا الشـرّ داخل الإنسان. ولا يعتقدن أحد أننا نريد من الأديب أن يصور العربي المسلم (سوبر مان) قاهراً لا يُغلب، لكن إنسـاناً يتعثر ويقـوم، يضعف ويقوى، يُخطئ ويتوب...

ثمـة أمر آخر لا بد أن يتوفـر في الأدب؛ وهو أن يتمتع الأديـب بالموهبة الحقيقيـة المدعومة بالتجربة الإنسـانية العميقة. الأدب ليس مجرد لعبة لفظية للتسـلية التي يزول أثرها بعد قراءتها أو سـماعها.. إنها تركيب فني معقد يُعبّر عن تجربة ذات أبعاد إنسانية عميقة، تستحق البقاء والخلود في وجـدان الناس؛ لذا فـإن أصحاب المواهـب الضحلة والتجارب السـطحية لا يمكنهـم أن يقدموا أدباً ذا قيمة أو فناً ذا منفعة؛ لأن الأدب أو الفن في أيامنا - مع كل الدعاوى الفارغـة التي تحاول أن تفصله عن الحياة - يحمل رسـالة تعبّر عن أصحابها ورؤاهم وتصوّراتهم، شاؤوا أم أبوا.

إن الأدب الـذي نريده ينبغي أن يأتي في سـياق متقن لغويـاً وفنّياً، والذين يتصـوّرون أن النوايا الطيبة تكفي في هذا السـياق واهمون؛ لأن النوايـا الطيبـة لا تصنـع أدباً أو فناً.

والإتقان اللغوي والفني يقتضـي المعرفة الجيدة باللغة الفصحـى ودلالاتهـا وتركيباتها، والتعرف على أسـاليبها وصياغتهـا، كما يقتضـي التعرف على طـرق البناء الفني للأجناس الأدبية المختلفة شعراً ونثراً، وتقديم النص الأدبي في صورة شائقة جاذبة تعطيه الحيوية والاستمرار.



دور الأدب الفكري والاجتماعي والأخلاقي والجمالي

د. عدنان علي رضا النحوي

الأدب ظاهرة حية في تاريخ الإنسان منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا، وسيظل ممتداً على مستقبل بعيد. إنه ظاهرة مرتبطة بالإنسان لا تنفصل عنه، تنبع منه أو توهب له، فضلاً من الله ونعمة منه ما دام الأدب ثمرة خير وإيمان وتقوى.

ولعلَّ الأدب انطلق مع أول كلمة علّمها الله - سبحانه وتعالى - لآدم - عليه السلام - حين علّمه الأسماء كلها. ونفهم من قوله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١٣]، أنه علّمه اللفظة واستخدامها، كما توحي بذلك كلمة (الأسماء)؛ وكذلك قوله - سبحانه -: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ - ٤].

ويصبح الأدب بذلك نبعةً من نبعات الحياة، وخفقة من خفقات الإنسان، وتعبيراً عن وجوده وحياته، ونشاطه وعطائه، وعاطفته وشعوره، وفكره وتصوره. إنه يعرض ويحلل أحداثاً ووقائع، ويتناول البيئة ومكنوناتها: يابسة وأنهاراً، أشجاراً وثماراً، زهوراً ونسيماً، وأرضاً وسماءً. إنه يطوف في الكون على قدر ما يفتح الله له من أبوابه ومنافذه.

ولكن الأدب لا يقف عند العرض والوصف، ولكنه يحلّل ويستنتج، ويربط ويقوّم؛ ليكون الأدب قوة تنضم إلى سائر القوى، وسبباً ينضمُّ إلى سائر الأسباب، لتتحصّن به الأمة وتدافع به، وتجاهد به وتنافح. إنه يُغذّي علاقات الإنسان وروابطه من قربى ورحم، وصحبة وجوار؛ فيقرّب الإنسانَ من الإنسان، والفكرَ من الفكر، والعاطفةَ من العاطفة، إذا صدق الأدب وظلَّ طاهراً، فلا يهبط في حمأة الرذيلة والجاهلية، ودنس الفاحشة والفجور، وشرِّ الجريمة والإثم.

والأدب أشرف الفنون في حياة الإنسان وأعلاها مرتبة، وأكثرها التصاقاً به وبحياته، وأكثرها اتساعاً به ونشاطه، حتى يكاد يكون حاجة من حاجاته وضرورة من ضروراته، ماضياً معه في أعماق التاريخ وآفاق المستقبل. وهو يجمع من الفنون الأخرى ما لا تستطيع أن تجمع؛ فهو يجمع من الموسيقى أطيبها وأطهرها في نغمة الكلمة وجرسها، وإيقاع المقطع والصياغة وحلاوته، وهو يجمع من الرسم صوراً غنيّة نديّة تدفعها الحروف والكلمات، وصوراً حية نابضة، وهو يجمع عبقرية المعنى وطهر الفكر وصدق العاطفة.

والأدب يجول جولات واسعة في جميع ميادين الحياة وآفاق الكون، فتّحت كلها له ولموهبته وقدراته. فلا يوجد ميدان في حياة الإنسان إلا ويخوضه الأدب الطاهر، ينثر فيه العطر والندى، والجواهر واللآلئ والدرر، والثمار والزهور، حتى كأنه يجعل الحياة بساتين أشجار وثمار، وجنان ورود وأزهار، ونسائم تسري، وظلالاً ترفُّ بأندائها وتغني بفيئها.

وارتفعت منزلة الأدب إلى ذروة الشرف وقمّة التكريم حين حمل البيان رسالة الله إلى الناس، إلى عباده وخلقه، قرآناً معجزاً، وبياناً ميسّراً، وحْياً يتنزّل من عند الله، ليمثل أعلى مستوى للبيان والفكر، والصورة والتعبير، ليكون آية الزمان وإعجاز العصور، وحاجة الإنسان وغناءه نوراً وهدى.

والأدب عطاء الإنسان؛ ينبع من ذاته، من داخله، من فطرته التي فطره الله عليها إن ظلت نقيّة سليمة فيكون أدب إيمان وتقوى، أو تاهت في فتن وضلال وانحرفت فيكون أدب فتنة وفساد. وهذه الفطرة التي لا نعرف عنها إلا ما

علّمنـــا الله، نـدرك أن الله غــــرس فيها نبـع الإيمان ليرويَ الإيمانُ الفـطرةَ وما فيها مــــن غرائـز وقـوى ريّاً متـوازنـاً؛ لتــؤدّي كلُّ قوة المهمةَ التي خلقها الله لها، ما دامت الفطرة لم تتشوه والشعور والموهبة التي يضعها الله في من يشاء من عباده. وكأن التفكير والعاطفة قطبان تتجمّع عليهما شحنات الزاد من الواقع، من علم وتجربة ينالها الإنســـان في حياته من ميادين مختلفة. وتظل هذه الشــحنات تنمو وتزداد بقدر من الله – سبحانه وتعالى – وعلى سننٍ لله ثابتة، حتى تأتي اللحظة المحددة، فتأتي الموهبة فتشـــعل التفاعل بين هذين القطبين وما يحملانه من شـــحنات، فيخرج عطاء الإنسان ومضةَ إبداع أو شعلةَ خير، على نوع الموهبة والشحنات وقوة الفكر وقوة العاطفة. فإن كانت الموهبة أدبية أطلقت العطاء الأدبي شـــعراً أو قصة أو رواية أو خلاف ذلك. ولا يمكن أن يكون العطاء ثمرة فكر وحده، ولا ثمرة عاطفة وحدها؛ ولكنه ثمرة تفاعل بـــين الفكر والعاطفة وســـائر القوى في داخل الإنسان في فطرته، وبذلك يستطيع الأدب أن يجول ويطوف في جميع ميادين الحياة وآفاق الكون على قدر ما وهب الله لعبده من قوة وفكر وعاطفة وموهبة.

• الأدب وفكر العقيدة:

وباســـتعراض تاريخ الأدب في حياة الإنسان نرى الدور الكبير له في الفكر أو في حمل الفكر وعرضه. وأعظم فكر يحمله الأدب هو فكر العقيدة التي يؤمن بها، والتي تغنى بها الفطرةُ والقوى المغروسة فيها. وإذا استعرضنا شعراء صدر الإســـلام وخطباءهم لوجدنا أن شـــعْرَهم حمل الفكر الذي يؤمنـــون به والعقيدة التي يحملونهـــا، يخوضون بها مختلف الميادين، وكذلك في سائر العصور، ومع سائر الأمم.

ويتميز الأدب الملتزم بالإســـلام من غيـــره بأنه يعرض الفكر الحقَّ، وينبذ الباطل ويدحضه: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٨ – ٤٩]، ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

هذا هو الحق الذي يحمله الأدب فكراً وعاطفة.

يســـاهم الأدب في واقع الحياة الاجتماعية، فيغذّي كل آداب المجتمـــع وأخلاقه، وعاداتـــه وتقاليده، ما دام المجتمع متمســـكاً بدينه إيماناً وممارســـةً في واقـــع الحياة. وجعل الإسلام للأدب دوراً عظيماً في نهجه وغايته وأسلوبه. وأول ذلك أن تكون النيَّة خالصة للـــه في كلمته، وثانياً أن تكون الكلمة طيبة حقاً وصدقاً، لا كذب فيها ولا باطل. فعن أبـــي هـريـرة – رضـي الله عنـــه – عن النبي ﷺ قال: «من تعلم صرف الكلام ليسبي به قلوبَ الرجال أو الناس لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً»[1]. وعنه أيضاً: «إن أخاً لكم لا يقول الرفث، وهو ابن رواحة»، ثم تلا أبو هريرة أبياتاً من شعر عبد الله بن رواحة، نجد فيها دور الأدب في الفكر والدعوة والمجتمع:

وفينا رســول الـلـه يتلو كتابَه
إذا انشقَّ معروفٌ من الفجر ساطعُ
أرانـا الهدى بعد العَمَى فقُلُوبُنا
بـه مـوقـنـاتٌ أنَّ مـا قـال واقـعُ
يبيتُ يجافي جنبه عن فراشه
إذا استثقلت بالكافرين المضاجعُ[2]

وانـظـر إلى دور الأدب فـي مـيدان الجـهـاد: فعـن أنـس – رضـــي الله عنه – أن النبي ﷺ دخـــل مكة وعبد الله بن رواحة بين يديه يمشي، ويقول:

خَـلُّـوا بني الـكـفَّـار عـن سبيلهِ
الـيـوم نـضـربـكـم عـلـى تنزيلهِ
ضـربـاً يُـزيـل الـهـام عـن مقيلهِ
ويـذهـل الـخـلـيـلَ عـن خليله

فقـــال عمر – رضي الله عنه -: «يا ابن رواحة! بين يديْ رسـول الله ﷺ وفـي حـرم الله تقـول الشعر؟! فقال له النبي ﷺ: «خلِّ عنه يا عمر! فَلَهيَ أسرع فيهم من نضح النبل»[3].

وانظـــر إلى هذا الموقف لترى كيف يؤدي الأدب دوره في العقيـــدة والأخلاق والمجتمع، وكيف يُبْنـــى ذلك على صفاء الإيمان والتـوحيد؛ إنه مـوقـف ضـرار بـن الأزور – رضي الله عنه – عند مبايعته لرسول الله ﷺ، فبعد مبايعته أنشد:

تـركـتُ الـقـداح وعـــزفَ القيا
نِ والخـمـر تـعـلـلـةً وانـتـهـالا
وكـــرّي المـجـبّـر فـي غَـمْـرة
وحملي على المشركين القتالا
فـيـا ربِّ لا أغْـبَـنَنْ صفقتي
فقد بعت مالي وأهـلـي ابتذالا

(١) أبو داود: كتاب الأدب، رقم: ٤٣٥٣.
(٢) الترمذي: كتاب الأدب، حديث رقم: ٢٨٤٧.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام: ج ٢، ص ١٧٦.

وهذه أبيات النابغة الجعدي التي سُرَّ بها رسول الله ﷺ:

ولا خير في حِلْمٍ إذا لم يكن له
بوادر تحمي صفوَه أن يكدَّرا
ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له
حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

وخبيب الأنصاري - رضي الله عنه - يقول وهو يُصلَب على الخشبة في مكة ليُقتل:

فوالله ما أرجو إذا متُّ مُسلماً
على أي جنبٍ كان في الله مضجعي
فلستُ بمبدٍ للعدوِّ تخشُّعاً
ولا جَزَعاً إني إلى الله مرجعي

تلك نماذج سريعة تكشف بوضوح عن دور الأدب في الفكر والمجتمع والأخلاق.

كما أننا نلمس فيها كيف يتعهد الإيمانُ هذه القوى كلها ويمزجها بالعقيدة والإيمان والتوحيد، حتى تكون نسيجاً واحداً لا ينفصل بعضه عن بعض.

• دور الأدب في الفكر والمجتمع:

وينكشف لنا دور الأدب الملتزم بالإسلام مبدئياً من لفظة (الأدب) نفسها، اللفظة المتميزة بمعانيها وبدورها في ميادين الفكر والخلق والاجتماع والجمال وغير ذلك. ففي تاج العروس: «الأدب: الذي يتأدَّب به الأديب من الناس، سُمِّيَ به؛ لأنه يؤدِّب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح. وأصل الأدب الدعاء»[1]. وهو مَلَكَةٌ تعصم من قامت به عمّا يشينه، وتجمعُ المعاجم كلها على معانٍ متعددة، كلها تدور حول مكارم الأخلاق، وفي هذا ما أدب به الله - تعالى - نبيّه ﷺ. وقد استخدمت هذه اللفظة في علوم اللغة العربية كما يعرِّفها ابن خلدون في مقدمته.

وحين حمل الأدب رسالة الله إلى الناس وحياً من عند الله باللغة العربية التي اختارها الله، أصبح هذا البيان والأدب هو النموذج الأعلى، لا يبلغه أحد من البشر، ولكن يقتبسون منه ويهتدون به نوراً وهدى خالداً في إعجازه ويُسْره مع الأزمان كلها، يقدّم للبشرية كلها أسمى ما عرفت البشرية من فكر وأخلاق.

وحمل كذلك أسمى جمالٍ فنيٍّ يمتزج فيه جمال الفكر، وجمال الأخلاق، وجمال عبقرية اللغة العربية، وجمال الحياة الاجتماعية في طهرها وسموّ علاقاتها، تتداخل كلها في نسيج عبقري واحد معجز، ومع إعجازه يسَّره الله لمن آمن وصدق وعرف العربية وأتقنها؛ فجعل الله صدق الإيمان وصفاءه وإتقان اللغة العربية مفتاحين لكتاب الله، ييسر الله بهما معاني كتابه لعباده المؤمنين.

• رسالة الأدب بما يحمله:

والأدب فنّ؛ ولكنه أشرف الفنون إذا حمل رسالة الطهر والجمال والخير والإحسان. والأدب يقدّم الجمال في الحياة في أطهر صوره وأنقى أشكاله. ويظل يسمو الجمال مع سمو الأدب حتى يبلغ أعلى مراتبه، ولا يكون ذلك إلا حين يحمل الحق في الحياة، فيكون الحق منبع الجمال فيه، ودفق الحياة، وغنى القلوب والنفوس، وهو يحمل رسالة الله ويساهم في نشرها عبقاً فوّاحاً وعطراً غنياً وظلالاً ندية؛ فيكون جماله من جمال رسالته الإيمانية: «إن الله جميل يحب الجمال، ويحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها»[2].

ويصوغ الأدب الجمال حين يتلقى جمال الجرس من الألفاظ والصياغة، وجمال الصورة التي يرسمها، وجمال الحركة التي يطلقها، وجمال الأسلوب الذي يجمع ذلك كله. ويرتبط هذا الجمال الفني بالحياة والكون، ليكون نبضة حياة وقبساً من نور، جمالاً أصيلاً، لا طلاءً كاذباً ولا زخرفاً خادعاً. والجمال في الأدب الملتزم بالإسلام ينبع من تفاعل الخصائص الإيمانية التي تجعله إسلامياً والخصائص الفنيَّة التي تجعله أدباً. ويساهم في صياغة الجمال الفني في الأدب عناصر ستة: الصياغة الفنية، الموضوع الفني، الشكل، الأسلوب، الإنسان، والعقيدة. وهذه كلها تتفاعل وتتأثر من ولادة النص الأدبي من داخل الإنسان وفطرته كما ذكرنا سابقاً. وللجمال الفني عاملٌ دافعٌ هو النيَّة، وعاملٌ منظم وهو الموازنة.

وبذلك يتميز الأدب الملتزم بالإسلام من غيره من الآداب ليكون أعمق في البعد الإنساني، وأطهر في الجمال الفني، وأوسع ساحة ومدى، فساحته ومداه الحياة كلها والكون كله.

وإذا لم يكن الأدب والفنُّ كله قوة للحق والصلاح في الأرض وعبادة الله - سبحانه وتعالى - فمن أين يأتي له الجمال أو يعطي الجمال؟! وما حاجة الإنسان له عندئذٍ؟! ولا يقوم بذلك إلا الأدب الملتزم بالإسلام.

(١) انظر: تاج العروس للزبيدي، كلمة (أدب).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط.







أعزاءنا الكرام ..

استمراراً لتواصلنا معكم،،
وامتداداً لرسالة الدرر السنية في تقديم كل ما هو مميز ومفيد، من درر العلوم والمعارف الإسلامية.

فيسرنا أن نعلن لكم عن خدمة جوال الدرر

وهي خدمة جديدة من موقع الدرر السنية نرسل من خلالها رسائل نصية (SMS) إلى جوالات المشتركين وتحتوي خدمة جوال الدرر على سبع قنوات متنوعة ؛ في كل يوم قناة ؛

١- **السبت:** تعريف بأفضل طبعة وكتاب في موضوع معين.
٢- **الأحد:** نقولات مختارة من أقوال العلماء الربانيين.
٣- **الاثنين:** تعريف بدولة إسلامية عبر التاريخ.
٤- **الثلاثاء:** توجيهات وفوائد لطلبة العلم والدعاة.
٥- **الأربعاء:** منوعات وفوائد تاريخية ولغوية.
٦- **الخميس:** تعريف بكتاب مهم ومفيد ننصح بقراءته.
٧- **الجمعة:** فوائد عقدية ومنهجية وحديثية وفقهية.

هذا بالإضافة إلى رسائل المناسبات الموسمية.

(١)
أفضل نسخة لصحيح البخاري، الطبعة الأميرية ببولاق وتسمى السلطانية نسبة إلى السلطان عبد الحميد الثاني الذي أمر بطبعها عام ...

(٢)
قال ابن تيمية، ليس للإنسان أن يحضر الأماكن التي يشهد فيها المنكرات ولا يمكنه الإنكار إلا لموجب شرعي، مثل...

(٣)
الدولة الحمدانية، أسسها ناصر الدولة الحمداني في الموصل عام ٣١٧ هـ ويقيت إلى عام ٣٨٩هـ، ثم في حلب على يد سيف الدولة ...

(٤)
يصادف طالب العلم أسماء طبعات قديمة لبعض الكتب كطبعة بولاق والطبعة البابية والميمنية والسلطانية فما معنى هذه الطبعات؟

(٥)
من المصطلحات الغربية التي طغت على الكتابات العربية، الإيديولوجية والتكنوقراط ...

(٦)
كتاب (أثر التقنية الحديثة في الخلاف الفقهي) لهشام ابن عبد الملك آل الشيخ فريد في بابه...

(٧)
أصل الإيمان في القلب وما كان في القلب فلابد أن يظهر موجبه ومقتضاه على الجوارح ...

وأخيراً ..

لم نجعل رسائلنا متخصصة في مجال واحد ، حتى تكون الفائدة عامة ولأكبر عدد من فئات المجتمع.

باقة الرسائل اليومية :

للاشتراك: أرسل الرقم ١ إلى الرقم ٨٠٢٨٠
علماً بأن التكلفة ٤٠ هللة يوميا (١٢ ريال شهريا)
مهما كان عدد الرسائل المرسلة.
لالغاء الاشتراك: أرسل الحرف غ إلى الرقم ٨٠٢٨٠

باقة الرسائل الأسبوعية :

وهي خدمة مجانية من موقع الدرر السنية ويمكنك تسجيل رقم جوالك من خلال الموقع على الانترنت www.dorar.net



الأدب الإسلامي: إلى أين يمضي؟

د. مأمون فريز جرار

الأدب الإسلامي ظاهرة جديدة قديمة: جديدة؛ لأنها وجدت من يروّج هذا المصطلح «الأدب الإسلامي» ويتبنّاه، فيكتب فيه المقالات والبحوث والكتب، وينشئ له رابطة عالمية لها مكاتبها الإقليمية والفروع، وتعقد له المؤتمرات والندوات، وأصبح الأدب الإسلامي مادة تدرس في جامعات في المشرق والمغرب، بل صار تخصصاً تُنال فيه الدرجات العلمية العالية.

وهو ظاهرة قديمة في الفعل، وإن لم ينتشر مصطلحاً، فالأدب الذي نشأ في ظلال العهد النبوي، نصرةً لله ورسوله ﷺ ودفعاً عن الدين، كان أدباً إسلامياً امتدّ من بعدُ في القرون يحمل الرؤية الإسلامية للوجود والحياة، ويعبِّر عنها تعبيراً فنياً، مع وجود انحرافات هنا وهناك تمثلت في الرؤية الدنيوية المنبتّة العلاقاتِ مع الآخرة، المبنية على عالم الشهادة، والمنغلقة عن عالم الغيب.

هذا الأدب الإسلامي القديم الجديد لقيَ التجاهل حيناً من رواد الأدب الذين نَأَوْا به في تصورهم عن قيود الدين؛ لأنهم رأوا في الأدب المنطلق أو المنفلت إبداعاً لا يملكه الأدب الإسلامي، وجعلوا موازينهم موازين الغربيين لا القيم الإيمانية.

ولقي الأدب الإسلامي الرفض من طرف أولئك، فهاجمه من هاجمه ونفى أن يكون هناك أدب مرتبط بالدين: أدب إسلامي أو مسيحي أو يهودي.

ومع ذلك استطاع رواد الأدب الإسلامي في العصر الحديث تجاوز العقبات والتجاهل والمعارضة، وها هي مكتبة الأدب الإسلامي تنمو وتكبر، وكم صارت الحاجة ملحة لإصدار طبعة جديدة من دليل مكتبة الأدب الإسلامي! ليرى المعارضون والمتجاهلون ثمرات هذا الأدب في الإبداع والدراسات النقدية: في الشعر والقصة والرواية والمسرحية والخاطرة والسيرة وأدب الرحلة، وفي النقد التنظيري لفنون الأدب المختلفة، وفي النقد التطبيقي لشعر وشعراء، ونصوص قصصية وأدباء، وفي إعادة النظر في تاريخ الأدب، وفي ترجمة نصوص أدبية من العربية إلى اللغات الأخرى، ومنها إلى العربية.

يضاف إلى ذلك كله - وهو شيء كثير - هذه الدوريات التي تتبنّى الأدب الإسلامي وتنطق باسمه، وهي دوريات لعلها تبلغ العشر، في طليعتها مجلة (الأدب الإسلامي) التي تصدر عن رابطة الأدب الإسلامي، ومجلتا (قافلة الأدب) في باكستان والهند، ومجلة (المشكاة) التي تصدر في المغرب.

وقد استطاع عدد غير كبير من الأدباء الإسلاميين احتلال مكان مرموق في خريطة الإبداع الأدبي في عدد من بلاد العرب، ولن يكون ذلك الأدب دون المأمول إن شاء الله.

والآن ماذا عن مستقبل الأدب الإسلامي؟

وللإجابة عن هذا السؤال لا بد من تحديد مرادنا لهذا المستقبل وتصوّرنا له.

الأدب الإسلامي أدب رسالي، هو جزء من أدوات الدعوة؛ يهدف إلى نشر الرؤية الإسلامية والتصور الإيماني، وإمتاع المؤمنين بفنون الأدب المختلفة من غير إخلال بالضوابط الشرعية. وحتى يحقق هذا الأدب رسالته لا بد أن ينتشر بين الناس لا المؤمنين وحدهم؛ لأنه وسيلة إلى نشر الإسلام بأسلوب فني محبّب رشيق، وهذا يقتضي مواصفات فيه تجعله رائجاً مقبولاً لا محصوراً بالمتدينين وحدهم.

في ضوء هذا التصور ومن خلال مراجعة مسيرة رابطة الأدب الإسلامي العالمية خلال سنوات وجودها يمكن أن أقول: إنني غير متفائل بمستقبل الأدب الإسلامي، وهذا الأمر لا يقتضي التشاؤم بل يدفع إلى العمل لإصلاح الخلل.

إنني غيـــر متفائل؛ لأن العاملين للأدب الإســـلامي لم يســـتطيعوا اختراق أســـوار الحصار في وســـائل الإعلام، وأخص منها المطبوعة من جرائد ومجلات؛ فما تزال أسماء أكثرهم مجهولة لدى الجمهور على كثرة إنتاج عدد غير قليل منهم، فليس للأدباء الإسلاميين حضور إعلامي جماهيري، والعاملون للأدب الإســـلامي مقصِّرون في حق أنفسهم في التعريف بالأدب الإســـلامي ونقده، وهو أمر أتقنه الآخرون أكثر من الإســـلاميين، ولهذا نجد رموز الأدب من شـــعراء وقاصّين وكُتّـــاب رواية، بل أعلام الكتابـــة الصحفية، من ذوي الاتجـاه غيـر الإســـلامي؛ مما يجعل في أيديهم أدوات التأثير وصناعة الرأي العام والتوجيه الأدبي.

ومـــن العوامل التي لا تدعو إلى التفاؤل ضيق مســـاحة منشـــورات الأدب الإســـلامي من كتب ومجلات، وانحصار قرّائهـــا في المتدينين. وأضرب على ذلك مثلاً: مجلة (الأدب الإســـلامي) التي كان يصل إلى الأردن منها ثلاثمائة نسخة تُـــوزّع من خلال إحدى وكالات التوزيـــع، وكان المرتجع منها كبيراً والمباع قليلاً، وقد كان العدد أول الأمر خمســـمائة، ثم توقفت الوكالة عن توزيع المجلة، وقد سعى الإخوة في المكتب الإقليمي في الأردن لدى وزارة التربية والتعليم لشراء المجلة للمكتبات المدرسية، وهي خطوة جيدة لكنها قليلة الأثر؛ لأن المكتبات المدرســـية شـــبه معطّلة؛ لافتقـاد الحصـة المكتبية وقلّـة الوقت المتاح للطلبـة للانتفاع بما فيها.

ولكنّ هنـــاك نقاط مضيئة في هـــذا الجو المعتم تجعل الأمل في المســـتقبل يأخذ مســـاحة أكبر؛ فوجود الإذاعات الإســـلامية والمحطات الفضائية (الإســـلامية) مع تحفّظ بعض الإســـلاميين على بعضها، هذا الأمر إن أحسن الأدباء الإسلاميون التعامل معه يمكنهم أن يروِّجوا الأدب الإسلامي من خلال الوســـائل المتاحة بالبرامج الأدبية المتنوعة، وهذا يتيح للمشاهدين والمستمعين المجال لمعرفة الأدب الإسلامي والانتفاع به.

ومثل ذلك مواقع الإنترنت، وأضـــرب عليها مثلاً طيباً، هو (رابطة أدباء الشام) التي استطاعت استقطاب أدباء من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وصارت مرجعاً مهماً للأدب الإسلامي؛ لأن هذا الموقع يحتفظ بمواده، ويستطيع القارئ الرجوع إليه للاطلاع على ألوان من الأدب الإسلامي.

• وقفة مع رابطة الأدب الإسلامي:

هذه الرابطة الأدبية العالمية التي يمكن أن نعدّها «الإطار العام» الجامع لدعاة الأدب الإســـلامي ومنتجيه. لقد نمت الرابطة نمواً عَرْضياً أو أفقياً طيباً، فافتتحت مكاتب إقليمية شـــملت مواقع كثيرة من المغرب غرباً حتى بنغلاديش شرقاً، ولعـــل هذه المكاتـــب تبلغ عند كتابة هذا المقال أحد عشـــر مكتبـــاً إن لم تكن أكثر من ذلـــك، ويتبع بعض المكاتب فروع. وللرابطة مجلاتها وإصداراتها من الكتب، وللمكاتب أنشطة في لقاءات أدبية أسبوعية أو نصف شهرية، ولها مسابقاتها ومواســـمها الأدبية، وكل ذلك علامة عافية طيبة، لكن الذي يقلـــق أن هناك «اعتماداً» مالياً من الفروع على المركز يجعل أكثرها معرّضاً لهزّة عنيفة إن حدث أمر ما قطع هذا المدد: فميزانيـــة أكثر المكاتب تعتمد في نصفهـــا أو أكثر من ذلك علـــى المدد المركزي، ولا يخفى مـــا في هذا الأمر من الخلل والإشكال.

وأمر آخر مهم وهو أن العمل في الرابطة في أكثر الأحيان لم يرتقِ إلى «المؤسسية» بل يعتمد على «الجهد الفردي» الذي يصل بصاحبه إلى درجة الإرهاق؛ فقد وهب عدد قليل وقتهم للرابطة وشـــؤونها، واســـتنام كثير من الأعضاء بدعوى أن الأمور تسير على ما يرام، وإن يكن آخرون من المتفرجين قد يتهمون «العاملين إلى حدِّ الإرهاق» بالدكتاتورية والاســـتئثار بالعمل! فإلى الله المشـــتكى وحده، وبخاصة أن رضا الناس غاية لا تدرك.

وأختم بالسؤال: إلى أين يمضي الأدب الإسلامي؟

هذا الســـؤال يلقي بمســـؤولية كبيرة على كل من يؤمن بالأدب وسيلة دعوة؛ ليدرك الواقع ويستطلع المستقبل، وليزرعَ اليوم ما يكون حصاداً طيباً في المستقبل بتوفيق الله تعالى.

المطلوب من الأدباء الإســـلاميين، ليحققـــوا واقعاً طيباً ومستقبلاً مشرقاً للأدب الإســـلامي، أن ينتقلوا من مرحلة الهواية إلى مرحلة الاحتراف.

والمطلوب من الباحثين في الأدب الإســـلامي أن يرتقوا إلـــى مرحلـــة النقد المنهجي لهـــذا الأدب؛ لفـــرز الغثّ من السمين، ووضع الأمور في نصابها بعيداً عن المجاملة وبعيداً عن التجريح الذي يمزج بين الشخص والنص.

والمطلـــوب من الأدباء الإســـلاميين أن يتحلّـــوا بالروح الإيمانيـــة التي تقبل النقد/ النصيحة - كما ســـمّاه الدكتور عدنان النحوي - ومن لم يســـتطع شيئاً ولم يصلح لمجال من الأدب فله مجالات أخرى قد يصلح لها.

والمطلوب احتضان البراعم الأدبية الناشئة وتنميتها فنياً وتحصينها إيمانياً؛ لتكون أشجاراً طيبة تؤتي الثمرات النافعة في الدنيا والآخرة.



الشاعر الإسلامي
الدكتور عبد الرحمن بن صالح العشماوي
في حوار مع مجلة (البيان)

حاوره في الرياض: محمد شلال الحناحنة

الشاعر الإسلامي الدكتور عبد الرحمن بن صالح العشماوي شاعرٌ له حضور إعلامي واسع، وله عدة دواوين شعرية. وفي ثباته على الحق، وتألقه شعراً ونثراً، إثارةٌ لكثير من الحداثيين، مدعين تارة أنه يكرر نفسه، وتارة أنّ شعره يخلو من الوهج الفني، وعبارات كالهباء طائرة لا تستحق الوقوف عندها ـ على حدّ قوله. وقد التقيناه أخيراً في حوار مفتوح عن الحداثة والأدب الإسلامي، إبداعاً وتنظيراً، وقضايا أخرى، فإلى هذا اللقاء!

البيان: يشير بعضهم أنَّ هناك تيّاراً تغريبيّاً يسيطر على كثير من وسائل الإعلام، ويقدّم الرديء في عالمنا الإسلامي، ما رأيك بذلك؟ وما السبيل إلى مقاومته؟

■ التيار التغريبيُّ في وسائل الإعلام العربية ظاهرٌ لا يحتاج إلى تأكيد، بل هو التيار الأبرز في معظم تلك الوسائل، وهو نتيجة طبيعية لذلك المدِّ الثقافي الأدبي والفكري الذي تأثّر به عدد كبير من أبناء العرب والمسلمين، وأصبحوا سفراءَ له في بلادهم، ولكنهم ـ كما نعلم ـ سفراءُ شرٍّ غالباً لا ينقلون عبر الوسائل التي تتاح لهم بصورة كبيرة إلا شطحات الغرب ومنزلقات فكره وانحرافات سلوكه. أما السبيل إلى مقاومته فهو موجود ولكنه يحتاج إلى حضور أكبر، ودعم مادي ومعنوي أقوى. إنَّ جميع المواد الإعلامية التي تقدَّم عَبْر وسائل الإعلام، من خلال تصوُّر إسلامي سليم، قادرة على مقاومة ذلك التيار التغريبي مهما صال وجال، وفُتح له المجال.

فئة التيار التغريبي في وسائل الإعلام العربية ظاهرة لا تحتاج إلى تأكيد، وهم سفراء شر للغرب ينقلون غالباً شطحاته ومنزلقاته الفكرية وانحرافاته السلوكية!

ولو أنَّ الغيورين من رجال الأعمال المسلمين التفتوا إلى هذا الجانب المهم لرأيت كيف تنقلب الصورة، وكيف تسري روح الخير بين الناس سريان ماء النهر الصافي الرَّقراق، لأن الحقَّ يخاطب الفطرة البشرية التي هي في أصلها فطرة سليمة.

البيان: دعني أسأل: ألدينا نظرية واضحة المعالم في أدبنا العربي، أم أننا لمْ نزلْ نجترّ النظريات الغربية الوافدة منذ قرن تقريباً؟

■ نعم! لدينا نظرية واضحة في أدبنا العربي الذي ينبثق من التصوُّر الإسلامي، وهو ما يندرج في الفترة الأخيرة تحت مصطلح «الأدب الإسلامي». إنها نظرية الأدب النظيف الرَّاقي، نظرية التَّوازُن بين سموِّ المضمون وجمال وفنِّية الشكل، وهي نظرية متميِّزة تكوِّن شخصيَّة مستقلَّةً لأدبنا العربي الإسلامي، ويمكن أن يجد فيها غير المسلمين صورةً جديدةً بالنسبة إليهم تخالف ما هم عليه من انحراف فكري وهزيمة روحيةٍ أمام الزَّحف المادي الإلحادي الذي أكل أخضرهم ويابسهم. إن المثقف الغربي في فرنسا وبريطانيا وغيرهما يؤكد - كما نشر ذلك أكثر من مرة، وكما عرض ذلك من خلال لقاءٍ مع بعض المثقفين الفرنسيين في برامج ثقافة فضائية - أنه يُصدَمُ بما يترجم من الأدب العربي الحداثي أو غير الحداثي مما هو متأثر ببعض المذاهب الغربية؛ لأنه لا يرى فيه إلا صورة الرؤية الثقافية الغربية منقولة إليه بالترجمة من اللغة العربية، وكأن ذلك المثقف الغربي يقول: «هذه بضاعتنا رُدَّتْ إلينا»! وهنا تأتي مسؤولية الأدب الإسلامي ومبدعيه ونقَّاده.

البيان: لك موقف محدّد من الحداثة التي ما زالت تثير جدلاً في الواقع الأدبي العربي: ما خلاصة موقفك منها؟

■ خلاصة موقفي من الحداثة «الرفض لمصطلحها المحمَّل بالتمرُّد على القيم والأخلاق، وإشاعة الانحراف في فكر الإنسان وثقافته» فصورة هذا المصطلح واضحة جداً إلى درجةٍ لا ينفع معها التلفيق ولا التأويل؛ فالحداثة منهج وأيديولوجية، وليست تجديداً في الأدب ولا تحديثاً في شكله فقط كما قد يتبادر إلى أذهان غير المطَّلعين عليها وعلى مسيرتها بعمق.

أرفض مصطلح الحداثة المحمّل بالتمرد على القيم والأخلاق، وإشاعة الانحراف في فكر الإنسان وثقافته!

وهذا المنهج يناقض الرؤية الصحيحة للكون والحياة والإنسان، أي أنَّه يناقض الإسلام. ولو كانت الحداثة تعني التجديد في الأدب، كما هو معروف في مسيرة الطبيعة عبر العصور، لما وجدَتْ منَّا إلا التعامل اللائق بكل تجديدٍ صحيح.

البيان: يثار أحياناً أنَّ الالتزام بالإسلام يعيق الإبداع في العمل الأدبي، فكيف تنظر لهذه المسألة؟

■ النماذج الأدبية شعراً ونثراً، قديماً وحديثاً، من الأدب الإسلامي مطروحة بين أيدي القراء والنقَّاد، وفيها من سمات الجودة الفنية والإبداع ما لا يخفى على متذوِّق. أما العبارات الطائرة كالهباء في الفضاء فلا قيمة لها في ميزان النقد البنَّاء كعبارة «الالتزام الإسلامي عائق في طريق الإبداع الأدبي».

لدينا نظرية أدبية واضحة في أدبنا العربي الإسلامي هي نظرية التوازن بين سموّ المضمون وجمال وفنية الشكل!

اسمح لي أخي الكريم أن أقول: هذه ليست عبارة نقدية ولكنها «أُمنيّة» في قلوب المناوئين للأدب الإسلامي يردِّدونها على شكل «عبارة نقدية» وإنَّ النقد الأدبي الصحيح منها لَبَراء. نحن نطالب بالدراسة النقدية لهذا الأدب ثم إطلاق الحكم بعد ذلك.

وأذكِّر هنا بموقف أستاذي الذي أشرف على رسالتي

نماذج الأدب الإسلامي فيها من سمات الجودة الفنية والإبداع ما لا يخفى على ناقد ومتذوق!

للدكتوراه بعد وفاة مشرفها الأول الدكتور عبد الرحمن الباشا رحمه الله؛ وهو الدكتور الشاعر المسرحي (أنس داود) رحمه الله؛ فقد كان غير مؤمن بفكرة الأدب الإسلامي، وكان يسارياً على منهج (صلاح عبد الصبور) وأمثاله، وكان رأيه أن الأدب الإسلامي ضعيف فنّياً، ونفى الإبداع عن الكاتبين الروائيين الإسلاميين الكبيرين (علي أحمد با كثير، ونجيب الكيلاني) رحمهما الله. وجدت بيني وبين الدكتور أنس مناقشات طويلة تميَّزت بالوضوح والصراحة كشفت لي أن الدكتور لم يقرأ إلا صفحات متفرّقات من روايات الرجلين، وحينما عاتبته على هذا الموقف مع أنه أكاديمي وأستاذ جامعي قال لي: لقد كنا في اجتماعات (شللنا) اليسارية نتواصى بعدم قراءة أدب غير الأدب اليساري أو ما شابهه من الآداب المتأثرة بالغرب حتى لا ترتكس أذواقنا. ثم اتفقت مع الدكتور أنس على أن يقرأ بعض روايات باكثير والكيلاني؛ فما مضى عليه شهر - رحمه الله - حتى تغيَّر رأيه إلى النقيض تماماً، وقسْ على هذا أشباهه ونظائره.

البيان: أخيراً، ألسنا بحاجة إلى إبداع أدبي إسلامي يفرض نفسه على الواقع في ساحاتنا الأدبية قبل التنظير للأدب؟

■ الإبداع الإسلامي موجود، ووجود التنظير مهم في زَمَنٍ تقوم فيه آداب العالم على رُؤى ونظريات فلسفية متعدِّدة، وإنما ندعو إلى مضاعفة الجهد من الأدباء الإسلاميين، وإلى الحرص على الحضور الإعلامي والثقافي عبر الوسائل والمنتديات والندوات والمهرجانات، وهذا الحضور يحتاج إلى إبداع أدبي، وثقةٍ كاملة بالنفس، وعدم الخوف من هجوم المناوئين من باب (خذ الكتاب بقوة)، وصاحب الحق إذا أتقن عمله لا يخاف أحداً ولا يتردَّد.

أدعو إلى مضاعفة الجهد من الأدباء الإسلاميين، وإلى الحرص على الحضور الإعلامي والثقافي.

البيان: أنت شاعرٌ إسلامي مَعْروف، ولك عدة دواوين شعرية، ولكن كيف تردّ على من يدّعي أن الشاعر الإسلامي ما زال يكرّر نفسه مبتعداً عن المجال الفني؟

■ أعيد كلاماً قلته آنفاً: الأقوال الطائرة كالهباء في الفضاء لا تستحق الوقوف عندها. قيل عن شعري ما ذكرته يا أخي الكريم وأكثر مما ذكرت، وأنا - في الشعر - كأي شاعرٍ لا يمكن أن يكون شعره على وتيرةٍ فنية واحدة، ولكنَّ الفيصل في هذا الدراسة النقدية.

كلُّ من طرحوا عليَّ هذا السؤال وأمثاله أجبتهم وسأظل أجيبهم بجواب واحد: اقرأ إنتاجي ثم احكم، وستجد أني شغوف بالإصغاء إليك والإفادة من حكمك. المجال الفني ليس حكراً على أحد؛ فهو ساحة مفتوحة لنا ولغيرنا، والوسائل الحديثة قرَّبت البعيد وأثْرَتْ تجارب المبدعين الذين يملكون ناصية الإبداع بصرف النظر عن اتجاهاتهم، وهنا تتهاوى العبارات الطائرة المجحفة التي ترتكس بالنقد إلى زمن عبارات (أشعر الناس) و (أخطب الناس) و (أضعف الشعراء) وما شابهها؛ التي لا تسمن في النقد ولا تغني من جوع.

البيان: قال أحد نقاد الحداثة عنك قبل سنوات: (عبد الرحمن العشماوي شاعر كبير لو أراد)..: ما المعنى الذي تقرؤه في هذه العبارة؟ وما سبب ما قيل عنك؟

■ الأولى أن يوجَّه السؤال إلى الذي قال هذه العبارة؛ لأنه هو الذي يملك التفسير الصحيح لمعناها، ولماذا نشغل أنفسنا بعبارات عائمة؟!

أقول لمن يدّعي أنني أكرر نفسي وأبتعد عن المجال الفني: اقرأ إنتاجي بإنصاف ثم احكم، وستجد أني شغوف بالإصغاء إليك والإفادة من حكمك!



الصفويون الجدد ومحاولات وتشييع العراق د. فرست مرعي

دور العالم الخارجي في تأجيج الفتنة الداخلية الفلسطينية
د. السيد عوض عثمان

العالم الإسلامي ومعضلة التنمية - المشكلة والحل
د. الخضيري علي السيد





الصفويون الجدد ومحاولات تشييع العراق

د. فرست مرعي

لقد شاع في الآونة الأخيرة مصطلح (الصفويون الجدد) كتعبير رمزي على ما ارتكبه أجدادهم القدماء من أعمال وحشية بالسنة في إيران حتى حولوهم إلى إقلية وسيأتي بيانه، ثم ما عملوه بسكان العراق من أهل السنة والجماعة، وتدمير العاصمة بغداد؛ وتحديداً المراكز الإسلامية والثقافية التي تتمتع بالشهرة من المعرفة العلمية التي تمتلكها، وأعادوا للأذهان بأفعالهم هذه ما ارتكبه سلفهم (هولاكو) وأحفاده.

ولا يخفى على أحد من المثقفين والباحثين في تاريخ العراق الحديث أن الصفويين غزوا العراق عدة مرات: في المرة الأولى عام ١٥٠٨م بقيادة مؤسس دولتهم الشاه إسماعيل بن حيدر بن جنيد الصفوي، الهالك ١٥٢٤م، بعد أن عمل على تشييع إيران بقوة السيف عام ١٥٠١م، والذي قام بعد استيلائه على بغداد بتدمير مسجد الإمام أبي حنيفة النعمان الواقع في شمال بغداد ضاحية الأعظمية ومسجد الشيخ عبد القادر الكيلاني الواقع في شرق بغداد، وحوّلهما إلى إصطبلات لحيواناته. كما قام بعمليات ذبح منظمة لأهل السنة في بغداد. فقد نسب المؤرخ العراقي المشهور (عباس العزاوي) إلى صاحب منتخب التواريخ قوله: (إن الجيوش الصفوية قتلت الكثير من مخالفيها من أهل السنة والجماعة بعد دخولها مدينة بغداد)، كما نسب أيضاً إلى صاحب قلائد الجواهر قوله: إن الشاه إسماعيل الصفوي ضرب إحدى الزوايا (التكايا) المهمة في مدينة بغداد (مسجد الشيخ عبد القادر الكيلاني). أما العالم الشيعي (ضامن بن شدقم العلوي الحسيني) فإنه يقول: «إن الشاه إسماعيل الصفوي بعد احتلاله بغداد، فعل بأهلها النواصب (يقصد أهل السنة) ذوي الصغار ما لم يسمع بمثله قطُّ في سائر الدهور!».

ومن جهة أخرى، فإن المستشرق البريطاني (إدوارد براون) يصف الشاه إسماعيل الصفوي قائلاً: «إذ هو من جهة كان قاسياً متعطشاً للدماء إلى حد يكاد لا يصدق. بينما كان من الجهة الأخرى وسيماً ذا أخلاق رقيقة! محبوباً لدى

جنوده إلى درجة العبادة، حتى إنهم كانوا يرمون بأنفسهم إلى ساحة الحرب من غير دروع؛ (زاعمين) بأنه يحميهم من الخطر عند القتال». ويروى عن الشاه إسماعيل أنه عندما استولى على تبريز في بداية أمره وأراد فرض التشيع على أهلها بالقوة عام ١٥٠١م، نصحه بعض مستشاريه من (رجال الدين)! أن لا يفعل ذلك؛ بحجة أن ثلثي سكان المدينة من أهل السنة، وأنهم لا يصبرون على سب الخلفاء الراشدين على المنابر، ولكنه أجابهم قائلاً: «أنا مكلف بذلك، وإن الله والأئمة المعصومين معي! وإني لا أخاف أحداً؛ فإذا وجدتُ من الناس كلمة اعتراض شهرت سيفي بعون الله فيهم؛ فلا أبقي منهم أحداً حياً». كما أن الشاه إسماعيل اتخذ من سب الخلفاء، وبخاصة (أبي بكر، وعمر، وعثمان) وسيلة لامتحان الإيرانيين، فمن يسمع السب منهم يجب أن يهتف قائلاً: (بيش باد، كم مباد)، وهذه العبارة تعني في اللغة الأذربيجانية التركمانية أن السامع يوافق على السب ويطلب المزيد منه، أما إذا امتنع السامع عن النطق بهذه العبارة؛ قطعت رقبته حالاً. وقد أمر الشاه بأن يعلن السب في الشوارع والأسواق وعلى المنابر؛ منذراً المعاندين بقطع رقابهم (عامله الله بما يستحق).

في عام ١٦٢٣م، قام الشاه عباس الصفوي حفيد إسماعيل الصفوي بغزو العراق من جديد، ودخل بغداد وقام بالأعمال الهمجية نفسها التي قام بها جده إسماعيل من تدمير مسجدي الإمام أبي حنيفة والشيخ عبد القادر الكيلاني. كما طلب من معاونيه ومن عملائه الصفويين في بغداد تنظيم جدول بأسماء أهل السنة في بغداد تمهيداً لاستئصالهم. وحول همجية الشاه عباس الصفوي وبشاعة أعماله، يضيف المؤرخ العزاوي قائلاً: « ثم إن أهل السنّة المسجلين في دفتر الشاه قُتلوا جميعاً، ومَثّلوا ببعض العلماء وأذاقوهم أنواع العذاب والأذى، وقضوا عليهم بصورة يقشعر منها بدن الإنسانية».

وبخصوص أصول (أسرة الحكيم)، فإنها ترجع في حقيقة الأمر إلى مدينة (بروجرد) الواقعة في أقليم لورستان الإيراني، وقد ادّعوا أن نسبهم يرجع إلى الحسن السِّبط - رضي الله عنه -، وأن جدهم المير (هذا المصطلح خاص بالفرس واللور) عليّ بن مراد بن شاه صَحِب الشاه عباس الصفوي عندما غزا العراق وكان طبيبه الخاص، وعندما انتهت مهمة الشاه عباس في العراق طلب المير علي من الشاه عباس السماح له بالإقامة في النجف، فأجازه وأقام بها إلى أن مات، فيما كان جد عبد العزيز الحكيم (مهدي ابن صالح بن أحمد) قد توفي في جبل عامل في جنوب لبنان سنة ١٨٩٤م، وقد خلفه كل من: محمود، وهاشم، ومحسن؛ وهو والد محمد باقر الحكيم وعبد العزيز الحكيم.

ولذلك فإن أحد الكتّاب الشيعة من أهالي الجنوب العراقي المدعو (عادل حسين)، قد أشار إلى سِجلّ محمد باقر الحكيم شقيق عبد العزيز الحكيم بقوله: «أسألك بالله العظيم أيها القارئ الكريم: ماذا تحكم على من يدعي الدفاع عنا (يقصد به محمداً باقر بن محسن الحكيم) وسِجلُّه المدني كما يلي: والده عربي (لوري - فارسي)، هو عراقي + إيراني، والدته عربية من لبنان من شيعة جبل عامل، زوجته تركية من أهالي تبريز، أولاده إيرانيون حسب بطاقاتهم الشخصية، أخوه من أبيه هندي، ابنته متزوجة من إيراني.. أريد فقط أن أتساءل: أهذه أمم متحدة؟ مجلس أمن؟ يونسيف؟ كيف أنا الجنوبي (من جنوب العراق حيث مركز تجمُّع الشيعة العراقيين) يدافع عني شخص بهذه المواصفات الغريبة والعجيبة؟ وشخص مثل هذا درجة انتباهه صفر، ودرجة تفهمه للأمور أيضاً صفر، لا يمكن بأي حال من الأحوال التعويل عليه! هذا شخص غريب عني، حتى ولو كان أبوه من فاتحي أفريقيا وجده من فاتحي بلاد ما وراء النهر. مؤتمر مثل مؤتمر لندن على درجة كبيرة من الأهمية لا يحضرونه؛ خوفاً من أن يغضب الرهبر (القائد) [يقصد به علي الخامنئي]! أما التسول الرمضاني السنوي في دولة الكويت والتسكع في ديوانيات الشيعة؛ فهذا - مولانا - جائز ولا إشكال فيه!».

وكان العراق بعد مرور تلك القرون المظلمة ينتظر الخلاص من جزّاريه الذين طالما أثخنوه بالقتل والتدمير؛ فإذا به في بداية القرن الحادي والعشرين يتعرض لموجة

غـــزو صفوية جديدة منظمة من داخله تبعاً لخارجه، ونقول هجمـــة (منظمة)؛ لأنها تدرس وتبحث بخطط جهنمية عما تريد تدميره من إرث أهل الســـنة، من النواحي الجغرافية والديموغرافية (السكانية) والتاريخية؛ حيث يمكن الاستفادة من موروث الشيعة التاريخي القائم على أصل التقية، فبينما يقوم الصفويون الجدد أحفـــاد الصفويين القدماء بأعمال يندى لها جبين الإنســـانية، من: قتـــل وتدمير وتهجير بحق أهل الســـنة، يتظاهرون في الوقت نفسه بالمظلومية والغبن التاريخي، ويطالبون بحقوق الإنسان والتعددية وبناء العراق الجديد، ويُلقُون تبعية هذه الأعمال على خصومهم من أهل السنة، ويتهمونهم بالإرهاب والتكفير والصداميين.. وغيرها من الألقاب والمســـميات التي حيكت بـــكل عناية في دوائر القرار السياســـي في مقرات الأحزاب الشـــيعية، وتحديداً فيما يسمى سابقاً بـ (المجلس الأعلى للثورة الإسلامية) في العراق بإشراف السفير الإيراني في بغداد.

• مراحل التشييع وأبرز أدلتها:

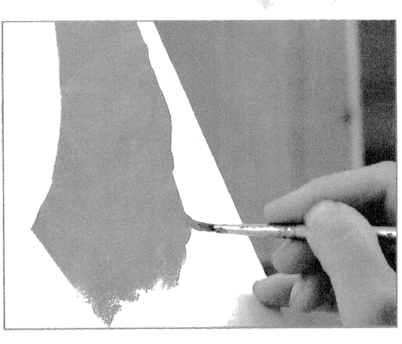
خرج لنا إبراهيم الأشيقر الجعفري رئيس حزب الدعوة ورئيس وزراء العراق الســـابق، بمصطلحات الوحدة الوطنية وضرورة بنـــاء العراق الجديد، كما أن خلفه وشـــريكه في حزب الدعوة (نوري المالكـــي) دائماً ما يخرج لنا بمصطلح المصالحة الوطنية؛ وهما فـــي الحقيقة أبعد ما يكونان عن هذه المصطلحات الإنســـانية الفضفاضة؛ فهما ينفّذان بكل صلافة وحقد تاريخي مزمـــن مخططاتِ الصفويين الجدد القاضية بتشـــييع بغـــداد وضواحيها فـــي المرحلة الأولى، عن طريق قتل النخب العلمية والسياســـية والعســـكرية من أهل الســـنة، وتهجير الباقين إلى صحراء منطقة الرمادي وتكريـــت. ومن ثم تنفيذ **المرحلة الثانية**، وهي: الســـيطرة على محافظة ديالى حيث الغالبية الســـنية؛ تمهيداً لتأمين الطريق بين إيران والعاصمة بغداد، ومن ثم الســـيطرة على مدينة ســـامراء بحجة كونها إحدى ما يسمونه بـ (العتبات الشيعية المقدســـة)! حيث تحوي أرضها مرقدَي الإماميين العاشر والحادي عشر للشـــيعة، فضلاً عن السرداب الذي اختفى فيه مهديهم المزعوم.

وســـامراء تمتاز بأنها مدينة ســـنية تاريخية، لها إرث وماضٍ عريق، وقد حاول المرجع الشيعي الإيراني الشيرازي تشـــييعها في نهاية القرن التاسع عشر عن طريق بناء حوزة شـــيعية فيها، ولكنَّ حذَر أهلها وإبلاغ السُّـــلطات العثمانية بهذا المخطط، جعلت من الأخيرة تقوم بإخراجه من سامراء؛ لكونه إيرانياً، حيث غادرها إلى كربلاء، وبذلك وُئد المخطط الشـــيعي. أما الآن، فإن المخطط في طريقه للتنفيذ؛ حيث أشـــار إلى ذلك المتطرف الشيعي (ياسر الحبيب) المحسوب علـــى التيار الصدري؛ حيث ذكر صراحة أن على الشـــيعة السيطرة على سامراء، وأن ضريحي الإمامين الشيعين أكثر تعظيماً وقدسية من البيت المقدس!

أمـا المرحلة الثالثة فســـتضمن تشييع كركوك والمناطق الشـــرقية التي تفصلها عـــن إيران؛ حتـــى تصبح الحدود الإيرانيـــة العراقية في مأمن من كردســـتان شـــمالاً حتى البصرة جنوباً، لنقل المســـاعدات والدعم اللوجســـتي كلما احتاج الصفويـــون الجدد إلى ذلك؛ حيـــث إن إيران لديها أكثر من خمســـين ألف واجهات علاقات وأعمال إنســـانية وخدمية في الظاهر، ومخابراتية وطائفية في الباطن؛ حيث تزوِّد عملاءها في العراق بـ (٢٢٠,٠٠٠) راتب شهري. لذا، فلا عجـــب أن يتباهى زعيم الصفويـــين الجدد في العراق - حفيد الطبيب الصفوي المرافق للشـــاه عباس الصفوي - (عبد العزيز الحكيم) بالدعم الإيراني، ويعلن في تصريحات صحفية في العاصمة الأردنية عمـــان مؤخراً أنه في حالة حدوث حرب أهلية بين الشيعة والسنة؛ فإن النصر سيكون من حليف الشـــيعة؛ نظـــراً لمعرفته بالدعـــم الإيراني غير المحدود لشيعة العراق بكافة أحزابهم ومرجعياتهم.

وغني عن القول: إن هناك عدداً من دهاقنة الشـــيعة، وهـــم أعضاء في البرلمان العراقي، يقومـــون بالترويج لهذا الغـــزو الصفوي عن طريق تذكيـــر جمهورهم بأن القيادات الســـنية في العراق قامت بزرع تجمعات سنية في ضواحي بغداد لمحاصرة التجمعات الشـــيعية الكبيرة فيها. ومن أبرز هؤلاء: جلال الصغير إمام مســـجد (براثا) الواقع شـــمال غرب بغداد، وهي من المساجد الشيعية المهمة، وصدر الدين القبانجي إمام جمعة النجف وعضو (المجلس الأعلى للثورة الإسلامية) في العراق.





دور العامل الخارجي في تأجيج الفتنة الداخلية الفلسطينية

د. السيد عوض عثمان(*)

من نافلة القول: إن الحركة الاستعمارية تاريخياً، وعبر تجاربها العديدة والمديدة، قد نجحت في تجسيد سياستها المعروفة بـ «فرِّق تسُد»، بل تفننت في ذلك على صعيد شَق الصف الوطني في الدول والشعوب التي خضعت ورزحت تحت نير الاحتلال، بتعمد استمالة فريق أو قوى اجتماعية ونُخَب اقتصادية وسياسية تتوافق مصالحها مع الاحتلال عبر وسائل ووسائط متعددة، عن طريق محاباتها سياسياً واقتصادياً، والإغداق عليها بالمناصب «الوهمية» في إدارة شؤون الاحتلال، والمزايا والعطايا والهبات والإفساد وغض الطرف عنه، بل وتغذيته، بحيث صار موضوعياً مصيرُ ومستقبلُ هذه القوى، ووجودها ومصالحها مرتهنة بالمطلق بديمومة الاحتلال واستمراريته. وهذه القوى، المؤهلة والمستعدة للقيام والاضطلاع بدور وكلاء الاحتلال على الصعيد المحلي، تصطدم بالضرورة مع القوى الأخرى المناهضة لهذا الاحتلال بكافة تعبيراته السياسية والاقتصادية. وفي الوقت الذي تتمسك القوى الوطنية وتعض بالنواجذ على المحرمات الوطنية، وفي القلب منها تجريم وحرمة الدم، ورفض الانجرار - مهما كانت التحريضات والمنغصات والاستفزازات - إلى الاحتراب والاقتتال الأهلي، الذي يمكن أن يفضي إلى اتساع دائرته وتواتر السلوك عليه إلى حرب أهلية طاحنة وضروس، لا سيما إذا ما تمايز النسيج الوطني بعدم التماسك، وبرزت فيه التباينات والاختلافات، سواء المذهبية والدينية أو العرقية، ويبلغ الأمر ذروته في حال التقاء الإقليمية بالطائفية بتعبيراتها وتجلياتها المختلفة..، في ذلك الوقت تحرِّض القوى العميلة للاحتلال والمنفذة لأجندته على حساب الأجندة الوطنية لعموم الشعب، على خرق وتجاوز هذه المحرمات، وتعمل بدأب ومثابرة على تغذية التناقضات الداخلية، وزرع بذور الفتنة الداخلية وتسعيرها، وتعمُّد إرباك الساحة الوطنية، وصرف البوصلة النضالية عن الوصول إلى غاياتها النهائية؛ وهي دحر الاحتلال وتحقيق الاستقلال الوطني والسيادة الكاملة.

(*) خبير في الشؤون العربية.

تنطبق هذه الحقائق والمعطيات بصورة كاملة على الحالة النضالية الفلسطينية منذ تبلور ملامح وبدايات المشروع الصهيوني في إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، ومن ثم التحالف مع القوة المهيمنة على المنطقة، وتبلور الحركة الوطنية الفلسطينية منذ بدايات القرن الفائت، وبخاصة بعد توقيع اتفاقات أوسلو في سبتمبر ١٩٩٣م، حيث تفنن الاحتلال وتفتقت ذهنيته عن بدعة وصيغة «السلطة الوطنية الفلسطينية»، والتي أراد لها أن تُولد من رحم الاحتلال، وأن تكون أداة لتحقيق مصالحه وأهدافه، وذراعَه الأمنية، من خلال العديد من الاستحقاقات والالتزامات والتنسيق الأمني سواء الثنائي أو الثلاثي مع الولايات المتحدة في مواجهة الفصائل الفلسطينية المقاومة، وإضفاء حماية سياسية وقانونية على ظاهرة العملاء والتي تعتبر صداعاً مزمناً في الجسد الفلسطيني السياسي؛ ومنذ بروز إشكالية ثنائية (السلطة - المقاومة)، وتباين وتناقض برنامجهما السياسي، كان الحصاد المر في نبذ المقاومة وإدانة عملياتها المسلحة داخل فلسطين المحتلة، وحرمان هذه المقاومة من الملاذ الآمن والبيئة الحاضنة عبر المطاردة والملاحقة وتوجيه ضربات استباقية للعديد من عملياتها، ورفع اليد عما يقوم به «الطابور الخامس» من مئات العملاء في المساعدة على ملاحقة ومطاردة واغتيال قيادات وكوادر المقاومة الباسلة.

وفي هذا السياق، بلغ الدور الخارجي على الساحة السياسية الفلسطينية ذروته بعد فوز حركة المقاومة الإسلامية (حماس) في الانتخابات التشريعية بصورة ديمقراطية حرة ونزيهة، وحصولها على الأغلبية البرلمانية بما يؤهلها طِبقاً للأعراف والتقاليد البرلمانية، لتولِّي مهمة تشكيل حكومة فلسطينية جديدة. ومنذ البداية، برز جلياً التلاقي الموضوعي، محلياً وإقليمياً ودولياً، لإجهاض هذه التجربة، رغم أنها تمثل انحيازاً شعبياً واضحاً لخيار المقاومة. وتحت وطأة الضغوط الأمريكية والدولية والصهيونية، ولأسباب ذاتية؛ رفضت حركة «فتح»، وخاصة تيار ورموز السلطة (الأعلى صوتاً والأكثر بروزاً) المشاركةَ في حكومة ائتلاف وطني. ولم تفلح حركة «حماس» بدورها، ولأسباب وربما أخطاء من جانبها، في استقطاب قوى أخرى للدخول في ائتلاف حكومي معها، وخاصة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. والنتيجة أن الحكومة التي أبصرت النور وحازت ثقة المجلس التشريعي برئاسة إسماعيل هنية، كانت حمساوية الأشخاص والتوجهات السياسية بصورة كاملة. وطوال الشهور التالية، ونتيجةً للرفض الدولي الاعتراف بها على خلفية موقف سابق باعتبارها «منظمة إرهابية»؛ تعرضت الحركة لحالة حصار مالي واقتصادي خانق، انعكست آثاره الكارثية على الشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع، ما لم تعترف الحكومة الحمساوية بشروط اللجنة الرباعية الدولية المتمثلة في ضرورة الاعتراف واحترام الاتفاقات والتعهدات التي أبرمتها منظمة التحرير الفلسطينية والسلطة مع المحتل، ونبذ العنف والإرهاب، والاعتراف بشرعية المحتل وحقها في الوجود، وهو ما يعني موضوعياً التأثير المباشر على هوية حركة «حماس»، والتعارض مع برنامجها الذي انتُخِبت على أساسه. ونتيجةً للموقف العربي الخانع والمستجيب للإملاءات الخارجية، أُحكِم الحصار المضروب بهدف تأليب الرأي العام الفلسطيني ضد الحركة، توطئةً لإسقاط حكومتها. وفي السياق ذاته، أُحبِط مسعى تشكيل حكومة وحدة وطنية فلسطينية وفقاً لوثيقة الوفاق الوطني (وثيقة الأسرى) التي انقلبت عليها السلطة تحت الإملاءات الخارجية، بدعوى أنها غير قابلة للتسويق إقليمياً ودولياً؛ لأنها لم تتضمن - صراحةً - الاستجابة لشروط الرباعية الدولية رغم ما قدمته حركة «حماس» من تنازلات، وتهديدات رئيس السلطة باللجوء إلى خيار الاستفتاء الشعبي إذا لم توافق حركة «حماس» على «وثيقة الأسرى». وعندما أبطلت الحركة مفعول هذه القنبلة الموقوتة ووافقت عليها، بعد بعض التعديلات والملاحظات، وقبيل الشروع عملياً في تجسيد تشكيلة هذه الحكومة وفقاً لأجندة وطنية؛ تراجعت السُّلطة لصالح الأجندة الصهيونية - الأمريكية، وكان الحال مماثلاً بعد توقيع اتفاق مكة المكرمة.

ومما له صلة، ونتيجة الفشل في تحقيق هدف ضرب المقاومة وخفض سقف حقوق الشعب الفلسطيني بواسطة القوة العسكرية، خاصة عملية «أمطار الصيف»، والإخفاق

في الوصول إلى الجندي الأسير لدى ثلاثة فصائل فلسطينية مسلحة دون قيد أو شرط وبصورة فورية منذ يونيو ٢٠٠٦، ومن ثم العجز عن تطويع المقاومة المسلحة وتصفيتها، بل إن عُود المقاومة قد اشتد وازداد قوة، وباتت خطراً كبيراً على المشروع الاستعماري في المنطقة، ولا سيما في ضوء الإخفاق (الأمريكي - الصهيوني) الكبير في استئصال مقاومة «حزب الله» ووجوده في لبنان بعد عدوان ١٢ يوليو ولمدة ٣٣ يوماً، لتنفيذ الأهداف الحقيقية لمضمون القرار ١٥٥٩ بواسطة آلة الحرب الصهيونية.. في ضوء ذلك كله؛ أخرجت الولايات المتحدة والعدو الصهيوني من جعبتهما آخر الأسلحة الاحتياطية التي يستخدمها المستعمر، وهي أسلحة إثارة الفتن والفرقة والانقسامات والحروب الأهلية، التي تتولى إنهاك المقاومة وإشغالها في صراعات جانبية تنال من سمعتها وتقوّض شعبيتها، وفي الوقت نفسه تريح المحتل والمستعمر الذي يتخلص من حالة الاستنزاف التي يتعرض لها بفعل عمليات المقاومة المتصاعدة والفشل في وقفها أو إخمادها، الأمر الذي يخرجه من مأزقه ويجعله قادراً على إطالة أمد احتلاله. وتشعر الحكومة الصهيونية، ومعها الولايات المتحدة، أن مصلحتها في تفجير الحرب الأهلية؛ لأنها باتت سبيلها لإجهاض الإنجازات التي حققتها المقاومة من جهة؛ ولأجل التخلص من شبح توازن الرعب على غرار جنوب لبنان، والذي بدأ يطل من قطاع غزة؛ حيث أصبحت المقاومة بفضل صواريخها محلية الصنع قادرةً يوماً بعد يوم على بلوغ مناطق أبعد في جنوب فلسطين، ومن ثم برزت ضرورة زجّ الساحة الفلسطينية في صراع داخلي يفضي إلى الفوضى والحرب الأهلية، بعد أن فشلت أساليب الحصار والضغط الخارجي في تحقيق هذا الهدف (الأمريكي - الصهيوني - الغربي) والنيل من حكومة هنية التي تمكنت من الصمود رغم كل المصاعب، وهو ما أزعج كثيراً الولايات المتحدة والعدو الصهيوني وبعض رموز وقيادات السلطة الحاليين والسابقين. وعملياً، حُرِّك عملاء الموساد وشبكاته المتغلغلة في الضفة الغربية وقطاع غزة من أجل البدء بمسلسل الاغتيالات المتنقلة، ليعقبها مسلسل الاتهامات المتبادلة بين «حماس» و«فتح»، ومن ثم شحْن الأجواء وتعبئة القوى والقواعد والجمهور. في هذا الجو المشحون، وصولاً إلى أحداث غزة الأخيرة.. كانت المحصلة الرهان على إبعاد حكومة «حماس» التي ترفض الاعتراف بالمحتل، أو القبول بالتفريط بالثوابت الفلسطينية ودعم خيار المقاومة لصالح الإتيان بحكومة موالية لمحمود عباس تؤيد شروط اللجنة الرباعية. ومن المفارقات الصارخة أن ذات القوى المؤيدة لهذا الخيار الأسوأ على الساحة الفلسطينية، هي القوى ذاتها التي تقف مع حكومة السنيورة في لبنان في مواجهة مطلب المعارضة اللبنانية، التي تحظى بدعم الغالبية الشعبية لتشكيل حكومة وحدة وطنية وإجراء انتخابات مبكرة.

ودون الإبحار بعيداً في خضم التفاصيل، يمكن القول أن الإدارة الأمريكية الحالية، نتيجة الإخفاق في فلسطين ولبنان، والبحث عن مخارج لأزمة تورطها في مستنقع الحرب في العراق ورماله المتحركة وفي أفغانستان، ورغبةً في التفرغ لِما تجسده الطموحات النووية الإيرانية والكورية الشمالية، وفي ضوء توصيات تقرير بيكر هاملتون؛ فإن الولايات المتحدة بصدد التوافق مع العدو حول أهمية التوصل إلى حل سياسي للمسألة الفلسطينية، والتي تمثل القضية المركزية ولب الصراع في المنطقة، والتي بدون حلها سيكون من الصعوبة بمكان اصطفاف قوى «الاعتدال» العربية وراء الولايات المتحدة في دعم استراتيجية بوش في العراق، أو بالنسبة لإيران. ولا عجب في أن تبدأ ترجمة الاستراتيجية الأمريكية الجديدة لإدارة جورج بوش عبر إثارة الفتن والحروب الأهلية في المناطق الساخنة في المنطقة؛ من دارفور والصومال، ومروراً بالعراق وفلسطين، وانتهاء بلبنان.

وقد انطلقت إشارة البدء بتنفيذ هذه الاستراتيجية مع زيارة الرئيس الأمريكي بوش للمنطقة؛ حيث لوحظ أن قدومه كان بداية تفجير الاتفاق الفلسطيني - الفلسطيني على تشكيل حكومة وحدة وطنية. وبالطبع كان الموقف قد جرى ترتيبه فلسطينياً لحساب تيار رفض العسكرة وعموم القادة الذين عارضوا انتفاضة الأقصى أو «عسكرتها» وينسجمون مع الدوائر الأمريكية والغربية بشكل من الأشكال، بل تجاوز الأمر ذلك نحو تثبيت الوضع (فتحاوياً) لحساب ذلك التيار، أي المجموعة المتنفذة في السلطة التي

هيمنت على حركة «فتح». ولتحقيق هذه التسوية، تماهت الولايات المتحدة مع الصهاينة في ضرورة أن تكون خريطة الطريق الدولية والمؤيَّدة من قبل الرباعية الدولية، الأساسَ لأي عملية سياسية، ولقطع الطريق على أي مبادرة دولية أو إقليمية لعقد مؤتمر دولي في شأن الصراع الفلسطيني – الصهيوني، عبر استفراد الكيان المحتل وفي ضوء خلل موازين القوى الصارخ لصالح العدو المحتل. وتعلن الدولة الصهيونية صراحة تفضيلها لرئيس السلطة والجهات الفلسطينية «المعتدلة» على «حماس» أو أي فصيل مقاوم آخر، ومن ثم ترفض محاولات عباس تشكيل حكومة وحدة فلسطينية للالتفاف على خريطة الطريق الدولية، وتهددها بأنها ستعيد النظر في علاقاتها مع عباس وفي قرارها اتخاذ خطوات لتعزيز مكانته.

ولا تزال دولة العدو ترى في الاستحقاقات الفلسطينية الواردة في المرحلة الأولى من «خريطة الطريق»، وفي مقدمتها تجريد الفصائل الفلسطينية من السلاح، شرطاً لأي تقدُّم في العملية السياسية. وكانت وزيرة الخارجية الأمريكية قالت، في لقاء خصت به القناة العاشرة في التلفزيون الصهيوني، إنه يجب تطبيق «خريطة الطريق» بحذافيرها من دون القفز على مراحلها، وأنها تحدثت عن ذلك مع عباس، والذي كرر استعداده لتنفيذ الاستحقاقات الفلسطينية الواردة في هذه الخريطة.

ومن الأهمية إعادة التذكير بأنه منذ إطلاق خريطة الطريق لسلام الشرق الأوسط في أبريل ٢٠٠٣، اشترطت أن يصبح لدى الشعب الفلسطيني «قيادة ديمقراطية» تتصرف بحسم ضد الإرهاب والعنف، وتتعهد بصورة فورية بوقف غير مشروط لهذا العنف والإرهاب والتحريض من خلال أجهزة أمنية فلسطينية فعالة يعاد تنظيمها، وأن تُصدِر هذه القيادة في بداية المرحلة الأولى من هذه الخطة بياناً جلياً لا لبس فيه يعيد تأكيد حق العدو في الوجود بسلام وأمن، ويدعو إلى وقف غير مشروط لإطلاق النار لإنهاء النشاط المسلح وجميع أعمال العنف ضد الصهاينة في أي مكان، وتُنهي جميع المؤسسات الفلسطينية التحريض ضد المحتلين، يعقب ذلك إعلان نهاية واضحة لا لبس فيها للعنف والإرهاب، ومباشرة جهود واضحة على الأرض لاعتقال وتعطيل وتقييد نشاط الأشخاص والمجموعات التي تقوم بتنفيذ أو التخطيط لهجمات عنيفة ضد الصهاينة في أي مكان، ثم تبدأ أجهزة أمن السلطة الفلسطينية بعد أن يعاد تشكيلها وتركيزها، عملياتٍ مستديمة ومستهدفة وفعالة تهدف إلى مواجهة كل الذين يتعاطون الإرهاب، وتفكيك القدرات والبنية التحتية الإرهابية. ويشمل هذا الشروع مصادرة الأسلحة غير المشروعة، وتعزيز سلطة أمنية خالية من أي علاقة بالإرهاب والفساد، على أن تقطع الدول العربية التمويل الحكومي والخاص وكل أنواع الدعم الأخرى عن الجماعات التي تدعم العنف والإرهاب وتقوم بهما.

وفي هذا السياق، استهدفت هذه الاستحقاقات لتجسيدها عملياً تهميشَ دور الرئيس الراحل ياسر عرفات لصالح رئيس الوزراء محمود عباس، وضرورة تمتعه بصلاحيات حقيقية وكاملة؛ خصماً من عرفات، والذي وقف حجر عثرة أمام هذه الاستحقاقات، ومن ثم ضرورة التخلص منه، وعندما جاءت حكومة «حماس» انقلب الحال وازداد صعوبة. ولا نبالغ في القول: إن ما تشهده الساحة الفلسطينية من أحداث وملاسنات كلامية وتهديدات، ليست بمنأى عن الإعلان من جانب السلطة في الشروع بتنفيذ هذه الاستحقاقات؛ حيث إن موازين القوى الداخلية، كما تدلل الحقائق والتسريبات، تميل لصالح قوى المقاومة، وخاصة حركة «حماس»، حيث تلعب الجغرافيا دوراً مهماً في الصراع الدائر بين حركتي «فتح» و«حماس»؛ فعندما تتعرض «فتح» للضرب في قطاع غزة الذي يعد معقلاً لحركة «حماس»، تسارع إلى الرد عليها في الضفة الغربية حيث تتمتع بقوة عسكرية تفوق كثيراً قوة حركة الخصم.

وبهذا الخصوص، تتمتع حركة «حماس» في قطاع غزة بقوة عسكرية كبيرة تفوق قوة «فتح»، وتتألف هذه القوة من ما يزيد على ١٥ ألف مسلح، وعتاد عسكري يضم صواريخ مضادة للدروع وألغاماً أرضية. وفي الضفة التي يعمل فيها الجهاز العسكري لحركة «حماس» تحت الارض خشيةَ ملاحقة السلطات الصهيونية؛ تتمتع «فتح» بقوة عسكرية يبلغ عدادها زهاء أربعة آلاف مسلح، بينهم حوالي ٤٠٠ من

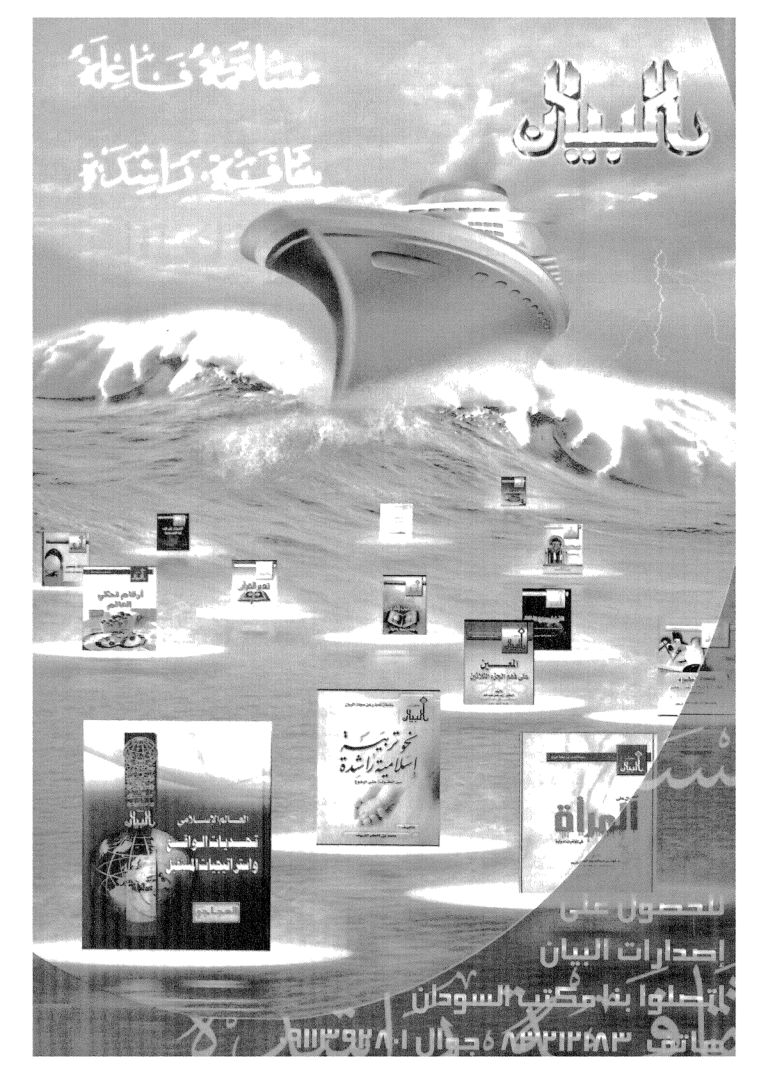
أعضاء النواة الصلبة لمجموعات «كتائب شهداء الأقصى»، في حين تقتصر قوة «حماس» العسكرية في الضفة على بضع عشرات من المسلحين بأسلحة فردية محدودة.

وقد أكدت الأحداث الأخيرة وحوادث الاقتتال بين حركتي «حماس» و«فتح» أن ميزان القوى ما زال يميل في كفته لصالح حركة «حماس»، حيث كانت هذه الأحداث تؤشر إلى اعتزام السلطة اعتماد سيناريو الإطاحة بحكومة «حماس» والتخلص منها ولو بالقوة في سياقات محلية وإقليمية ودولية مواتية، وهو الأمر الذي أخفقت في تحقيقه. ومن هنا، تتبدى دلالة ما أظهرته وثائق أمريكية، مع مطلع العام الحالي، عن أن الإدارة الأمريكية الحالية ستقدم ٨٦ مليون دولار، كانت مخصصة في البداية لبرامج مساعدات أمريكية في قطاع غزة والضفة الغربية، ثم عُلِّقت أو ألغيت بعد تولي «حماس» السلطة؛ لدعم قوات الأمن الموالية للرئاسة الفلسطينية في الوفاء بالتزامات السلطة الفلسطينية بموجب خريطة الطريق، لتفكيك البنية الأساسية للإرهاب وإقرار القانون والنظام في الضفة الغربية وغزة. وأنيط بالجنرال (كيث دايتون) منسق الأمن الأمريكي بين الصهاينة والسلطة، تنفيذَ برنامج لدعم وإصلاح عناصر قوات الأمن الفلسطيني التي تسيطر عليها الرئاسة. ومن المعروف، حسب المصادر، أن حرس الرئاسة يضم حالياً ٣٧٠٠ فرد، وبمساعدة الولايات المتحدة وحلفائها، يأمل رئيس السلطة في زيادته وفق برنامج زمني محدد وعاجل إلى ٤٧٠٠، وإمكانية زيادته بعد ذلك إلى عشرة آلاف فرد.

واستهدفت الولايات المتحدة والعدو الصهيوني من دعم حرس الرئاسة تغييرَ موازين القوى في قطاع غزة لصالح التيار المؤيد لرئيس السلطة. وبتوافق أمريكي – صهيوني، رُتِّب شحن بنادق وذخائر لحرس الرئاسة من مصر والأردن، وبدورها قدمت الدولة الصهيونية دعماً لرئيس السلطة في سعيها لإسقاط حكومة «حماس»؛ حيث اتخذت العديد من الإجراءات، أهمها: سماح رئيس الوزراء إيهود أولمرت بتعجيل عودة المئات من عناصر قوات لواء «بدر» المتواجد حالياً في الأردن إلى قطاع غزة؛ من أجل تعزيز قوة الأجهزة الأمنية التابعة للرئيس الفلسطيني.

كما أمر أولمرت القيادات العسكرية والأجهزة الاستخباراتية بدراسة إمكانية السماح بوصول المزيد من الأسلحة والذخائر للأجهزة الأمنية التابعة لأبي مازن من الأردن تحديداً. وكانت مصادر صهيونية قد كشفت النقاب عن قيام ضباط في وكالة الاستخبارات الأمريكية المركزية (السي آي إيه) بتدشين معسكر لتدريب عناصر جهاز أمن الرئاسة التابع لأبي مازن، والمعروف بـ «القوة ١٧»، وذلك بالقرب من مدينة أريحا شمال شرق الضفة الغربية، إضافة إلى تحويل مبلغ ١٠٠ مليون دولار من إيرادات الضرائب والرسوم الجمركية التي تحتجزها الصهاينة لصالح السلطة الفلسطينية. ومن البديهي أن ترفض «حماس» هذه السياسة الأمريكية التي تغذي ثقافة الانقسام بين الشعب الفلسطيني، لا سيما في ضوء محاولة العدو بمعونة أطراف عديدة تصديرَ الصراع الخارجي إلى الساحة الداخلية الفلسطينية عبر توتير الأجواء، وجرِّ الفلسطينيين إلى الحرب الأهلية والصدام الدموي.

وفي التحليل الأخير، ثمة ضرورة موضوعية لتعرية وفضح أبعاد هذا المخطط ورموزه وأدواته المحلية، وأن تنصب الأولويات للشعب الفلسطيني في هذه المرحلة المفصلية على تغليب مصلحة هذا الشعب على كل الاعتبارات؛ من خلال تقوية الجبهة الداخلية ووحدة الصف، وأن يأخذ الصراع طابعاً وطنياً بين من يؤيد المشروع الوطني الفلسطيني القائم على أساس حفظ الثوابت الوطنية والتمسك بخيار المقاومة ضد الاحتلال، وبين من يرفض ذلك ويدعم خيار التفاوض على قاعدة الاشتراطات (الأمريكية – الصهيونية) سبيلاً وحيداً ثبت عقمه وفشله. وثمة مسؤولية كبرى على القيادات والكوادر الوطنية داخل حركة «فتح» والتي تشارك بفعالية في مقاومة الاحتلال؛ في اتخاذ مواقف حاسمة من التيار المتصهين والمتأمرك داخل السلطة وفي بعض القيادات؛ لأن اتخاذ مثل هذا الموقف من قِبلها الآن يقطع الطريق، ليس فقط على الحرب الأهلية التي سيدفع كل الشعب الفلسطيني وقضيته ثمنها، بل يحمي مشروع المقاومة وينقذ الجميع، ويعزل الاتجاه المرتبط بالمشروع الأمريكي أو الذي يرتكز إليه.


البيان
مساهمة فاعلة
ثقافة راشدة
المعين
على فهم الجزء الثلاثين
نحو تربية إسلامية راشدة
العالم الإسلامي
تحديات الواقع
واستراتيجيات المستقبل
المرأة
للحصول على
إصدارات البيان
اتصلوا بنا مكتب السودان
هاتف ٨٣٢١٢٥٨٣ جوال ٩١١٣٩٢٨٠١



العالم الإسلامي

ومعضلة التنمية – المشكلة والحل

د. الخضري عبد المنعم علي السيد

يعيش العالم الإسلامي أزمة سياسية واقتصادية خطيرة، وتتمثل مظاهر هذه الأزمة في الصراعات التي تمزقه، والتخبط الواضح على مستوى اتخاذ القرارات وتحديد الاختيارات، في وقت هو أحوج ما يكون فيه إلى الوحدة والتكتل لمواجهة التحديات، وإسماع صوته على الساحة الدولية والدفاع عن مصالحه. وقد ساهمت عدة عوامل داخلية وخارجية في تكريس هذه الأزمة، غير أننا سنقتصر في هذا الموضوع على معالجة معضلة التنمية، وذلك أن غالبية البلدان الإسلامية هي بلدان متخلفة وتابعة، وللدلالة على ذلك هذه مؤشرات رقمية للعالم الإسلامي توضح مدى التخلف والتبعية:

١	المساحة الإجمالية	٣٢ مليون كم٢
٢	نسبة الأراضي الزراعية	١١,٣٪
٣	مساحة الأراضي المروية	٦٥٨ ألف كم٢
٤	سكان العالم الإسلامي	١,٣٦١,١٤٤,٨٨٣
٥	متوسط نسبة النمو السكاني	٢,٣٪
٦	الناتج المحلي الإجمالي	٣٤٨٣ مليار دولار
٧	حصة الفرد الواحد من الناتج المحلي الإجمالي	٣٩٣٤ دولار
٨	حصة قطاع الزراعة من الناتج المحلي الإجمالي	٢٤٪
٩	حصة قطاع الصناعة من الناتج المحلي الإجمالي	٣٠٪
١٠	حصة قطاع الخدمات من الناتج المحلي الإجمالي	٤٦٪
١١	نسبة السكان تحت مستوى خط الفقر	٣٧٪
١٢	معدل التضخم	١٤٪
١٣	حجم القوى العاملة	٢٩٥ مليون نسمة
١٤	نسبة البطالة	١٩,٢٪
١٥	حجم الواردات	٤٣١ مليار دولار
١٦	حجم الصادرات	٣٥٨ مليار دولار

(١) المسلمون بعد أحداث سبتمبر بين القصور الذاتي وحرب الإرهاب، إعداد: مركز المعلومات والدراسات والبحوث، موقع البيان؛ حالة العالم الإسلامي أرقام ومؤشرات، إعداد: أسماء ملكاوي.

لقد أفصحت أزمة التنمية التي تعاني منها بلدان العالم الإسلامي عن ذلك الفشل الذريع الذي منيت به الفلسفات السياسية والاقتصادية التي تبنّتها معظم الأنظمة التي خلفت الحكم الاستعماري، ويتمثل هذا الفشل في عجزها عن تحقيق التغيير الاجتماعي بعد حصولها على الاستقلال السياسي الرسمي.

ومن هنا تخلُّف البلدان الإسلامية هو في أحد جوانبه تجسيد لإخفاق النظم فيها في حل مشكلات التنمية والتحديث.

فقد كان بإمكان هذه الأنظمة عقب استقلالها السياسي أن تحدث تحولات جذرية في مجتمعاتها طوال تلك الفترة، وذلك بأن تعمل على تصفية مراكز السيطرة الأجنبية، وتطوير قاعدة اقتصادية مستقلة. غير أنَّ هذه الأنظمة تحولت في أغلبية البلاد الإسلامية إلى طور التبعية المباشرة للعالم الرأسمالي والاشتراكي. والتبعية هنا ليست فقط تبعية اقتصادية ولكنها ثقافية أيضاً؛ فقد صاحب عمليةَ التنمية وفق النمط الغربي في هذه البلاد عمليةُ اجتثاث تدريجية لقيم وثقافة البلد المحلية، لتحل محلها قيم وثقافة غربية.

وترتبط بأزمة التنمية في البلاد الإسلامية مشكلة نظرية التنمية، ونشير فيما يلي إلى بعض المفاهيم المخطئة فيما يتعلق بالاختيار التنموي.

١. التنمية: **هي زيادة الإنتاج**: فهناك العديد من الأبحاث والدراسات في هذا المجال تقوم على افتراضات تمثل انحيازاً للتجربة الغربية التي تقرن التنمية بزيادة الإنتاج، وهذا خطأ؛ لأن اعتبار التنمية (هي زيادة الإنتاج) يتضمن في الوقت نفسه اعتبار الاستهلاك محور السلوك الإنساني، ومن هنا فإن مفهوم التنمية يجب أن يدرس في إطاره التاريخي، وهو إطار لا يناسب وضع البلاد الإسلامية الحالي لخصوصيتها.

٢. التنمية: **هي استخدام التقنية المتقدمة**: يربط بعض الكتاب بين التنمية واستيراد التقنية المتقدمة على أساس أن هذا يمثل مسايرة لركب التقدم العلمي والتقني في العالم، وهذا خطأ؛ لأن استيراد التقنية المتطورة دون تطويعها وفقاً لخصائص وظروف البلاد الإسلامية يقلل من فائدتها؛ بل إن هذه السياسة توجد حالة من الاعتماد على التقنية والتبعية الجديدة. وينتج عن ذلك التبديد الشديد للموارد، وتخريب البيئة، والتكلفة الاجتماعية الباهظة، وشقاء الإنسان.

وحول معالجة معضلة التنمية في العالم الإسلامي: يمكن القول بداية: إن الاستعباد والاستغلال كانا يمثلان الأسباب الجوهرية أو التربة الخصبة التي نبتت منها الأسباب التفصيلية المسؤولة عن مشكلة التخلف، وأن استمرارها ـ من الداخل والخارج ـ أدى إلى فشل التنمية في العالم الإسلامي والسبب هو التبعية لمناهج التنمية الوضعية، التي ركزت فقط على معالجة غيرها من الأسباب من خلال توجيهات وآليات (مادية) واضحة، ومن ثَم استمرت المشكلة وزادت حدتها خلال الزمن، فكانت وما زالت في واقع الأمر (تنمية) للتخلف. وتفرَّخ عن هذا الوضع ـ نتيجةً طبيعيةً له وتفصيلاً لمجمله ـ العديدُ من المشكلات التي تطحن الآن (الإنسان) وتهدر كرامته، وتبدد قدراته وجهوده الإبداعية؛ فيعجز لذلك عن القيام بمسؤولية (إعمار) الأرض، أي: إحداث التنمية.

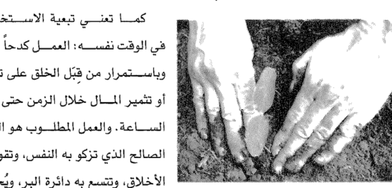
إذاً لحل معضلة التنمية في العالم الإسلامي لا بد من تطهير (الحياة الاقتصادية) من كافة أشكال (الظلم) ومن ثَم تهيئة المناخ (المناسب) لكي يتعامل (الناس) تعاملاً إنمائياً فاعلاً مع الأشياء؛ «فبديهياً نجد أن الإنسان هو المحرك الأساسي للنشاط الاقتصادي، وهو ـ بالقطع ـ الكائن الحي المسؤول عن مستوى الأداء، والإنسان (المظلوم) أي: المقهور

والمستَغَلّ (ككل) لا يقدر حقيقة على شيء»[1].

ومـن ثم، إذا لم يُرفع هذا الظلم - ومهما كانت طبيعة الموارد المادية من حيث الوفرة والتنوع والجودة - فلا يمكن لأي شيء ذي قيمة أن يتحقق، ولا يمكن لأية قوة دافعة، أو استراتيجية - أي منهج - أن تعمل بكفاءة مناسبة، سواء أكانت هذه القوة هي (اليد الخفية) للحافز المادي، أو (اليد المرئية) الباطشة للدولة، وسواء أكانت الاستراتيجية هي (الدفعة القوية) من الاستثمار أو الجهد (الجهد الأدنى الحساس) المطلوب الرأسمالي، أو غيرها.

• الإسلام ودور الإنسان في التنمية:

اعتبر الإسلام الإنسان قيمة حقيقية، وقوة للتغيير والحركة في الحياة بما أودع فيه من القدرة العقلية والجسدية وقابلية التكييف المستمر، ودليل ذلك أنه جعله مكلفاً مسؤولاً يستطيع من خلال تلك القدرات أن يحقق خلافة الله على هذه الأرض التي خُلِقت له فريداً متميزاً، وهيئت تهيئة متناسقة، ووضع فيها كل ما يساعده على أداء الأمانة الكبرى في العيش والحركة والتغيير. قال - تعالى -: ﴿ وإذ قال ربُّك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفةً قالُوا أتجعل فيها من يفسدُ فيها ويسفكُ الدّماء ونحْن نُسبّحُ بحمدك ونُقدس لك قال إنّي أعلمُ ما لا تعْلمُون ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال: ﴿ هُو الّذي خلق لكُم مّا في الأرض جميعًا ثُم استوى إلى السماء فسوّاهُن سبع سموات وهُو بكُلّ شيءٍ عليمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال: ﴿ ألم تروا أن اللّه سخّر لكُم مّا في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمَهُ ظاهرةً وباطنةً ومن النّاس من يُجادلُ في الله بغير علم ولا هُدًى ولا كتاب مُنيرٍ ﴾ [لقمان: ٢٠][2].



• استخلاف الإنسان والتنمية:

يتأسّس فرضاً إعمار الأرض - أي قيام تنمية شاملة ومتوازنة من قِبَل الإنسان العادي - على حقيقة إيمانية مؤدّاها: أن المال - أي الموارد - مال الله، ونحن مستخلفون فيه: ﴿ لهُ ما في السّموات وما في الأرض وما بيْنهما وما تحت الثرى ﴾ [طه: ٦]. ﴿ وإذ قال ربُّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرض خليفةً قالوا أتجعل فيها من يُفسدُ فيها ويسْفكُ الدماء ونحْن نُسبح بحمدك ونُقدسُ لك قالَ إني أعلم ما لا تعلمُون ﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿ ويستخلفكُم في الأرض فينظُر كيف تعملُون ﴾ [الأعراف: ١٢٩]. وتبعية الاستخلاف تعني: تسخير هذا المال لخدمة الخلق - المستخلَفين - وتمكينهم منه تمكين استعمال أو ملكية انتفاع: ﴿ هو الّذي خلق لكُم ما في الأرض جميعا ﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿ وسخّر لكُم مّا في السّموات وما في الأرض جميعا مّنه إن في ذَلك لآياتٍ لقوم يتفكرُون ﴾ [الجاثية: ١٣]، ﴿ ولقدْ مكّناكُم في الأرض وجعلنا لكُم فيها معايش قليلاً ما تشكُرُون ﴾[الأعراف: ١٠].

كما تعني تبعية الاستخلاف في الوقت نفسه: العمل كدحاً وكداً وباستمرار من قِبَل الخلق على تنمية أو تثمير المال خلال الزمن حتى قيام الساعة. والعمل المطلوب هو العمل الصالح الذي تزكو به النفس، وتقوم به الأخلاق، وتتسع به دائرة البر، ويُحفَظ به الدين والبدن والعقل والمال والنسل، أي: العمل الذي يحقق صلاح البال بإصلاح الدين والدنيا.

ومن ثَم، فالعمل المقصود هو العمل الذي يعمر الأرض، وينتج الطيبات، ويحقق الحياة الكريمة للإنسان: ﴿ وعد اللّهُ الّذين آمنُوا منكُمْ وعملُوا الصّالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهمْ وليُمكنن لهُمْ دينهُمُ الّذي ارْتضى لهُمْ وليُبدلنّهُم من بعد خوفهمْ أمنا يعبدُونني لا يشركون بي شيئًا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هُمُ الْفاسقون ﴾ [النور: ٥٥]، ﴿ وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى ﴿٣٩﴾ وَأنَّ سعيَهُ سَوْف يُرى ﴿٤٠﴾ ثُم يُجزاهُ الجزاءَ الأوفى ﴾.

[النجم: ٣٩ - ٤١]

(1) حول المنهج الإسلامي في التنمية الاقتصادية، الدكتور عبد الحميد الغزالي.
(2) الإنسان في القرآن، عباس العقاد، ص (٢٢).



وفي الحديث: «اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له»(1)، «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم الساعة حتى يغرسها؛ فليغرسها، وله بذلك أجر»(2).

وتعني تبعية الاستخلاف أيضاً أن يحترم الخلق - المكرمين بهذه العلاقة - عقد الاستخلاف - ويتقيدوا بشروطه التي وضعها المالك الحقيقي - سبحانه وتعالى - تنظيماً لشؤون المال من حيث توظيفه، وتنميته والتصرف فيه.

ومن هذه الشروط أن يؤدي الخلق حقوق المال لمالكه الأصلي وللمجتمع في صورة الصدقات المفروضة؛ وعلى رأسها الزكاة، والصدقات التطوعية، والكفارات، وغيرها من النفقات تحقيقاً لعدالة التصرف في المال، وإقامة للتكافل الاجتماعي، وضماناً لأكفأ استخدام ممكن للمال خلال الزمن: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧]، ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وفي الحديث: «إن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم»(3)، «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»(4).

• الإسلام وقضايا الإنسان:

هذا هو جوهر نظرة الإسلام التي لا تتغير لقضايا الإنسان الاجتماعية والاقتصادية التي تتغير، إنها نظرة لتجديد الإنسان في كل زاوية من زوايا حياته في ظل الرؤية الشاملة لآيات تطوره الكوني وهي ليست عبودية واستسلاماً، ولا قدرية واستخذاء، ولاسكوناً وتقليداً، ولكنها حرية وانطلاق والتزام وانعتاق وحركة وتغيير. وهي نظرة رسمت طريق الحقوق الإنسانية للإنسان في ذاته، مستهدَفاً بالحقوق بقدر ما كان ذلك الحق يستهدف قبلَ الإسلام القبيلةَ والعائلة والعرق والطائفة(5).

ومن هذا المنطلق الراشد في النظرة إلى الإنسان المسؤول، اختُتمت النبوة في الإسلام، وهو أوضح دليل على رشد الإنسان، وتقويمه الحسن، والاعتراف بدوره الكامل في اكتشاف وتسخير قوانين الحياة والمادة، وإحداث التنمية الحضارية المطلوبة، مستهدياً بالتشريع الاجتماعي والأخلاقي الذي جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين - عليه الصلاة والسلام - والآيات التالية ترشدنا إلى هذا المعنى: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤]، ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧]، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

• • •

وبعدُ؛ فكما أن الإنسان في هذا العصر لا بدّ له أن يتحرك إيجابياً للقيام بذلك الدور؛ فإن حشد القوى المادية والمعنوية في سبيل بنائه الذاتي والاجتماعي والحضاري يصبح من الضرورات المنطقية الملحة. ومن المؤكد أن الإنسان هو العنصر الفعال لمعالجة معضلة التنمية في العالم الإسلامي؛ لأنه عماد التنمية، وأي عملية تنمية لكي تتحقق على أرض الواقع لا بدّ أن تبدأ من الأصل أو من القاعدة - أي من الإنسان - وتنتهي في كل مرحلة من مراحلها المستمرة والمتصاعدة بالإنسان للإنسان - أي من أجل الإنسان - وهو أهم وأسمى مَنْ وما في هذا الوجود، ومن ثم هو - بحق - الوسيلة الرئيسية لعملية التنمية: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

(1) صحيح البخاري، كتاب (التفسير)، رقم (٤٩٤٩)؛ وصحيح مسلم، كتاب (القدر)، رقم (٤٧٨٧).
(2) رواه الإمام أحمد في المسند في باقي مسند المكثرين، رقم (١٢٥١٢).
(3) البخاري في (الزكاة)، رقم (١٣٦٥)؛ ومسلم في (الإيمان) رقم (٢٧).
(4) متفق عليه: البخاري (٣/ ٢٣٤)؛ ومسلم (١٠٣٤).
(5) حقائق القرآن وأباطيل خصومه، عباس العقاد، ص (٢٦).

إذاعة طيبة

FM 103

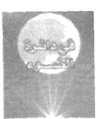


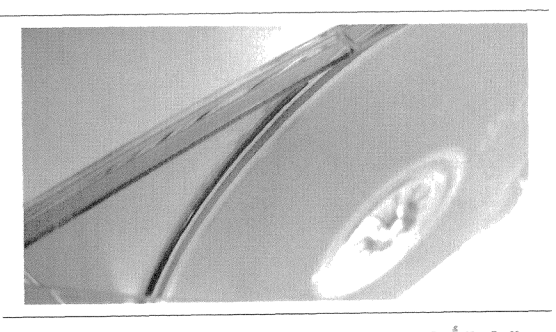
طيبة لأوقات طيبة

FM 103

هاتف ادارة البرامج : +249155184141
هاتف قسم الاعلان : +249155174777
فاكس : +249155184999

الموقع : www.tayba.fm
بريد الكترونى : tayba@tayba.fm
رقم الحساب :3766. بنك التضامن الاسلامى - فرع السوق العربى





قراءة أولية في اقتصاديات المعرفة الحديثة

حسن مظفر الرزو(*)
halrizzo@gmail.com

• مقدمة:

يعـد عصرنا الراهن عصر المعلومات والمعرفة في ظل المفاهيم الجديدة التي أفرزتها تقنية المعلومات والاتصال، وقد أسهمت شبكة الإنترنت في ترسيخ هذه الحقيقة بعد أن منحت للمفردة المعرفية فرصة الإقامة على عُقدها المعلوماتية المنتشرة على عموم مساحة فضائها الرقمي.

من جانب آخر، برزت أهمية المعلومات بالموازين الاقتصادية في هذه الأيام، فأضحت مادتها سلعة وخدمة اقتصادية، وتحوّلت قواعد البيانات وبرمجياتها التطبيقية إلى مواردَ اقتصادية مهمة.

وعليه، فإنه في ظل المفاهيم الجديدة التي أفرزها مجتمع المعلومات سوف تتزايد أهمية اقتصاد المعرفة كمورد أساسي للدخل القومي في عموم رقعة العالم الإسلامي، ويتزايد الطلب على إبداع الفكر العلمي والثقافي من أجل إنتاج سلع معرفية مبتكرة ذات قدرة تنافسية عالية في السوق. وستبرز في هذه البيئة الاقتصادية الجديدة أهمية التراث العلمي الإسلامي، وستنمو تدريجياً صناعة المعرفة الإسلامية بمجالات ترسيخ الركائز العقدية والشرعية في المجتمع الإسلامي، وستتزايد أهمية الجانب الرقمي في ميدان أنشطة التعليم والإرشاد الديني، لضمان تعميق ثقافة المسلم المعاصر بمفردات المنظومة الثقافية والتاريخية الإسلامية، وعكس الصورة الصحيحة للعقيدة الإسلامية لأفراد مجتمع المعلومات العولمي، المقيمين في حيّز الفضاء الرقمي لشبكة الإنترنت.

• الموارد الاقتصادية الجديدة:

أفرزت تقانات المعلوماتية - التي تسود عصرنا الراهن - جملة من المفاهيم الجديدة التي حملت تأثيرات ملموسة

(*) مدير المكتب الاستشاري العلمي، كلية الحدباء الجامعة.

على جلّ الأنشطة الاتصالية المقيمة في المجتمع المعاصر: فبرزت مصطلحات: البيانات، المعلومات، والمعارف، بوصفها موارد جديدة للمنظومة الاقتصادية. وتظهر بجلاء الأهمية المتزايدة للمعلومات في ضوء تعدد الأدوار الاقتصادية لها، فالمعلومات سلعة اقتصادية وخدمة اقتصادية، وبرمجياتها وقواعد بياناتها ومحتواها بمنزلة أصول اقتصادية، علاوة على كونها مورداً حيوياً مسانداً لجميع الأنشطة الاقتصادية الأخرى.

تتألف البيانات (DATA) من حقائق، أو أرقام، ومخططات، ورموز يمكن من خلالها وصف الأفكار والكائنات (Objects) والمواقف. وقد استُخدم مصطلح المعلومات لصياغة حد فاصل بين ركام البيانات التي تنشأ عن جملة الأنشطة البشرية، وبين عملية استثمارها وإحالتها إلى حقائق تحمل قيمة عبر جملة من الآليات التي تنحو باتجاه اختيار شرائح محددة من البيانات المتوفرة، فيصار إلى تصنيفها وتبويبها على ضوء متطلبات الجهة المستفيدة منها، والتي تُتحدَّد بطبيعة المشكلة القائمة والمتغيرات الزمانية والمكانية التي تحيط بها، وطبيعة المهمة التي قد أنيطت بها.

على ضوء ما ذُكر، يمكن تعريف المعلومات بأنها: عبارة عن مجموعة الحقائق والآراء التي تنشب عن أنشطة الفرد بوصفه منتجاً لها أو مستفيداً منها. أما المعارف فتسمو فوق المعلومات باشتمالها، بجانب المعلومات، على الخبرات المستنبطة من عمق الممارسة المستبصرة، والقدرة على الاستنتاج، واستخلاص الحكمة من قلب الضوضاء المقيمة في ساحة البيانات عبر المعالجة الذكية التي توظفها تقنيات هندسة المعرفة والذكاء الحاسوبي - الاصطناعي للمعلومات.

بصورة عامة، يعمد المرء إلى إنتاج معارف ومعلومات جديدة من سيل البيانات الذي يتدفق إليه، فيستخدم بعضها للتواصل مع البيئة المحيطة به، من خلال الخطاب الذي ينشئه مع الآخر عبر الوسائط المكتوبة، أو المسموعة، أو المرئية.

ويباشر المرء إدارة سيل المعلومات الواردة إليه وتنظيمها طبقاً لأنموذج ذاتي يمثّل حصيلة المعارف والخبرات الشخصية، فينشئ من خلالها شبكة من العلاقات المنطقيّة التي يمكن أن يطلق عليها مصطلح: قاعدة المعرفة، لكي يستطيع من خلالها ترجمة المعلومات المتوفرة لديه إلى قدرة ذاتية على ممارسة عمليتي التحليل والتركيب اللتين توفران له عنصر الخبرة العميقة والبصيرة النافذة عند التعامل مع مفردات البيئة المحيطة به.

إن التغييرات الجديدة التي أفرزتها علوم الحاسوب قد أنشأت مفاهيم مستحدثة، جعلت من المعلومات مورداً خصباً لجملة من الفعاليات والتقنيات، التي وجدت وراء حروف الأبجدية ميداناً ثرياً لإنشاء مفاهيم وعلاقات وسَبّر بنية الجملة ودلالة المفاهيم بالشكل الذي نبّه الإنسان المعاصر إلى الثروة الهائلة التي تكمن وراء أكداس النتاج الفكري البشري المتناثرة، إذا ما تم التعامل معها بوصفها نظاماً متسقاً تحكمه قوانين المنطق المعلوماتي الجديد. لقد أصبحت المعلومات، وفق هذا المنظور الجديد، مورداً وثروة لا تنضب لمن أحسن استثمارها.

• معالجة أوّلية لرأس المال المعرفي بميدان الحديث النبوي:

إن الموارد المعرفية الإسلامية التي تتوزع بين علوم القرآن، وكتب السنة الصحاح ومسانيدها، والتراث الفقهي والعقدي الإسلامي الخصب، باتت بحاجة ماسة لإعادة تشكيل مفرداتها بحيث تتلاءم بعرض مضامينها مع التقنيات المعلوماتية المعاصرة، والتي بدأت بإبعاد الكتاب التقليدي من ساحة التداول في عملية تداول المعارف والعلوم.

لذا فإن المستقبل القريب سوف يطرح أمامنا مجموعة من المعالجات المعلوماتية لمعرفتنا الإسلامية التي قد تمارسها جهات غير إسلامية تنوي جني أرباح من هذه المعالجة أو محاولة تغيير الهيكلية المعرفية لعلومنا الإسلامية؛ التي ترتبط بعقيدتنا وتعاملنا مع خطاب الوحي.

لذا بات من الضروري التفكير في تقعيد أنموذج معرفي لخطاب الوحي يستثمر مادته من موارد الشريعة، وأقوال الفقهاء والمحدِّثين والمفسرين، على أن يتناسب بأسلوب عرضه مع التقنيات المعلوماتية المعاصرة. ولكي لا نضيع في معالجات تفصيلية، حاولنا التركيز على معالجة الأنموذج المعلوماتي للسنة النبوية المطهرة.

إن عملية اقتناص المفردة المعرفية الحديثية من مواردها الأصلية بحاجة إلى دراية وخبرة عميقة في ميدان علوم الحديث؛ حيث تظهر الحاجة إلى المتخصصين في هذا المضمار بعملية انتقاء النصوص وتبويبها، ومعالجتها وفق مفاهيم أئمة الحديث في كل عصر من العصور.

أمـــا في مضمار المعالجة المعلوماتية، فيأتي دور مهندس المعرفة الذي يعمد إلى تبويب هذه المفردات إلى ثلاثة أقسام رئيسة:

القسم الأول: البيانات:

ستتألف البيانات الحديثية من أية مفردة معرفية تُستخدم في ميدان علوم الحديث مهما كانت طبيعة الاســتخدام، مع اســتبعاد طبيعة العلاقــات القائمة بينهـــا وبين غيرها من المفردات الســائدة في هذا العلم. لذا فــإن المفردات التي تتعلق برواة الحديث، كالاسم، واللقب، والكنية، وسنة الولادة والوفاة، وأســماء الشيوخ الذين تلقوا عنهم علومهم، وأسماء التلاميذ الذين نقلوا الرواية عنهم، وغيرها من المفردات، هي بيانات تتعلق برواة الحديــث؛ لكونها واضحة بذاتها، وقابلة للخزن في وسائط خزن البيانات المتاحة على الحاسوب.

القسم الثاني: المعلومات:

يمكن إنشـــاء المعلومات عـــن رواة الحديث عبر معالجة حديـثية تصنـف على أسـاسها طبقاتهم وفق بعد زمني، أو عن طريق توظيـــف البيانات المتوفرة عن ثبوت لقاء المحدث وسماعه عن محدث آخر، فتتحول البيانات الخام التي تصف المحدث إلى معلومات قابلة للاســتثمار من قبل العاملين في ميـــدان الحديث النبوي عند ظهور الحاجة إلى إصدار حكم بصدد عدالة الراوي وضبطه لروايته.

القسم الثالث: المعرفة:

تشمل عملية توصيف المعرفة: اختزان المفردات، واختيار الآليات المناســـبة لمعالجة البيانات والمعلومات، وفق شـــبكة العلاقات والقواعد التي تربط بين هذه المفردات في أنموذج معلوماتـــي تتكامل فيه الأواصر القائمـــة بين هذه المفردات بالشـــكل الذي يوفر بيئة برمجية متكاملـــة، تمتلك القدرة على صنع قرار يســـتثمر محتويات قاعدة المعرفة في تحقيق الغايات المحددة له.

وعليه، فإن المعرفة الحديثية ستكون عبارة عن الحصيلة التي ستنتج عن سلسلة عمليات سَبْرِ مفردات علوم الحديث في أي فرع من فروعه، والوصول إلى مرحلة استنطاقها في إصدار أحكام نقدية دقيقة، عند تفحص المعلومات المنتشرة في المراجع العلمية.

لذا ستظهر الحاجة إلى ترجمة الخزين التراثي والمعرفي الإســـلامي إلى مادة خام قابلة للتوظيف فـــي عملية الإنتاج المعرفي، وإلى إرساء أسس اقتصاد معلوماتي - معرفي إسلامي يرسي أسسَ صناعة معرفية عربية إسلامية، تمتلك مقومات المنافسة على معالجة موارد خطاب الوحي بأدواتنا بدلاً من أن تعبث بها أدوات المعلوماتية الغربية المارقة، التي تخطط لتفريغ هويتنا الإسلامية من مضامينها الإسلامية الحقة.

وفي ضوء ما ذُكر، ســـتتألف مكونات رأس المال المعرفي الحديثـــي، في ظل المعالجـــات الاقتصادية، من جملة موارد تقيم في مصنفـــات علوم الحديث ومصطلحه، وســـتمتلك كل مفـــردة من هذه المكونات قيمتهـــا الاقتصادية في ضوء المعالجات المعلوماتية التي تحاول الارتقاء بعنصر القيمة التي تكمن في مادتها. انظر: جدول (١).

جدول (١) مكونات رأس المال المعرفي الحديثي

الفقرة	طبيعة المعالجة المعلوماتية	القيمة الاقتصادية
١ - موارد السنة النبوية: رواية ودراية.	لا تفتقر إلى معالجة معلوماتية معرفية، بل إلى عملية توثيق تقليدية.	ترتبط بمحتوى النص ومرجعيته.
٢ - إعادة صياغة الموارد لإنتاج نسق معرفي جديد.	بحاجة إلى صياغة هيكلية لقواعد البيانات واعتماد مفاتيح تتلاءم مع النسق المعرفي.	قيمة مضافة تعتمد على محتوى النسق المعتمد في المعالجة وطبيعته.
٣ - إنتاج معرفة حديثية.	إنشاء قواعد معرفية تستثمرها نظم خبيرة متخصصة في إصدار الحكم بميدان علم الحديث دراية أو رواية.	قيمة مضافة بحسب طبيعة المهام المعرفية التي ينفذها النظام المعلوماتي.

• الآليات المقترحة للتعامل مع موارد السنة المطهرة:

يظهر في جدول (٢) الموارد الحديثية المطلوبة للأنموذج الاقتصادي المناســـب، مع بيان ماهية المعرفة المحوسبة التي يمكن استنباطها من كل نوع من أنواع هذه الموارد.

إن عملية اقتناص المفردة المعرفيـــة من الموارد المذكورة فـــي جدول (٢) بحاجة إلى درايـــة وخبرة عميقة في ميدان علوم الحديث؛ حيث تظهر الحاجة إلى المتخصصين في هذا المضمار بعملية انتقاء النصـــوص وتبويبها، ومعالجتها وفق

مفاهيم أئمة الحديث في كل عصر من العصور.

وبما أن أئمة الحديث اتفقوا على صحة الأحاديث المنقولة في دفتي صحيح البخاري ومسلم، فيمكن أن نحصل من تتبع أسانيد الروايات، وتثبيت شجرات الإسناد التي اتفق عليها الشيخان أو انفرد بها أحدهما، على حقائق وقواعد منطقية حاكمة للحكم على الحديث وفق منهج كل من هذين الإمامين، يمكن أن تصبح فيما بعد جزءاً من القواعد المعرفية الحديثية التي تدعم المستخدم في تبرير الحكم على الحديث الفلاني، أو تعلل سبب عدم تصحيح الإمامين لهذا الحديث أو ذاك. وكلما ازدادت عملية السبر المعرفي لمفردات الحديث النبوي المنقول لدينا، تجلّت لنا الكنوز الكامنة في هذين المصنفين الجليلين، فنحدد شجرات الإسناد لكل صحابي، ونبدأ في تحديد دائرة الحديث المتفق على صحته، وتأشير أصح الأسانيد في ضوء ما نقل في كتب المصطلح وما ورد في عبارات نقاد الحديث ورجاله.

ويأتي دور مصنفات بقية أئمة الكتب الستة الأصول في المعالجة المعلوماتية، فيُلقى الضوء من خلالها على شرط كل إمام من هؤلاء الأئمة الأعلام، وزوائد الأحاديث المنقولة لديهم، وحوسبة شروط كل إمام منهم، وتأشير المحدثين الضعفاء، والأحاديث الصحيحة التي أضافوها إلى دائرة ما اتفق عليه الشيخان، أو انفرد بها أحدهما، فتكتمل أطرافها، وتتضح مواردها وطرق رواتها.

أما المسانيد فتُوظّف في شد عضد روايات دائرة الأصول الستة، وتوسيع دائرة مسانيد الصحابة. أما كتب الجرح والتعديل وطبقات الرجال: فتستثمر عمليةُ التنقيب المعرفي النصوصَ المنقولة بين صفحاتها في تأسيس الحقائق المنقولة عن نقاد الرجال وصيارفته بحق كل راوٍ منهم، وتوليد مجموعة من قواعد المقايسة المنطقية للموازنة بين هذا المحدث وذاك، في ضوء العبارات النقدية المنقولة ومنهج كل صيرفي من صيارفة الرجال ونقادهم.

وفي ضوء القواعد التي ذهبنا إلى الاحتكام إليها كقواعد حاكمة لآلية التعامل مع الموارد المعرفية الإسلامية، يجب علينا أن تسترشد بالقواعد الحاكمة الآتية:

– إنّ تبنّي مبدأ عدم فصل الشكل عن المضمون سيجعلنا نتعامل مع كل مفردة منقولة كما وردت لدى كل إمام، ودون محاولة إحداث أي تغيير في شكل النص قد تورثه تغييراً في طبيعة المعنى الذي أريد به، فلا نعمد إلى تغيير عبارة (حدّثنا) أو (أخبرنا) التي استخدمها المحدثون في نقل رواياتهم بعبارة جديدة مستحدثة، والذي قد يورث المقايسات المنطقية عللاً إضافية لا أصل لها، أو يجعلنا ننشئ حقائق لم يذهب إليها الإمام.

– إن العبارة التي تنقل عن أئمة الصنعة مرتبطة ارتباطاً حميماً مع مادة الخطاب التي تقطن في عباراتها. ولمّا كان لكل عصر خطاب، فينبغي عدم التوسع في استخدام هذه العبارات في أكثر من عصر بسبب التغييرات الجدلية في عبارة الخطاب ودلالته. لذا فعبارة (لا بأس به) عند الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – والتي تعني: (ثقةٌ) في وقته، لا تتكافأ في استخدامها مع عصر الإمام الذهبي الذي تجعل من المحدث دون مستوى الثقة.

– ضرورة معالجة نصوص موارد الحديث النبوي الشريف بعيداً عن النهج الذي يعدها سلسلة من الكلمات والجمل والفقرات، ومحاولة سبر ماهية نسيجه الذي يتسم ببنية متعددة المستويات، تسودها شبكة كثيفة من علاقات الترابط اللغوي والدلالي والتماسك المنطقي المحكم. ومن ثم لا يكون معنى الجملة حصيلة لتجميع معاني ألفاظها؛ بل نتيجة لمعالجتها داخل بيئة الخطاب الحديثي الذي نشأت فيه.

– لن تفلح اللغة بمفردها في حل مغاليق النص الشرعي ما لم نعرج إلى الموارد الشرعية الأساسية التي يستمدُّ النص منها دلالته، فنوظف آليات سبر متن الحديث، والزيادات المنقولة، والمتابعات والشواهد؛ لكي نلقي الضوء على العبارات المختلفة التي عمد المحدث إلى توظيفها في نقل خطاب الرسول الكريم ﷺ.

– لا توجد ثمة نهاية للنص مهما كان مستوى المعالجة المحوسبة لمادته وطريق إسناده. لذا؛ ينبغي أن تبقى تخوم المعالجات مفتوحة أمام الآليات الجديدة الملتزمة بروح التشريع الإسلامي ومقاصده، وهو الأمر الذي يضمن للنص دوام تجدده، فيجتذب مضامين جديدة تفد إليه من دائرة البيئة التي تحيط به.

– ضرورة الاعتقاد باستحالة الوصول إلى المعنى النهائي الذي يكمن في نواة النص؛ لأننا سنستمر في جدلية ملاحقة المعاني ومطاردتها من خلال قواعد منطقية أشد تخصيصاً، وحقائق أكثر دقة وقرباً من منطق المعالجة الذي تبنّاه أئمة هذا العلم وجهابذة نقاده.

جدول رقم (٢) موارد الأنموذج الحديثي - المعلوماتي

المورد الحديثي	طبيعة المعرفة الحديثية القابلة للاستنباط
صحيحا البخاري ومسلم:	- قواعد الحكم على الحديث الصحيح. - أصح الأسانيد للروايات الحديثية. - تحديد سلاسل الإسناد الصحيح لكل صحابي جليل. - حوسبة منهج الشيخين في تصحيح الأحاديث، وشرط كل منهما.
كتب بقية الأئمة الستة: النسائي، الترمذي، أبو داود، ابن ماجه:	- تمييز طرق الحديث الصحيح أو الحسن لدى هؤلاء الأئمة. - تحديد سلاسل الإسناد لكل إمام، والزوائد الحديثية على طرق الشيخين. - حوسبة منهج كل إمام في رواية الحديث، وشرطه في نقل الرواية عن رواة الحديث ونَقَلته. - تمييز الرجال الضعفاء في أسانيد الأحاديث المنقولة وتحديد تداخلاتها مع عملية الاعتبار. - حوسبة مناهج الأئمة، وبيان شروطهم في نقل الرواية.
المسانيد، والمستخرجات، والمعاجم الحديثية بجميع أنواعها:	- تتبع الزيادات في هذه المصنفات والحُكم على صحتها. - تحديد سلاسل الإسناد لكل إمام، مرتَّبة حسب مسانيد الصحابة. - بيان مرتبة الروايات على ضوء توظيفها في عملية الاعتبار.
كتب الجرح والتعديل، وطبقات الرجال:	- استيعاب الأحكام النقدية بصدد كل راوٍ من رواة الحديث. - تحديد مراتب السماع من الشيوخ وروايةً التلاميذ عنه من زحام المعلومات الخصبة المتوفرة في هذه الموارد. - تتبُّع الحُكم النقدي على الرواة عبر المراحل والعصور المختلفة؛ لتمييز الحكم الذي يستند إلى قاعدة رصينة من الأقوال دون وجود دليل. - تحديد طبقة الرواة وفق أكثر من منهج لتوفير قاعدة محكمة في تحديد المعاصرة وإثبات السماع.
كتب علوم الحديث	- إرساء الحدود الاصطلاحية الحديثية حسب العصور المختلفة. - إيجاد قاسم مشترك بين ما ورد في هذه الكتب وبقية كتب علوم الحديث. - بيان مراتب المحدِّثين (الثقاة، والضعفاء، والمتروكين)، عن طريق تتبُّع العبارات التي جمعها أصحاب هذه الكتب، ومقارنتها مع التراث النقدي الهائل الموجود في كتب نقد الرجال.

• التحديات التي تشخص أمام اقتصاد المعرفة الحديثية:

إن عملية حوسبة السنة النبوية الشريفة تتباين مع عمليات تكديس كتب السنة ومصنفات علوم الحديث في الأقراص الليزرية المكتنزة التي تكتسح السوق العربية بالوقت الراهن؛ لأن الحوسبة هي عملية استقراء لمنطق أئمة الحديث وجهابذة نقاده، وصياغتها في منطق معلوماتي يمكن أن يدرج قيمة اقتصادية مضافة لهذه الموارد الخصبة.

ولكي نحقق قفزة نوعية جديدة على طريق إرساءٍ أسس متينة لاقتصاديات موارد الحديث النبوي الشريف، نحافظ من خلالها على هذا التراث من التغيير أو التحريف، مع ضمان وصوله إلى المسلم المعاصر بصيغة نقية وصافية؛ نوصي بما يأتي:

- ينبغي أن يكون قائماً في أذهاننا في الدوام: أن لا تطابق بين نوعية المعلومات ووفرتها؛ فوفرة المعلومات ليست سمة ضرورية لمجتمع المعلومات، وهي إن حدثت لا تصنع بالضرورة مجتمعاً قائماً على المعلومات، وإنما قد تصنع مجتمعاً تائهاً - بل ومشلولاً - تكتظُّ قنوات اتصاله بالمعلومات. لذا، فمن الضروري لأي مجتمع يسعى للحاق بعصر المعلومات أن يُنشئ آليات ترشيح وتقطير لها، وفق منطق معرفي محكَم يحافظ على هويتها من الضياع، ويذلل العقبات أمام توظيفها في شتى الميادين. من أجل هذا، فإن الحوسبة المعرفية لمواردنا الإسلامية باتت أمراً حتمياً لاحتواء الكم الهائل من المعلومات في صياغة معلوماتية مركزة وموجهة معرفياً.

- نود التأكيد على أن دورة تفعيل المعرفة داخل المنظومة

الحديثية هي حلقة متصلة تتألف من ثلاثة عناصر رئيسة هي: اقتناء المعرفة من أفواه الرجال وأمهات مصنفات الحديث، فاستيعابها في إطار معلوماتي قابل للتداول ضمن البيئة المعلوماتية المستحدثة، ثم توظيفها على أرض الواقع وإدارة دفة التعامل مع الآخر. ولكن غالباً ما سيتركز جهدنا بالوقت الراهن عند حدود اقتناء المعرفة دون استيعابها في إطار معلوماتي قابل للاستثمار. لذا ستبقى تقنية المعلومات وشبكة الإنترنت تحدياً صعباً أمام المؤسسة المعرفية الإسلامية فيما يخص معالجة مضمون خطابنا الإسلامي، وترسيخ قيمة إنتاجنا المعرفي عالمياً، وتقييم فاعلية مؤسساتنا داخل حدود العالم الإسلامي وخارجه فيما يخص حوارنا مع الآخر، وحوارنا مع بعضنا.

إن الكشف عن البُنى الشاملة للنص الشرعي سيتطلب دراسة (أنطولوجية) معلوماتية متأنّية تتعامل مع مفردات هذا النص وتراكيبها على مستوى حزم متن الحديث وطريق إسناده، وصولاً إلى توفير شبكة متماسكة من العلاقات التي تحلل عبارات نص المتن بكافة طرق روايتها في ضوء شجرة الإسناد، التي تكفل أصحابها بحمل رواية الحديث، مع ضمان سلامته من آفة الضعف.

● - **المراجع:**

١ - الرزّو، حسن مظفر، (٢٠٠١م - أ)، أنموذج معلوماتي لقواعد المعطيات الذكية المستخدمة في ميدان بحوث التراث الإسلامي، مؤتمر قواعد المعطيات الذكية وأثرها في دعم البحث العلمي في الوطن العربي، وزارة التعليم العالي والجمعية المعلوماتية السورية بالتنسيق مع اتحاد مجالس البحث العلمي العربية، ٢١ - ٢٢ أيار، دمشق، الجمهورية العربية السورية.

٢ - الرزّو، حسن مظفر، (٢٠٠١م - ب)، حوسبة السنة النبوية: المنهج المقترح والعقبات المحتملة، المؤتمر العلمي الخامس «تدريس السنة النبوية في الجامعات، كلية الشريعة، جامعة الزرقاء الأهلية، ٢٥ - ٢٨ كانون الأول ٢٠٠١م، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية».

٣ - الرزّو، حسن مظفر، (٢٠٠١م - ج)، إشكالية إدخال الحاسوب في ميدان العلوم الإسلامية، مجلة الرسالة الإسلامية، العدد ٢٦٨، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، حزيران ٢٠٠١م.



دفاعاً عن هوية الأمة الثقافية

محمد عبد الشافي القوصي
aldohapress@hotmail.com

منذ أن تأسست (رابطة الأدب الإسلامي العالمية) لم تتوقف الحرب ضدها لحظة واحدة، وقد استخدم (العلمانيون والحداثيون وإخوانهم في الرضاعة) الأسلحة كافة لمحاربة فكرة الأدب الإسلامي واقتلاعها من جذورها.. إنهم يريدون للأمة أدباً علمانياً أو ماركسياً أو وجودياً أو أي لون آخر من الأدب إلا أن يكون «إسلامياً»!

فالقوم يراهنون على تمزيق هوية الأمة الثقافية، حتى تصبح فاقدة الوعي والذاكرة، وتصير عالة على موائد الغرب وفتات الآخرين.

ومنطق الذين يعارضون (الأدب الإسلامي) هو منطق الذين يخشون الرؤية «الإسلامية»، ويرفضون الالتزام بالإسلام منهاج حياة، وهم يقولون جهلاً: لماذا تُدخِلون الإسلام في كل شيء؟! وكثير من هذه الشرذمة لا يؤمنون بالإسلام أصلاً، وإن كان بعضهم مسلماً بالهوية والاسم، كما أن هذه الفئة تعد الإسلام نفسه تخلفاً وجموداً وتأخراً، وهم يرون في الأدب الإسلامي خطراً يتهدد ما يؤمنون به من مذاهب الأدب الدخيل، سواء كان أدب الماركسية أو أدب الحداثة أو أدب الوجودية، أو العبثية، أو غير ذلك مما تجد له أتباعاً متحمسين يريدون أن يُلبِسوا أمتهم ما لا يتوافق وذوقها وأصالتها ودينها وتراثها الأدبي.

• مسرح التغريب والتخريب:

ومن أسف أنهم نجحوا في تحقيق غاياتهم؛ حتى صارت أرضنا وديارنا مسرحاً واسعاً لعمليات التغريب والتخريب والتجريب والاستلاب الحضاري والاجتياح الثقافي والغزو الفكري الذي يتم من خلال خطط علمية، تجنّد لها دوائر البحث العقول والأموال والأجهزة، وهي تعرف بالضبط ميادين عملها والأهداف التي تسعى إليها.

وقد يكون للغرب مسوغاته لاعتناق مثل هذه

الأيديولوجيات الوضعية، لكن أوطاننا ومجتمعاتنا العربية والإسلامية ما أغناها عن معرفة مثل هذه (الموضات والتقاليع) الفكرية التي يخترعها مستشرقون جاهلون أو مبشرون حاقدون أو أدباء ماجنون. وما كان ليحدث هذا في أرض الأنبياء ومهبط الهدايات، لولا أولياء الغرب وربائبه الذين يحتفلون بـ «نابليون» و «اللورد كرومر» وغيرهما ممّن مشى على تاريخنا مستهزئاً.

إنهم بالتعاون مع سادتهم وكبرائهم «يغربنون» العالم العربي والإسلامي، ويركّعونه، ليحوّلوه عبداً وخادماً بألف وسيلة: بالترويج للمذاهب والفلسفات الغربية، والتسويق للنظريات الاستهلاكية الشاذة، والتفريغ الفكري والثقافي، وإثارة الطائفيات العرقية والأقليات الدينية، واستغلال الجروح التاريخية، وفرض المخاوف الاجتماعية والمشكلات المستعارة والمصطنعة، وتشويه القيم التي تعارفت عليها المجتمعات، وتدمير الروح المعنوية للأمة، ونشر الضياع والفوضى والانحلال الأخلاقي.. فالغرب الآن لا يسلب الثروات المادية فقط كما كانت الحال في الأيام الاستعمارية البائدة، ولكنه يدمر القوى الفكرية والثقافية والروحية التي يمكن أن تقول ذات يوم: «لا» للغاصبين.

فترويضهم للعالم العربي والإسلامي هو نزع عناصر مقاومته، وتدمير حصونه الثقافية، وهذا شرط أساسي لاستغلاله بأقل جهد، وأسرع وقت، وأقل كلفة، والغاية عندهم تبرر الوسيلة؛ كما قال ممثلهم السياسي الأكبر (مكيافيلّي).

أولئك «أعداء الأمة» من علوج التغريب وسماسرة الفكر وتجار المذاهب الذين تلقّفوها من فوق قمامة الفكر الغربي، وروّجوا لها عبر صحفهم ومجلاتهم المأجورة، فصنعوا بها واقعاً مريراً، ودنيا مختلطة، وراحوا يطالبون الآخرين بأن يعتنقوها ويؤمنوا بها، بلْ يرهبونهم بشتى الوسائل، كما قال سلفهم الطالح لمخالفيهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣]!

حزينٌ أنت يا وطني! لقد ابتليتَ بدعاة العلمنة والتنوير والحداثة من أمشاج وبقايا حقبة الماركسية، أولئك الذين إذا ذُكرَ الإسلام اشمأزّتْ قلوبهم، وإذا ذُكرتْ الماركسية وأخواتها إذا هم يستبشرون! أولئك الذين رتعوا في أجهزة الإعلام فعربدوا في ميادين الفكر، متطاولين على التراث، ملفّقين التاريخ، مزيّفين الواقع، مضلّلين الطريق للمستقبل.

وليس مصادفة أن تختارهم أجهزة الاستخبارات الغربية لإصدار مجلات فكرية ثقافية باللغة العربية، اختارتهم أجهزة الاستخبارات دون غيرهم، ولم تختر رجعياً ولا يمينياً ولا إسلامياً! وما كتب أحد من هؤلاء سطراً في تلك المجلات المشبوهة، ولا سُمِحَ له حتى بحق الرد المكفول عرفاً وقانوناً؛ أيْ: اختارت حَمَلة لواء مهاجمة الإسلام ودعاة التقدم والانفتاح، الكارهين لأمتنا، الثائرين على ديننا وتراثنا: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦].. لذلك فإن الإصلاح المنشود يقتضي أن يخرج من المؤسسات الثقافية والإعلامية كل من شاركوا في تلك الحملة الصليبية ضد هوية الأمة ووجودها الحضاري.

إنهم يريدون للأمة أدباً علمانياً أو ماركسياً أو وجودياً أو أي لون آخر من الأدب إلا أن يكون «إسلامياً»!

سيقول المغفلون من الأعراب فيما بينهم: واصلوا الدفاع عن «العلمانية» و «الحداثة» و «التنوير» لإزالة الثوابت الدينية، وإقامة الدولة المدنية، ونشر مبادئ العلمانية، وما أُوحي إلينا، وما أُوحي إلى أساتذتنا من قبل: ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]!

ومن جانبنا نقول: إذا كانت حرية مَن يسَمُّوْن بـ «دعاة التنوير والحداثة» هي أن يكتبوا ما يشاؤون، فحريتنا نحن أن نردّ على أخطائهم وخطاياهم، وللرأي العام والتاريخ بعد ذلك أن يفصل في الأمر كله؛ فليس بالحداثة تحيا الشعوب؛ فهناك أُمم وشعوب كثيرة لم تفرّط قيد أنملة في تراثها وماضيها، وهي تخطو الآن خطوات واسعة لقيادة العالم كالهند والصين وما حولهما من القرى.

لذلك؛ فالواجب على الأدباء والمثقفين الأصلاء أن يكشفوا عن تلك المؤامرة التي ينسج خيوطها «مارينز» الثقافة العربية، وربائب الاستعمار، واليساريون المتأمركون،

وأن يردّوا على (قباقيب) الغرب، عســى الله أن يكفّ بأس الحداثيين والتغريبيين.. والله أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلاً!

• الإرهاب الفكري:

نعــم! إن المتأمل في المشــهد الثقافي في بلادنا لا يكاد يملك نفسه من فرط الحسرة التي تنتابه لما آلتْ إليه منظومة الثقافة على أيدي المتغرّبين الذين حوّلوا الثقافة والأدب إلى حربٍ تهاجم الإســلام والمســلمين، وحوّلوا الفكر والفن إلى هتاف وصياح وصرخات تشنجية، ومارسوا أسلوب الإرهاب الفكري في وجه مخالفيهم، وكثير من روّاد الفكر «المزعومين الواهـمين» فــي بلادنا المغلوبــة على أمرهــا، صنعوا من فكرهم بوقــاً يردد في غير وعي مبــادئ المذاهب الوافدة، ويروّج لها ويحـاكيها في مؤلفـاته وآرائه، وأحياناً كثيرة يقوم بعض هـؤلاء الواهـمين بســرقة الأفكار التغريبية، وتقديمها فــي صــورة مشــوهة ممســوخة، كما هــي الحال فــي المؤلفات التي يتحــدث أصحابها عــن «البنيـويـة» و«التفـكيك» و«الألســنية» وغيرها من مفردات الحداثــة، ولولا الحياء لذكرت أســماء هذه الكتب، وأسماء وعناوين أصحابها، وأرقام هواتفهم، وأنــواع الهدايا والمنــح والموائد التي تتنزّل عليهم وعلى حواريهم بســبب نشر هذه الكتب والترويج لها.

ومــن ثم أصبــح الأدب لوناً من ألوان المطاردة العنيفة لكل ما هو جاد وأصيل، حتى وجد المخلصون أنفســهم محصورين في زوايا ضيقة، ومرغمين على الاستسلام والصمت، وخلا الميدان إلا من التغريبيين والعازفين على أوتار القيثارة الرسمية.

وبســبب طوفان المذاهب الأدبيــة الغربية، غدا الأدب إحــدى أدوات الغزو الفكــري، ووُظّف فــي خدمة المبادئ الهدامة، وكأن الزمان قد اســتدار كما كان أول أيام المجتمع الإسلامي في المدينة، عندما كان المشركون يرشقون المسلمين بالقصائد، وينالون فيها من عقيدتهم ورجالهم ونســائهم... أكاد أقول: إن ما يعانيه المسلمون اليوم من الأدب والفن أشد مما عانوه من قبل؛ فالهجوم أشد وأعمق، والأسلحة تجاوزت الشعر إلى أجناس الأدب كلها.

فأمتنا تشــهد اليوم انسلاخاً حضارياً، وعدواناً تدميرياً من جنود دعاة الأدب الرقيع، ومن ذلك ما يردده أهل الباطل من زخرف القول، وما يدّعونــه من حياد الفن، وتحرره من قيــود العقيدة، وهــؤلاء يقدمون أدباً ســخيفاً وفناً مدمراً للأخلاق، ومدمراً للشــعور، زاعمين أنه لا علاقة بين الدين والأدب، كمــا زعم إخوانهم في الغيّ أنه لا علاقة بين الدين والسياسة.

• المجتمع التائه:

إنها تجلّيــات (المجتمع المغرَّب) الــذي تجرّد عن ثيابه، وتنكّر لتاريخه، حتى صار كأنه لقيط، بعدما افتقد شــهادة الميلاد، وفقد ذاكرته، وصار خليطاً من الثقافات والفلسفات الأرضية والوضعيــة... ذلكم المجتمع الذي تزدحم طرقاته بأفخر السيارات المســتوردة وأحدثهــا، وتضــم مدنه أفخم دور عرض الأفلام المســتوردة، ويرتــدي أهلــه أحدث المنســوجات المســتجلبة، وعلى أحدث (الموضات) الغربية، ويثرثر مثقفــوه في قاعات مكيفــة بأجهزة أمريكية أو روســية عن مشــاكل المجتمع الغربي وآلامه، ويملــؤون صفحــات وصفحاتحــول قضايا الوجودية، والحداثة والبنيوية، وخطوط(الموضة)، ومسرح اللامعقول، والجنس الجماعي، وتطور حركة (الهيبيز)، على بُعد خطوات من كهوف مواطنيهم حيث البلهارسيا والكوليرا والتراخوما، وكل تراكمات التخلف منذ القرن السابع عشر.

وقد نجح الغرب بامتياز في صناعة عمالة ثقافية تخدم أطماعــه وتحقق أهدافه، على حين فشــل في تحقيق ذلك عن طريق الحروب والمواجهات العسكرية عبر مئات السنين؛ وذلــك بفضل الطابور الخامس الذيــن صار ولاؤهم للغرب أكثر من ولائهم لأوطانهم ومجتمعاتهم التي لم تألُ جهداً في تعليمهم؛ أملاً في الإصلاح والنهضة.

قد نجح الغرب بامتياز في صناعة عمالة ثقافية تخدم أطماعه وتحقق أهدافه، على حين فشل في تحقيق ذلك عن طريق الحروب والمواجهات العسكرية عبر مئات السنين

لقد صال وجال سدنة (المجتمع المغرَّب) في ميادين الفكر والثقافة والأدب، حتى رأينا منهم من يطالب بإزاحة اللغة العربية من الوجود طلباً للنهضة التي ينشدها، ومنهم من يدعو إلى التخلص من تراثنا لتحقيق الحداثة والتنوير، وهناك من يتجرأ على المقدسات باسم الإبداع وحرية الفكر، وراحوا يفرزون كتابات كريهة كأرجل الفئران ورؤوس الشياطين، وأطلقوا عليها لفظ «الإبداع» حتى فقد المصطلح دلالاته ومراميه من كثرة اللغط حوله، بل جعلوا الإبداع معبوداً تنحني له الجباه؛ والمبدع لا يُسأل عما يفعل! وغير ذلك من الجرائم المخزية والمشاهد الفاضحة التي يمارسها حفدة ابن سلول، وعبيد الغرب وخدمه، على النحو الذي نراه ماثلاً أمام أعيننا.

○ دعوة إلى الأدباء الإسلاميين:

إذا كانت هناك كلمة باقية فإنما هي دعوة للأدباء الشرفاء جميعاً، من أجل تضميد جراح الوطن العربي الذي تعرَّض كثيراً لرياح التغريب والعلمنة، وسهام الحداثيين الطائشة.

فالأمر جدُّ خطير، خاصة بعدما حرث هؤلاء الأرض أمام كل ما دُبِّر لهذه الأمة في الظلام، وراحوا فرحين ينادون بقطع علاقة الدين بالثقافة والأدب وسائر شؤون الحياة، وإطلاق العنان للأهواء البشرية بلا قيود ولا حدود.

ولقد كان عهدنا بهذه الشرذمة هو التخفي والالتفاف والمناورة؛ لما يعلمون من خروج دعوتهم على محكمات الكتاب والسنة والقيم الراسخة من الأعراف والتقاليد الاجتماعية، إلا أنهم قد تجاوزوا ذلك، وأخذوا يستعلنون بهذه الزندقة بعد أن تواصوا في محافلهم بذلك، وأجلبوا بخيلهم ورجلهم على مرتكزات الشريعة وأصولها الكبرى، وهدم القيم والأخلاق، والتكتل في جبهة موحدة لمواجهة الأدباء المحافظين، في جرأة لا يحسدون عليها، ضاربين عرض الحائط بقواعد الأدب والبيان، وما استقر في وجدان هذه الأمة وضميرها.

فلقد رأينا منهم من يعلن بملء فِيْه رفضه المطلق لقضية التوحيد والإيمان، وتبنِّيه الفصل المطلق بين الدين والحياة، واستعداءه على حَمَلَة الشريعة ودعاة الإسلام، بل على الشعائر الإسلامية ذاتها.

ولقد رأينا منهم من يغتالون التاريخ الإسلامي كله: فلا يرون فيه إلا سلسلة من المجون والمظالم محاكاة منهم لادعاءات اليهود وكتابات غلاة المستشرقين والمغرضين.

كما رأينا منهم من يسخر بشدة من الرموز الإسلامية والفكرية، بل إن منهم من تطاول على الأنبياء والمرسلين، ورسالات السماء: بالتلميح تارة، وبالتصريح تارة أخرى كما في أشعارهم الفاسدة التي ينشرونها في الصحف والمجلات.

لذا وجب على «الشرفاء» أن يعلنوا إبراءً للذمة أن مثل هذا التطرف العلماني الجاهلي خروج على دين الأمة! وعدوان سافر على مرجعيتها المقدسة كتاباً وسنة! كما أنه في الوقت ذاته إساءة بالغة إلى وجه العروبة والإسلام.

إنه لمن المحزن حقاً أن تصبح ثوابت هذه الأمة ومحكمات هذه الملة عرضاً مباحاً لهؤلاء الجهلاء، يخوضون فيه طعناً وتسفيهاً وتشويهاً وتزييفاً، بعدما تجردوا من العقل والموضوعية والخُلُق.

يا معشر «الشرفاء»! إن الذي تشهده الساحة الفكرية والثقافية في الوطن العربي، من استطالة التيار العلماني التغريبي، واستماتتهم في محاربة الحق، وعزل هداية الإسلام عن مسيرة هذه الأمة، والزج بها في مجاهل الأرض وخوادع السبل، عن طريق نشر نفايات المذاهب الفكرية والأدبية المستوردة؛ يُعدُّ خيانة عظمى لهذه الأمة وللحقيقة المجردة، وإن التمكين لذلك يُعدُّ إعانة على هذه الخيانة، ومسلكاً عدائياً لا تصلح به دنيا ولا يبقى معه دين.

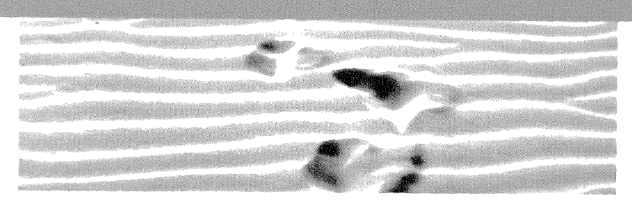
وعلى الأدباء «الشرفاء» أن يعلنوا مرة أخرى براءتهم إلى الله - عز وجل - من تلك «الجاهلية المعاصرة» بكل مذاهبها وأجناسها ورجالها وأدواتها، وأن يعلنوا صراحة أن مثل هذه الدعوات الكاذبة والمذاهب الفلسفية والأدبية الشاذة التي تتنافى وسمو الإسلام ورسالته إنما هي امتداد للوجود الاستعماري التخريبي في البلدان العربية والإسلامية جمعاء.

هذا بلاغ لكم والبعث موعدنا
وعند ذي العرش يدري الناس ما الخبر!





من خطوات دخول جحر الضب



د. حياة بنت سعيد با أخضر[*]

من المواضيع التي بدأت تطفو على سطح القضية المفتعلة (قضيـــة المرأة) موضوعُ فتح كليات إعلامية للنســـاء؛ بهدف الارتقاء بالموهوبات منهن؛ وتذليل المعوِّقات والصعوبات التي تقف حائلاً دون اســـتمرار إبداعهـــن؛ ولتظل الأقلام القوية مشـــرَعة في المجالات الإعلامية وفق المناهـــج المأخوذ بها (أكاديمياً). وقد تنادى بذلك بعض الرجال والنساء، بل ممن نحســـبهم من أهل الخير والصلاح، وفتحـــت لهذه الدعوة الســـبلَ للمناداة بهـــا وتحريك النفـــوس الضعيفة للمطالبة بإخراجهـــا إلى النور، في وقتٍ تتداعـــى الفتن علينا بخيلها ورجلهـــا لإدخالنا جحر الضـــب. وإن المصارحة الأخوية مع أخواتنا هي الطريق فيما أحســـب لدرء المفاسد، والأمن من غضب الجبار؛ فأقول بحب أخوي لأخواتي في الله:

من خلال منهج أهل السنة والجماعة نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر؛ لذا نقول: إن إخوتنا ما قصدوا بدعوتهم تلك إلا رؤيتهم للزخم الإعلامي يواجهنا من جميع الجهات؛ فأرادوا النفير أمام هذه الهجمة الشرســـة بكل القوى والتي منها النساء اللاتي لديهن قدرات إعلامية للتخصص، ولكننا نقول لهم: ليس كل من اجتهد يصيب، والنية لا تكفي وحدها إن لم تُضبَط بضوابط الشرع؛ فالأمر جد خطير!

ومن خلال كل ما سبق أقول بلسان المحبة لكل المسلمين عامة، وأهل بلادنا على وجه الخصوص:

من الملاحظ تسابُق بعض نسائنا للعمل الإعلامي المرئي والمســـموع مع ما يكتنفه من اختلاط، وتبرج، وإظهار زينة، وخضـوع في القـول، وتـوزيع الابتســـامات، ورفع التكلف مع زملاء المهنة، وحجابٍ هو مجرد ديكور ظاهري، مما قد يكون من الأمور المعلوم تحريمها بالضـــرورة. وهذا كله حدث في ظل غياب الإعداد الأكاديمـــي. فلننظر بهدوء للموضوع من عـــدة زوايا لا بد منها، أذكِّر بها من يهمه الأمر؛ إبراءً للذمة. وذلك على النحو التالي:

١ - هناك إعلام صحفي لا اختلاط فيه ألبتة، وقد انتشر

(*) أستاذ مساعد بمعهد اللغة العربية لغير الناطقين بها بجامعة أم القرى - مكة.

بـين أخوات فاضلات من خلال مجلات هادفة وزوايا ثابتة، وبحمـد الله - تعالى - شـق طريقه وأخذ مكانه بين سـيل المجلات المخالفة. وهذا النوع الإعلامي يحتاج إلى الوقفات الآتية:

كل العامـلات فيه تقريباً بـلا تأهيل علمي متخصص، ويعملن على حسب أوقات فراغهن، ولا يجدن في العادة من ينشر لهن أو يتبنى مواهبهن ويرتقي بها.

والحل الجـذري لهن، بعيداً عن الأحـلام والغلو في وضع الخـطـط التي تقود للمحرمـات، أو علـى أقل تقدير قد تقود للشبهات:

- إقامة دورات خاصة بالعمل الصحفي النسائي: المتميز بخلوه من الاختـلاط، أو ضرورة النزول إلى أماكن بعيـدة أو غير ذلك مما لا يليق إلا بالرجال. وهذه الدورات لا بد أن توضع مناهجها من قِبَل فئتين هما: فئة علماء الشريعة، وفئة علماء الإعلام المزكين في دينهم. وتضم من بين برامجها: فقه الدعوة من القرآن والسـنة، فقه إنكار المنكر، مستويات عدة فـي أصول الفقه للعلم بمقاصد الشـريعة ومعاني القواعد الفقهيـة المهمة؛ (درء المفاسـد مقدم علـى جلب المصالح، وكذلك مسألة سد الذرائع)، الغزو الفكري، المذاهب الفكرية، الأديان المعاصرة، السـيرة النبوية ودروس تربوية منها. وفي مناهج أقسام الإعلام بجامعاتنا ما يغنينا، مع مراعاة أن في المناهـج الجامعية ما هو خاص بالرجال فقط مما هو معلوم لعلمائنا.

- تبنِّـي الأقلام الجادة فـي المواقع والمجلات والصحف الإسلامية التي انتشـرت عن طريق تعيين مندوبات لها في كل مناطق بلادنا الحبيبة.

- وضع الحوافز المناسـبة للمجهـود الصحفي؛ لتتفرغ الصحفيـة الموفقـة لهذا العمـل الهام في زمـن العولمة الإعلامية الفاسدة.

٢ - إن فتح أقسام إعلامية للنساء بجامعاتنـا يعني تخرج دفعات متوالية لا بـد أن نبحث لها عن عمل، وسـنجد أقلاماً تكتب بإلحاح عن ضرورة إيجـاد أعمال لهن في تخصصهن الذي يشمل الإخراج وتقديم البرامج والتمثيل والغناء والصحافة وغير ذلك؛ لأن مجالات الصحافة الإسـلامية قد اكتفت. عندئذٍ سـيفتح باب جحر الضب، وسـندخله شئنا أم أبينا بأيدينا، بل بأيدي من نتوسم فيهم الخير وبحسن نياتهم، ولن ينفعنا الندم ولا عض الأصابع؛ لأن الأمر قد خرج من الحق إلى الباطل؛ فنسأل الله السلامة.

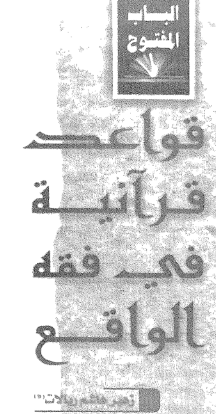
٣ - إن فتح هذا الباب سـيقودنا، كمـا قاد غيرنا، إلى المطالبة بفتح أكاديميات متخصصة في الموسـيقى والسينما والتمثيل؛ تخرِّج لنا كل عام أشـباه الرجال وأشباه الجواري الغوانـي ممن تطفح بهم المجلات المشـغولة بأخبارهم التي تُبيِّن حقيقة حياتهم حتى باتوا هم القدوات.

٤ - كما سـيقودنا إلى إقامة المسـابقات الخاصة بهذه الفئات وتكريمهم - كما يزعمون - والتنافس السـنوي لتقديم أعمالهم؛ مما هـو معلوم للجميع مما نشـاهده في الدول الأخرى التي ابتليت بنيـران هذه الفتن؛ حتى صار المعروف عـندهـم منكراً والمنكر معـروفاً؛ لـذا حاربوا من هداهم اللـه - تعالى - إلى الحق أو زينوا لهم الباطل في ثوب الحق؛ ليعودوا من جديد إلى حلبة الباطل.

إخوانـي وأخواتي الأفاضل: إن المسـلم في وقت الفتن عليه أن يلتزم بما كان عليه الرسـول ﷺ والسلف الصالح، مـع تحري الأدلة الصحيحة وأخذهـا من مصادرها الموثقة والعلماء الثقاة، وألا نجعل لأعدائنا سبيلاً لهزيمتنا؛ وأهمها الهزيمة النفسـية والشـعور بالتبعية للآخرين. كما أن من الواجـب علينا أن نكون نحن من نعطـي للعالم الضائع من حولنا السبلَ السـوية لنجاته؛ ففي ديننا ما يكفي لكل ذلك، وألا نوقظ فتنة المرأة ونخرجها من خدرها إلى جحرها.

• • •

وأنتن يـا معشـر أخواتي الفاضـلات في بلادي الحبيبـة! لا تكنّ المركب الذي يركبه أعداؤنا لتنفيذ مآربهـم؛ فـأنتِ - يا أختاه - عند خالقك أكرم مـن أن تُهاني بفقدك لفطرتك ولحيائـك والهدف من وجودك. وتذكّري دائماً أنك الآن سلاح ذو حدين؛ فاختاري الطريق الأسلم. والله من وراء القصد.



قواعد قرآنية في فقه الواقع

زهير هاشم ريالات (*)



يقول المفكر الإسلامي مالك بن نبي – مشخصاً الداء الذي تعاني منه الأمة الإسلامية –: «إن مشكلتنا ليست في الاستعمار، وإنما في قابليتنا للاستعمار». وهذا الأمر ما زال يَصْدُقُ على أمتنا في هذا الزمن، رغم المدة الطويلة التي مرت على هذه الكلمات؛ فالهزيمة والتمزق والضعف الذي نعيشه ليس هو المشكلة الحقيقية... مشكلتنا ليست الهزيمة، وإنما الانهزامية.

• قواعد وسنن مهمة يلزم فقهها:

إن ما نسمعه اليوم على لسان كثير من الناس من دعوة إلى الذل والخنوع والخضوع سببه عدم فقههم بالقواعد والسنن التي ينبغي أن نفهمها ونعتقدها حتى يَحْسُنَ تعامُلُنا مع الواقع الذي نعيش، وحتى نكون إيجابيين في عملنا لتغيير هذا الواقع، ومن هذه القواعد:

أولاً: أن نوقن بأن الله – تعالى – هو الفاعل الحقيقي للأشياء.. كل شيء بقدر الله، وكل شيء بإرادة الله:

وفي قصة موسى وفرعون تحدٍّ للمنطق العقلي.. تأملوا معي: عَلِمَ فرعون أن هلاكه سوف يكون على يد مولود من بني إسرائيل؛ فأمر بأن يُقتل كلُّ مولود، أراد فرعون أن لا يعيش، وأراد الله أن يعيش، بل كان قَدَرُهُ – سبحانه – أن يعيش موسى – عليه السلام – في قصر فرعون، وأن يتولى فرعون بنفسه تربيته!

خرج موسى غريباً مطارداً فأَمَّنَهُ الله وزوَّجه، عاد نبيًّا وداعياً إلى الله وهو مطلوب الدم، ويدخل على أعظم ملوك الأرض، ثم يخرج بعد ذلك منتصراً. خرج بقومه بني إسرائيل، فأتبعه فرعون بجنوده، وكل قوانين الأرض تحكم أنه هالك لا محالة؛ فخلفه جيش مدجج بالأسلحة، وليس معه سوى مجموعة لا تملك إلا إيماناً ضعيفاً مهزوزاً، وعصا يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه وله فيها مآرب أخرى، ولكن... كيف كان موقفه وقد أيقن أن كل شيء بقدر الله: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: 61 – 62]. فكانت النجاة لموسى ومن معه، وكانت الهلكة لفرعون وجنوده.

ثانياً: أن نزن الأمور بحقائقها لا بظواهرها:

المسلمون في غزوة حنين قاسوا الأمور بالظواهر فقالوا: لن نُغلَب

(*) ماجستير تفسير – محرر مجلة (الفرقان) – الأردن.

اليـــوم من قلة، فأنزل اللـــه – تعالى –: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُـمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَـوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَـيْئًا ﴾ [التوبـة: ٢٥]. وأما في بدر: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٣] فليســت العبرة بالعدد: هذه قلة وهذه كثرة، قلة معها الله، وكثرة معها الشـيطان، وما ينطبق على العدد ينطبـق على العُـدَّة، واللبيب من يعتبر بما حصل سـابقاً ليُسْقِطَه على الواقع.

ثالثاً: أن نراعي السنن الكونية في فهم الواقع:

فهناك ســنن كونية لا بد من الأخذ بها، وأي تغافل عنها هـو هروب من فهـم الواقع وحقيقته. وهـذه الســنن لا تتغير ولا تحابي أحداً: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّـهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب: ٦٢]، ﴿ دَمَّـرَ اللَّهُ عَلَيْهِـمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَـا ﴾ [محمد: ١٠]. وإنما الذي يكسبها هو الذي يستطيع أن يغير في حياته وواقعه.

ولعل من فقـه الواقع والعمل لتغييـره اصطحاب تغير الأنفـس وما جبلت عليه من الوهن والضعف: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَـا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِـهِمْ ﴾ [الرعـد: ١١] فإذا أردنا تغيير واقعنا ينبغي علينا – أولاً – أن نغير أنفسنا.

وقد جعل الله – عز وجل – ســنة للنصر لا تتخلف إلى يوم القيامة فقال – تعالى –: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُـمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧]. فلما لم نراعِ هذه السنة أصبح حالنا كما نرى.

وجعل الله – عز وجل – للبركة والغنى وســعة الرزق سنة كريمـة: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُـوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَـا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وأمتنا اليوم تعيش أزمة الفقر والجوع والجهل والمرض رغم الثروات الهائلة التي تملكها.

رابعاً: أن لا نكون رهنا لظروفنا وأوضاعنا:

وهــذا ما ألمح إليـه مالك بن نبي عندمـا حلَّل ظاهرة اســتعمار البـلاد الإسـلامية؛ فجعل من أسـباب ذلك (قابلية) هذه الأمـة للاسـتعمار. وهــذا لا يعني أن نغفل مواطن الضعف في مجتمعنا، وإنما علينا أولاً قراءة الواقع بـ (روح الإقدام)، ثم حسن التعامل معه والإيجابية في العمل لتغييره؛ للوصول إلى مسـتقبل أفضل: ﴿ فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّـلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٥]، فإذا اجتمعت معية الله مع العمل فالمسـتقبل لنا ولن يضيع الله أعمالنا.

أما التخاذل والانهزامية بحجـة (الوضع الراهن) وقوة العدو فنتيجته الضياع والتيه حتى يأتي الجيل الذي يستحق الفتح: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَـى إِنَّ فِيهَـا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَـن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ [المائدة: ٢٢] فماذا كان حكم الله فيهم؟! ﴿ قَـالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَـنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٦].

خامساً: أن نقرأ الواقع قراءة شمولية لا تجزيئية. جماعية لا فردية. والابتعاد عن ظاهرة (الشخصنة):

فالكثير منا عندما ينظر إلى حال المسلمين يعود به الحنين إلى شخص صلاح الدين رحمه الله، علماً بأنه كان ثمرة من ثمرات عمـل جماعي متراكم، بل أصبحت بعض الفرق ترى في ظاهرة (الشخصنة) سبيل النجاة من أوضاعنا وظروفنا الصعبة، كفكرة المهدي في الفكر الشيعي.

أما منهـج القرآن فهو: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَـيَرَى اللَّـهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُـولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَـتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥] فالخطاب موجه إلى مجموع الأمة لا لفرد منها.

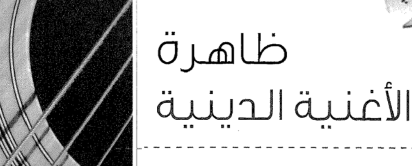
سادساً: أن نعلم بأنه لا تمكين إلا بعد ابتلاء:

وهذه إحدى العبر المستفادة من سورة يوسف؛ فيوسف – عليه السـلام – ابتلي بفراق الأهل وفتنة النساء والسجن وفتنة المُلك والحُكم، ولكن ماذا كانت النتيجة: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُـفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٥٦].

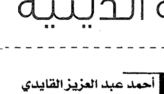
ولذلك – أيهـا الإخوة – لا تحـزنـوا لفـرحة ظـالم ولا لغلبـة باطل؛ فإن للباطل جولة وللحق جولات. وكثير من الآيات ختمت بقوله – تعالى –: ﴿ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ في شــأن الكافرين، ومعنى (حبط) في أصـل وضعها اللغوي: هو أن تأكلَ الدابة نباتاً ساماً فتنتفخ ثم تموت، فيظن قصار النظر أن انتفاخها دليلُ عافيتها وقوتها.

وهذا الأمر ينطبق على اليهود والأمريكان؛ فإنهم يعيشون الآن فـي مرحلة الانتفاخ والعلو والطغيان، ولكن من آتاه الله بُعْداً في النظر، وصدقاً في اليقين، يعلم أن الله – تعالى – يأبى إلا أن ينصر دينه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ۝٢٠ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُـلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢٠ – ٢١]. النصـر قادم بإذن الله، ولكـن بعد أن نقوم بواجبنا: ﴿ إِن تَنصُـرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد: ٧]، وبعد أن ندفع ضريبة النصر: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].





ظاهرة الأغنية الدينية



أحمد عبد العزيز القايدي
alharbe07@hotmail.com

انتشر في الأيام السابقة في كثير من القنوات ومواقع شبكة الإنترنت ونحوها نوعٌ من الغناء اصطلح عليه (الغناء الديني). ولعلنا في هذه المقالة نبرز شيئاً من سماته وآثاره.

• ما الأغنية الدينية؟

يمكن وصفها بأنها كلمات ذات طابع ديني أخلاقي اجتماعي لا يوجد فيها ابتذال أو فحش يقوم بأدائها مغنٍّ أو مغنية (امرأة) يستخدم فيها آلات العزف.

فالمؤدي إذاً هو مغنٍّ من عامة المغنين له أغاني عشق وغرام وغزل، ولكنه غنَّى كلمات تحث على التوبة أو بر الوالدين، فأصبح غناؤه (دينياً).

ومن المعاني التي تدور حولها الكلمات: بر الوالدين، التوبة، المولد النبوي، مدح النبي ﷺ والذب عنه، سرد الأسماء الحسنى، الحج، القضية الفلسطينية، رفقة الصالحين، التسامح مع الكفار، التكافل الاجتماعي، رمضان، أدعية، وغير ذلك.

• تاريخ الأغنية الدينية:

كانت أم كلثوم من أوائل من ابتدع الغناء الديني، فكانت أغنية «نوّرت يا رمضان»، ثم تبعها على هذا النسق كثير من المغنين في عصرها، واشتهرت هذه الظاهرة في ذلك الوقت، ومع مرور الزمن خبا بريق هذه الظاهرة. ويُعدُّ سامي يوسف[1] من أوائل المعاصرين الذين أعادوا بريق مثل هذا النمط من الغناء بأغنيته الشهيرة (المعلم) التي بيع منها أكثر من مليون نسخة، ثم تبعه بعد ذلك مجموعة من المغنين الرومانسيين الذين يخالفهم سامي يوسف في طريقته. وكثرت الألبومات المطروحة في الأسواق وبعضها لمغنيات مشهورات بالجرأة على التعري، ويوجد أيضاً فرقة (راب)[2] أمريكية راقصة متخصصة في الغناء الديني وتقيم الحفلات الغنائية في كثير من بلدان العالم، وتطلق على نفسها (جنود الله). ويبدو أن الاسم لم يثرْ اهتمام (CIA)؛ فلم تستجوب الفرقة أو تمنعها من العمل داخل الولايات المتحدة، ولم يضعها بوش في قائمته للإرهاب!

• المخالفات الشرعية:

يحوي ذاك الغناء مخالفات شنيعة، منها:

١ - **الشرك بنوعيه الأكبر والأصغر:** فهذه كلمات إحدى هذه الأغاني تقول:

مدَد مدَد مدَد   مدَد مدَد مدَد
مدَد يا رسول الله

- والحلف بغير الله موجود أيضاً؛ كالحلف بالنبي ﷺ والحلف بسور القرآن:

أقسمت بالإسراء   وبراءة العذراء
الدم كل سواء   حرام بأمر الله

٢ - **الدعوة إلى البدع:** كالاحتفال بالمولد. وفي إحدى هذه الأغاني دعا المغني الجمهور إلى الذهاب إلى المولد، ويبدو أنه نسي نفسه فأتى بواقع المراقص معه وحث على الرقص، وربما لم يجد فرقاً بين الواقعين! وفي كليب آخر تُعرض رقصات الطريقة المولوية الصوفية الشهيرة.

(١) مولود في طهران من أصل أذربيجاني، وانتقل مع عائلته وهو في سن الرابعة إلى بريطانيا.

(٢) نوع من أنواع الغناء الأمريكي الصاخب المصحوب بالرقص الجامح.



٣ - **تمييع عقيدة البراء من الكفار:** فهذه الأغاني يكثر فيها الحديث عن التعايش مع الكفار والأخوة الإنسانية والسلام والمحبة. وفي هذا السياق يقول أحدهم: (لا ينبغي أن تُحصر الأغنية الدينية في دين معين، أو أن تنحاز، أو يكون القصد منها محاربة دين آخر. على العكس؛ من خلالها نسبِّح الله الواحد الذي يوحدنا جميعاً باختلاف طوائفنا ومذاهبنا. هذه غايتي منها، وأعتقد أننا متفقون جميعاً على حبّ الله)(١).

وفي إحدى الكلمات:

أنشودة المسيح رسالة حرة

على الأرض السلام، وبالناس المسرّة

وترى في بعض الكليبات شيخاً محتضناً قسيساً يهنئه بمناسبة العيد والصليب يتدلى على صدره، والزنار مشدود على وسطه، ضارباً بعقيدة الولاء والبراء عرضَ الحائط.

لذا تجد جزءاً من هذه الأغاني يكتب كلماتها أو ينتجها نصارى.

٤ - **الاختلاط:** فلا يكاد يخلو كليب من هذه الأغاني من اختلاط بين الرجال والنساء، إما في الأفراح، أو في حفلات التخرج الجامعي، أو في المناسبات العائلية أو الدينية. وفي أحد الكليبّات تظهر عروس وهي في كامل زينتها مع عريسها ليلة الزفاف سائرين بين الحضور. وفي آخر، تمادى المنتج فأخرج لقطة لشاب وهو يغازل فتاة في السوق.

٥ - **التبرج والسفور:** ومع أن هذه الأغاني تحمل صفة دينية إلا أن مخرجيها لا يبالون أن يخرجوا النساء بلا حجاب مطلقاً، أو واضعات قطعة قماش على الرأس وهن في كامل زينتهن.

٦ - **الموسيقى:** يستخدم المغنون في هذه الأغاني جميع الأدوات الموسيقية بكل أشكالها وأنواعها؛ من الطبلة إلى القيثارة مروراً بالبيانو.

• الآثار المترتبة:

- التلوُّن وذوبان الحقائق هو ناتج طبيعي لمثل هذه الأغاني، فإذا كان المغني على قناة يتحدث عن التوبة، وبمجرد ضغطة زر واحدة تجده على قناة أخرى في أحضان امرأة شبه عارية، فأيُّ معنى يبقى للتوبة التي يغني عنها؟ ومِنْ ماذا يتوب إذا كان وهو في كليبّ التوبة يعزف على (الناي)؟! فتُفرَّغ القيم الإسلامية بمثل هذه الممارسات من حقيقتها ويجتمع الإيمان والفسق. فهذا المغني الذي فُتِنت به نساء المسلمين، ولديه جلسات احتضان خاصة بالنساء، وأفلامه محل انتقاد عند السينمائيين أنفسهم؛ يأتي لِيوجّهنا إلى جعل «الجنة في بيوتنا»! وبهذا الشكل لا يبقى للمفاهيم الإسلامية خصوصية تبقيها متميزة عمّا سواها، زيادة على امتهانها والعبث بها بهذه الازدواجية.

- إضفاء الشرعية على مثل هذه الأغاني حتى تصبح واقعاً لا يصح إنكاره، بل ربما يُنكَر على من أنكره فيصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً. وهذا ينعكس على المغني نفسه؛ فلا يرى خطأ في شيء من ممارساته، بل يصده ذاك الاعتقاد عن التوبة إلى الله. وهذا ما حصل مع مغنٍّ شهير مات منتج كليباته بجواره، فعزم على التوبة، ولكنه اختار الغناء الديني، ثم بعد مدة عاد كما كان.

- تلبيس الحق بالباطل، فالباطل هو الغناء والتشبه بالكفار في الزي والحركات، هذا كله يُلبَّس بالمعاني الإسلامية - المحرَّفة أصلاً -؛ فيروَّج للغناء بحجة أنه يحمل معاني إسلامية، وفيه خدمة للإسلام ووسيلة لنشر الدعوة؛ فيبقى هذا الباطل ويرسخ في النفوس على أنه مشروع، وتنتشر الأغاني في المجتمعات الإسلامية ويصبح سماعها سائغاً وتألفه النفوس.

- نشرٌ لعقيدة الإرجاء، فهذا المغني الفاسق المتغزل بالنساء الشارب للخمر، إذا دخل المسجد ومدح النبي ﷺ، وحثَّ على بر الوالدين؛ أصبح نموذج المسلم الصادق. وتلك المغنية المشهورة بالتعري إذا لبست الحجاب وسألت الله؛ أصبحت الطاهرة العفيفة، فالفسق عند ذلك لا يضر إيمانهم؛ فالرقص يجتمع مع الصلاة، والغناء مع القرآن، والتعري مع الحجاب، ولا ينقض أحدهما الآخر في هذه الأغاني، فيبقى الإسلام مجرد ممارسات وطقوس ولا علاقة له بضبط رغبات الناس وشهواتهم ولا سلطة له عليها.

- نشر البدع بين الناس هو جزء مما تمكّنه هذه الأغاني؛ فدعاء غير الله، والذهاب إلى الموالد، والحلف بغير الله؛ يُظهر على أنه في حقيقة الإسلام وصورته التي يتسم بها المسلم.

إن ظاهرة الأغاني الدينية هي سمة بارزة للتدين الجديد المتفلّت الذي يسعى كثير من الليبراليين وغيرهم إلى الترويج لهؤلاء باسم (الإسلام المعتدل). قال ﷺ: «ليكونن أقوام من أمتي يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف»(٢). ولهذا وغيره؛ فإنه من الواجب الاحتساب على هذا الشطح بجميع الوسائل المتاحة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

(١) صحيفة الجريدة.

(٢) أخرجه البخاري.